

دائرة المعارف الأدبية العالمية

- ٢ -

الأدب الإنجليزي

تأليف

هول دوتمان

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دائرة المعارف الأدبية العالمية

صدر في ٢٥ مجلدا

قام بنشرها : دار الفكر العربي

بإشراف أساتذة الجامعات المصرية

ونتيجة من كبار الكتاب في مصر والعالم العربي

تتضمن « دائرة المعارف الأدبية العالمية » على :

- ١ - سلسلة من الكتب القيمة تناول تاريخ مختلف الآداب مدعما وحدثها ، غربها وشرقها
 - ٢ - سلسلة يتناول كل كتاب من كتبها مدعما من المذاهب الأدبية (الكلاسيكية ، الرومانطية ، الرمزية . . الخ) .
- وسيتيح هذا كله تقاموس أدبي مرتب على حسب حروف الهجاء بترجم لأدباء العالم قديمهم وحدثهم ، ويخصي الآثار الأدبية العالمية الكبرى ، ويتناول كل ما يتصل بذلك من أسماء الأبطال والمواقع والبلدان وغير ذلك .

صدر منها :

الأدب المقارن تأليف فان تيجم وعده ٢٠ فرشا
الأدب الإنجليزي تأليف بول دونان وعده ٢٠ فرشا

ويصدر قريبا

الأدب الفرنسي ، الأدب الروسي ، الأدب العربي
الأدب الهندي ، الأدب الألماني ، الأدب الأمريكي
الأدب الصيني ، وغير ذلك . . .

تقديم

ناس في فيتنا أن نكتب كتاباً جديداً في تاريخ الأدب الإنجليزي ، للطباعة . أضف إلى ذلك أن هناك كتباً ممتازة في هذا الموضوع ، ككتاب الأستاذين لوجوي وكازاميان ، الذي لا يفوقه كتاب . وإنما نحن نرى إلى غاية أخرى . فقد راعينا مستوى الناريء المتوسط من جبهة الناس الذين يحبون أن يشقوا أنفسهم ، فحاولنا أن نستخرج من الأدب الإنجليزي ما بقي منه حياً بالفضل ، فمررنا مرور الكرام على الكتاب الذين لا يعنى أمرهم غير المختصين ، بل أغفنا ذكرهم إغفالا في بعض الأحيان ، ووقفنا وقفات حاولنا على العمود الأخيرة والمعاصرة ...

وقد يرى بعضهم أننا ضللنا سواء السبيل ، ومهما يكن من أمر ، فإن خطأنا — إن كان ثمت خطأ — قد صدر عن سلامة نية وحسن إيمان . أضف إلى ذلك أننا زهد لهذا الكتاب أن يكون مرشداً لا أكثر . وكل ما نرجوه أن يساهم في أن يجب إلينا هذا الأدب الذي يشبه أدبنا من كل الوجوه .

بول دوتمان

الفصل الأول

الأدب الانجليزي قبل تشوسر

١ - الليل الانجلوسا كسوني

جرت العادة من قديم الزمان أن يبدؤوا تاريخ الأدب الانجليزي بأولى قرزمات^(١) الغزاة الساكسون . فعلا بهذه القاعدة التقليدية المرعية ، ونزولا على إرادة هذه الاحكام السابقة المحترمة ، إنما نتحدث الآن حديثا موجزا عن الأدب الانجلوسا كسوني .

تسمى بهذا الاسم طائفة من المؤلفات كتبت بلهجات جرمانية مختلفة ، ونبشها الباحثون من زوايا النسيان إبان القرن التاسع عشر . وهي تعنى الباحث اللغوى عناية عظيمة ، إلا أنها لا تعنى مؤرخ الآداب فى شىء . وحين ظهر الرعيل الأول من الكتاب الانجليز الحقيقيين فى القرن الرابع عشر ، كانت هذه المؤلفات قد ماتت ، ولم يكن فى وسع أحد أن يفك رموزها لو شاء ذلك . . .

وياليتها تنقل إلينا ذلك الشعر ، البدائى الحشن . . . شعر

(١) عرزم الشاعر شعره : جاء به ردبثا .

الانجليز والبلوتلانديين والساكسون الذين استولوا على كل انجلترا
(بما عدا المناطق الجبلية في الغرب والشمال) في نهاية القرن السابع
إن هؤلاء الوثنيين الجفاة كانوا قد اعتنقوا النصرانية أفواجاً
في نهاية القرن السادس . فآديهم ، أدب مسيحي ، يحاولون أن
يدخلوا المسيحية في كل شيء . فالشاسون الذين نقلوا قصص
الأجداد فيما بين القرن السابع والقرن التاسع ، أبدلوا كل ما كان
يتألف ديانتهم ، فأثقاوا النصوص ، حتى ينصروها ، بما يطاق
وهو الا يطاق . إن الأدب الأنجلو ساكسوني أدب هجين :
ويديره بان علماء وبربرة مطاويح . . .

على أننا نستطيع أن نكتشف في شعر الشعراء
الأنجلو ساكسونيين الذين يسمون بالمنشدين فنونا باقية من
الجمال . ولا سيما في وصف البحر . وبينما نرى البحر في الآداب
السلتية طريقاً يؤدي إلى أرض غريبة عجيبة ، نرى البحر عند
هؤلاء الأنجلو ساكسونيين قوة هائلة قائمة ، تكره وتحب في
آن واحد .

ولغة هذه القصائد لغة جافة صخرية تسود فيها الأحرف
الخرساء ، تنفجر وتفرقع ، ويتناول بعضها على بعض ، وتشدد
في بداية الكلمات ، فكأن هذه اللغة قد وجدت لتدوس في أرجاء

دائيات واثباته تاريخيا ، وسأتم الإلتفات في زينة هذا التوسيع
بالأصوات ، وفي ذلك من التغيرات المتعددة لا يتألف ،
أحدهما من عدد معين من المقاطع ، ولا يتضمم ما غير تشابه
الأصوات .

والشعراء الانجلو ساكسونيون مواعون جميعا باستعمال
الأحاجي التي تتميز بها الشعوب الطغلة . ويتجلى ذلك في
إكثارهم من الدور في الكلام . فكما كانت العبارة أعقد كانت
أدنى إلى القبول والرضى . فتراهم لا يقولون « الأرض » بل
« حظيرة الجوف » ، فإذا قلت « السيف » كنت تستعمل كلاما عاما ،
أما إذا شئت التعابير النبيلة الراقية فقل « سيد السلاح » ،
و « الثروة العالية » و « الحلية اللامعة في المعارك الحامية » . وإذا
سمعت أحدهم يقول « سائح الأمواج يمحّر » ، على خشبة البحر ،
طريق الحيتان ، فاعلم أن ترجمة ذلك هي : الملاح يعبر على
قاربه البحر . والمصيبة أن هذه التعابير المركبة - وهي أصيلة عند
من ابتدعها - لا تلبث أن تصبح كليشيات . وبما يزيد في غموضها
ما يعمدون إليه من تركيز الأسلوب حتى يصبح أشبه بأسلوب
التلغرافات ، وما نلاحظه من تغير في الموضوع بدون ما داع ،
ومن تراكم الاستعارات في غير ما انتظام .

وهذا الرابع بالاجماع هو الذي لنا بالمتدين إما، نظم
أناذ مشهور، تتدلى بالعلية وبالبيان اليومية، وكثيرا ما يخرج
من قوادس الذوف، وتصف الى البنانه المقدسة. ومع ذلك فلعل
هذه النسايد النصصارة أن تسكن أقصر، ما في الشعر
الأنحار، ما كمو في إلى الاحتمال.

أما النسايد الفلمولة فما أذن، أبا يقرؤنا راديا، كالحمة
بيولف الكبيرة المولفة من ٢١٨٢ بيتا، والتي اقربها أحد
الشاسين في القرن العاشر من أسطورة داناركة فديمة، يريد
أن يعزف لها مسيحا على طبول وتية.

وتروى لنا هذه الماحمة كيف أن « بيولف » بطل الغوت
مضى إلى نعدة ملك الدانياركيين، الذي كان يسكن فصره شيطان
في صورة إنسان يدعى جرندل. فلما وصل « بيولف » اشتبك
مع الشيطان في معركة حامية، جسما جسما، وما زال به حتى
انتزع إحدى ذراعيه. ويموت الشيطان في مغارته، فيبدو
للقارئ ان القصة انتهت، ولكنها ما تلبث أن تقفز مرة ثانية،
فإن لجر ندل أما أشد من ابنها بأسا، وأصعب مراسا، تهب
للاتقام من ابنها، فينبرى لها بيولف، وما يزال يلاحقها حتى
يصل إلى مغاره تحت البحر، وهناك يتنكبان في معركة حامية
تنتهى بنظر البطل وموت الجنية.

ثم تستأنف الحكاية مرة ثالثة . فإن بيولف يصبح ملكا ،
ويحكم مدة طويلة ، فيحتاج بملكته تنين تندلع من فم السنة من
اللب . فيدفع صاحبنا ، إنقاذاً لشعبه ، إلى منازل التين ، فيظفر
عليه ، ولكنه يجرح جرحاً قاتلاً . . . فيموت . . .

ولا شك أن قد كان في هذه المراحل الثلاث مادة صالحة
لحكاية جميلة . ولكن مؤلف « بيولف » رجل حزين ، فلم
يستطع أن يغنى فرح القتال . وكان يعوزه الخيال على وجه
الخصوص : فلعل في إمكان صبي صغير أن يصف موت الجنية
بأكثر من تلك الإشارات السريعة التي وصفه بها الشاعر ،
حيث قال : « كان كالوحش في النضال ، قد يئس من حياته ؛
فاستولى عليه الغضب فأغمد رمح الصلب في عنق الشيطان فحطم
عظامه وهشم لحمه ، وخرت الجنية على الأرض ،

وبعد ، فهل نجد في القصائد الدينية تلك النغمة الحماسية التي
أعوزت بيولف ؟ كلا ، للأسف . على أن هناك أسطورة جميلة
يجعلنا نعتقد أن الوحي الإلهي لم يعوز المنشد الأول الذي غنى
ملحمة الانسان . كان يدعى كدمون ، وكان يعمل
خدماً في دير هلدن . وكان امرأً خجولاً جاهلاً ، حتى أنه

كان ، إذا أتى دوره في الغناء في الحفلات والولائم ، يهرب خجلا وحياء . وفي ذات ليلة ، بعد أن هرب في مثل هذه المناسبة ، وترك قاعة الشراب ، مضى إلى الاسطبل الذي كان يخفئه ونام . وإنه لني إغفاءته الأولى ، إذا بكائن من نور يأتيه في المنام ويناديه : — « كدمون ، غن لي شيئا ، . فيجيب : — « أغنى ؟ إني لا أحسن الغناء . ومن أجل هذا تركت المائدة ، وأنيت إلى هنا ، ، فيجيبه الملاك : — سوف تغنى مع ذلك .

— ولكن ماذا أغنى ؟

— غن لي نشيد الخلق .

وأخذ كدمون ينشد أليانا في تمجيد الخالق . فلما استيقظ تذكر هذه الآيات . ودهش الذين كانوا حوله دهشا عظيما ، ومنذ ذلك اليوم أصبح يعد شاعرا كبيرا .

إلا أن الملاك الذي ظهر لكدمون لم يكن ، وأسفاه ، يملك ساطة تامة ، فإن كدمون وتلاميذه قد خالفوا لنا قصائد غاية في البلادة ، فنظموا التوراة نظما أخرق ، وأفقدوها ما فيها من قوة رائعة ومذاق عذب . ولسكنهم كانوا في بعض اللحظات يستردون شيئا من القوة البريية حين يصورون الشيطان وهو يعول من الغضب .

وهناك كذلك شيء من التورم في بعض أجزاءه . نولف
وهو من قتيان المنشدين ، وكان في سابعه نيل نور تريا ، وكان
فارسا جميلا ، يؤلف الأناز ، وينظم شعره في الحرب ، ويتجمل
الحرف ، ويمجد الحب . والسكتة على أثر علم ظهر له فيد الصليب
المقدس اشماز من حياة المحون ولم ينظم بعد ذلك في خير
التقوى . وأحسن فصيحة ملحمة له هي « المسيح » ، وفيها يتوزع
التجسد والقيام والحكم الأخير .

أما النثر الأنجلوسا كسوني فهو أقرب إلى الدقة وأدنى إلى
الانسياب الطبيعي ، ولذلك بق حيا أكثر من الشعر . والحق أنه
يتبع خطى اللاتينية ، حتى إذا اتعد عنها رأيه يتمر ويظم . وقد
أمر الملك ألفريد ، قاهر الدانماركيين في القرن التاسع ، بترجمة
آثار بعض الشماسين المصطفين أمثال أروز ، وبوتيس ، وييد
والقديس جريجوار الكبير ، وبفضله خرجت رواية الأخبار
الأنجلوسا كسونية عن كونها تعدادا جافا للوقائع ، وأصبحت
تحتوى على قصص تاريخي حقيق . فعاش هذا الملك على رأس
نهضة أدبية عقلية أخلاقية . ولكن المؤسف أن هذه النهضة لم
يكن لها غد .

والفنان الوحيد في النثر الأنجلوسا كسوني هو الراهب

إلزابيث، النبي أ كسبه الإرماء، الأكبر في العام الألف، طهجة
«ويرة سادقا»، وقد كتب كتباً في حياة القديسين لا يزال لبعضها
ككتاب «حياة إزولد» و«حياة إدموند» و«حياة سوذن قيمة لدى
المؤمنين بالكتابات الدينية». وقد خاف كذلك خطباً في ثر
موزون لا يناو من التناغم والإنسجام. ولعل فيه استعداداً
لأن يدون شاعراً كبيراً، ولكن اللغة التي كانت في متناول يديه
كانت من النقر بحيث لا تسمح له أن يهبر عن رؤاه وأعلامه
على النحو المنشود.

٢ - الفجر: عهد الانجليزية الوسطى

لقد غير الغزو النورماندى (١٠٦٦) العادات الانجليزية
تغيراً حاسماً إن لم يظهر تأثيره في ميدان الأدب بمثل السرعة التي
ظهر بها في ميدان الإدارة. فقد كان تأثيراً عميقاً في الجوهر
والصورة جميعاً.

وأصبح الكتاب الانجليز منذئذ يتوخون النظام والوضوح
والمنطق، وأصبحوا يغنون الفرح والحب والموسيقى، وأخذ
الناس يضيفون إلى المفردات الساكنونية ألفاظاً فرنسية،

واستفادوا من التركيب الفرنسي المرن الذى يطلق القلم ويسير .
التعبير ، وأصبحنا نرى الشعراء لا يعوون عواء على النحو الذى
رأينا ، بل يتحدثون عن عواطف القلب واندفاعات النفس
فى كلام لير جميل ، فالأحرف الخرساء تفسح المجال للأحرف
الصوتية ، والوزن يرقى إلى القافية ، وعدد المقاطع يحل محل
تشابه الأصوات .

وطبيعى أن النصوص الدينية ، سواء فى الشعر وفى النثر ، هى أوفر
النصوص وأغزرها . ومنها ما لا يطاق لحذلقته مثل «الأورميات»
من تأليف الراهب أورم وهى نظم للأناجيل الأساسية . إلا أن
منها ما يمتاز بسذاجة رائعة مثل «سنة السيدات المترهبات» ، وهو
كتاب فى الحياة المسيحية يتوجه به مؤلفه إلى ثلاث سيدات
يرغبن فى العزوف عن العالم ، ومؤلفه أسقف لا يدخر شيئا من
النصائح فى تنظيم العبادات ، حتى ليبدى بنصائح فى اختيار الجوارب
والغلائل وأربطة السيقان .

وتبلغ البراءة والسذاجة بالمؤلف أن كتابه يشوق القارى .
الحديث أعظم الشوق . وما أجمل تلك الأوصاف التى ذكرها
ريشارد رول ، ناسك هامبول فى كتابه «وخز الضمير» ، عن
الجحيم الذى يشرب أهله النار ويمصون رؤس الأفاعى .

وإنك لتنتع في بعض النصوص الدينية الصرفة من حين إلى
حين على روح شعرية ظاهرة ، كالمحاورة الشعرية الرمزية بين
البوم والهنزار التي تبتدىء بوصف جميل للطبيعة :

« بدأ الهزار بغرد ، في ركن من الوادى ، على غصن جميل ،
ومن حوله أزهار كثيرة على سياج كثيف برى ، من طويل
العشب ومختوضر الخيزران . . . وغير بعيد من ذلك يقبع
جذع قديم معطوع ، يشبه اللباب ، وقف عليه البسوم
يرسل ألقانه .

« ثم تبدأ المناقشة : أينا أحسن غناء ؟ أما الهزار فيقول إنه
يغنى الشباب الطروب ، يغنى فرحة الحياة ومجد الخالق ، وبالغناء
سوف يحظى بعطف السماء . وأما البوم فيزعم أن السماء تنكر
هذا الإسراء . وأنه لا يحظى بعطف السماء إلا البر المتكشف
المتببد . وأما من هو الحق فإن المؤلف لا يعان في ذلك عن رأى ،
والشباب والكهول هم الذين سيفطعون برأى ، كل وما جبل عليه ،
وفي القصيدة الرمزية التي عنوانها « اللؤلؤة » (١٣٥٠) نسمع
أول مرة ، فى الشعر الانجليزى الدينى ، نغمة صوفية : يفقد
أحد الآباء ابنته مرجريت . وإنه لنائم على قبرها فى ذات يوم
صائف ، إذا هو يعلم أنه يدخل بلدا من نور وجمال ، بلدا

في ذلك النهار بلهجة عساه لان النجوم . وعلى الزنادقة الأثر
 النهر يرى الآب سمينه بيضاء كزنبقة ، مقبلة عليه . وزار البراهمة
 مصدرها لؤلؤة لأمانته ويحسبها الرجل ابنته فيحاطبها . ما لها اللؤلؤة
 المزينة بالآلى ، ألسنت اللؤلؤة التي أتعجب عليها . فيجيبه الـ
 بأنه لم يفقد ابنته ، فإنها هي تعيش في روضة راتنه ، ولديها وسمان
 يلحق بها ، وما غير الموت بقادر على أن يسلبه يعبر النهر . ثم
 تشير إلى راية يستطيع أن يرى منها التدمير البديده . فيأمر
 الرجل إلى الراية مسرعا . ويطلع التمر . فإذا به يرى بين
 صفوف الملائكة وطوائف العذارى في ثيابهن البيضاء ، يرى
 لؤلؤته اللامعة ، في غمرة من النور والجمال والفرح . فيحاول
 جهد اليأس أن يلحق بها . ثم يستيقظ مستحبا ، رأسه على
 قبر ابنته . . .

ولاشك أن خير الآثار غير الدينية في هذه الفترة هي القصائد
 الطويلة التي تسمى خطأ بالتاريخية ، والتي استمدت فائتها من
 كتب التاريخ أو روايات الفروسية . ففي عام ١٢٠٥ كان هنالك
 راهب يعيش على حدود مقاطعة ويلز ، نظم ، شعرا ، كتاب
 «الفظ» لصاحبه ويس الانجاو نورماندى ، واستطاع هذا
 الراهب الذي اعتاد أن يعيش قريبا من السماء أن يحيط قصة
 «المائدة المستديرة» بجو من الخرافة والحلم لن يتبدد أبدا .

ويشتمع على المادة البرويتانية في أكسبرق مبدية من قهرماند
الذي في الأيوال من القرن الرابع عشر ، ودي « سيرجور والمارس ،
الآن في . يرون الشاعر في هذه القصيدة ، بلغة جافة صخرية ،
سه فسه واقعية . ما كان من أمر آرثر وفرسانه حين تحسدهم
تتلاقى أسر يمتطي صهوة جواد أخذتم ، فاستجاب آرثر للتحدي
فدتم رت ، عنده يحد فأمر .

وفي هذه العمدة لا يظهر الشعر القصصي كما يظهر الشعر الغنائي
ولكن السكوخ الصخير البليل خير من قصر منيف قبيح . . فإن
هذه السبع القصيرة التي خلفوها لنا في هذه الفترة تحتفظ بالكثير
من الشباب الفتي والطاروة الغضة ، مما لا تتمتع به الآثار الطويلة .

« عاد الصيف — طيس الأطيبار ، ملء الحناجر
« نبت الروع وأرهم المرعى — واخصومر العاب ، ومن يا أطيبار »
« والماعزى تجرى وراء التيس — ووراء نورها تحار البيرة —
« والطباء تنواب ، مرحة . لعد آتى الصيف من بأطبار ، مرحة . »
ولم يظهر الرعيل الأول من كبار الكتاب الانجليز إلا في
الربع الأخير من القرن الرابع عشر .

ولنذكر أولئك الخدعة الأدبية اللطيفة ، أعنى كتاب رحلات
سير جون ماندفيل ، (١٣٧٧) المقتبسة عن چان دي بورجونى
الفرنسى . وكان يعد دليلا للحجاج الراغبين في أن يعرفوا شتى

الطرق المؤدية إلى القدس . وفيه يصف لنا ماندفيل (وليس له من وجود) العجائب التي رآها : وديان يسكنها جن وأقزام ، أنهار إذا اغتسلت فيها عاد إليك الشباب ، ماس يندت كما تندت الأشجار ، جماعات من النمل تعيش على أكوام من الذهب المسحوق ، الخ . . . وقد ساهم هذا الكتاب في تشجيع الانبياز على حجة الأسفار ، فليس ماندفيل إلا سلفاً لروبنسون . . .

وأما حجة الحكايات الأخلاقية التي كانت قوية كذلك في تلك الفترة فقد وجدت من يرضيها ، وهو الشاعر جون - جوو . (١٣٣٠ - ١٤٠٨) ، وهو شماس لم يقبل بين رجال الإكليروس . فعاش ملاكافي الريف ، وخلف لنا بعض الآثار باللاتينية والفرنسية والانجليزية .

وكتابه الانجليزي الكبير ، « اعتراف العاشق » ، عبارة عن طائفة من الحكايات جمعت جمعاً اصطناعياً . ترسل فينوس إلى كاهنها جنيوس عاشقاً بانسا يبحث عن اعتراف له . فيأخذ جنيوس بتوجيه أسئلة منظمة إلى العاشق يتناول فيها الخطايا الكبيرة والخطايا الصغيرة واحدة بعد واحدة ، ولكي يشعر العاشق بأنه ارتكب خطيئة أو لم يرتكب خطيئة يستشهد لكل خطيئة بحكاية ، فمثلاً يستشهد للنفاق بحكاية حصان طروادة ، الخ

وكثير من هذه الحكايات جميلة من ناحية القصص ، وإنما يعوزها روح الفكاهة ووضوح الشخصية . ولا تتجلى شخصية جوور إلا في قصيدته اللاتينية *Vox clamantis* فها هنا يخاف الشاعر من الثروة الطائشة الكبرى في عام ١٣٨١ فتراه يجرؤ على إعلان رذائل الشعب ، ومفاسد البلاط . وكان الفساد ضارباً أطنابه في المملكة الانجليزية ، مما أنطق الألسنة بالنقد ، حتى رأينا من الناس من يعلن انتقاده على نحو أمر مما فعل صاحبنا جوور الرجل الطيب . وفي هذه الأثناء ، كان ويكلفُ البروتستانتى الانكليزى الأول ، يترجم التوراة إلى الانجليزية : وكانت ترجمته خرقاء ، لأنه أسرف في التقييد الحرفى بالنص ، وكانت عسوة بالاستعمالات اللاتينية . ولكنها كانت واضحة إلى حد كاف ، فاستطاعت الأساليب التوراتية أن تدخل إلى اللغة الانجليزية ، وبذلك يكون ويكلفُ قدبذر ماسوف يحصده القرن السابع عشر .

وفي نفس الوقت الذى كانت فيه التوراة تتسرب إلى الجمهور كانت هناك قصيدة شعرية طويلة تصف رذائل الحكام ، وتقدم للمقسس نظرة صوفية إلى العالم . وتعرف هذه القصيدة بعنوان « بطرس الفلاح » ، ويظهر أن مؤلفها ، ولیم لانجلاند ، كان

يعيش حياة بوهيمية ، ويكسب قوته من الترتيل في الجناز ...
وكان رأسه طافحاً بأفكار جديدة ، إلا أنه كان فوضوياً
يعوزه النظام :

دينام أحد الدعاة في صباح من مايو ، فوق روابي مالفرن ، تبلى
مقربة من نهر صغير ، فيرى فيما يرى النائم ، جمهوراً مزدحماً في
وسط حقل واسع ، فيتساءل : علام يضطرب هذا الجمهور ؟
فتجيبه سيدة جميلة هي الكنيسة المقدسة : إن هؤلاء الناس
يهتمون بشئون الأرض بدلا من البحث عن الحقيقة . وتشرح
له الكنيسة المقدسة ماهي الحقيقة . فيسألها النائم ، وما هو
الكذب إذن ، وترجوه أن يلتفت ، فإذ هو يرى
الكذب والخيانة يهمان أن يتزوجا ، ويرى الكذب يلجأ إلى
بائع المغفرة ، ومتسولى الرهبان ، والتجار ، الخ . ويرى
العقل يحض الجمهور على الذهاب إلى برج الحقيقة : وهناك
يأتى الاعتراف بالخطايا السبع الأساسية ، فيكون مناسبة
لذكر أوصاف شائقة تتناول الحياة في القرية ، والخمارة ،
والدير . الخ . ثم يحزم الجميع أمرهم على أن يبحثوا عن الحقيقة .
فتظهر المشكلة : أى الطرق نأخذ ؟ إلى هنا كانت الأمور غامضة
فحسب . ولكن بعد ذلك يبدأ التفكك . فإذا بنا أمام خليط

من الشخصيات الرمزية ، ومزيج من حكايات التوراة . وفي
النهاية نرى الضمير ، وقد حبسه الحسد والكبر والكسل ،
يستتجد بالندم . ولكن الندم يغط في نوم عميق . . فيستولى
على الضمير اليأس ، فيحمل عصاه ، ويقرر أن يطوف في أرجاء
العالم « حتى يجد بطرس الفلاح » (المسيح) .

وقد قلدت آثار لانجلاند كثيرا . وأصبحت شائعة جدا ،
وهي لا تخلو من القوة والجمال ، إلا أنها تفتقر إلى كثير من
الوضوح والانسجام ، بحيث لا يمكن أن نعد لانجلاند من
الفنانين .

والحقيقة أن ليس في هذا العصر إلا واحد وهبت له موهبة

الشعر : جفرى تشوسر .

الفصل الثاني

جفرى تشوسر



(١٣٤٠ - ١٤٠٠)

١ - الشاعر وحياته

هذه هي القمة الأولى من قمم الأدب الانجلىزى . فانما
كنا إلى الآن فى سهل نافع لا ترى فيه إلا بعض الجثوات
تركز عليها قدمك . وتشوسر هو الكاتب الانجلىزى الأول الذى

تخلص تخلصا حاسما من الأصول الجرمانية .

ولقد كان لظروف حياته ، كسياسي وكرجل من رجال الحاشية ، شأن كبير في آثاره ، فقد أتاحت له هذه الظروف أن يتصل بجميع أنواع الناس والشعوب والعقليات . وهو ابن تاجر كبير كان يتعاطى تجارة الخمر في لندن . وقد قضى فترة الطفولة والمرحلة كلها في المتروبول . وفي السادسة عشرة من عمره دخل في حاشية دوقه كلارانس . ثم درس الحقوق . وفي هذه الفترة حكم عليه بدفع غرامة قدرها شلطان جزاء له على ضرب راهب فرانسيسكاني في فليت ستريت . ثم أقام في البلاط . ونظم قصائد غزلية أذاعت صيته . وحارب في فرنسا عام ١٣٥٩ ، وأسره الأعداء ، وفك من الأسر بدفع فدية ، وعين أخيراً حاجباً على باب الملك ، ثم فارساً مراقباً للضرائب (١٣٧٤) .

والحادث الهام الذي وجه حياته هو أنه أرسل من قبل الملك ، فيما بين عام ١٣٧٢ وعام ١٣٨٤ في مهمات دبلوماسية ، وقادته اثنتان من هذه المهمات إلى إيطاليا ، الأولى إلى جنوا وبيزا وفلورنسا ، والثانية إلى لمبارديا . وكان ذلك بالنسبة إليه أشبه بالسكشاف ، فقد انتفض انتفاضة فكرية مفاجئة ، ففهم ما هو الفن وما هو الشعر .

فلما عاد إلى إنجلترا كانت حياته نهياً بين الأدب من ناحية ،
وبعض المهمات الرسمية الصغيرة من ناحية أخرى . وكان يتمتع
بفراغ كبير ، ولا سيما حين جرد من وظائفه إبان غياب حاميه
جان دي جان ، وكان عليه أن يكتفى بجراية يسيرة لا تدفع
له بانتظام . ومات في عام ١٤٠٠ . ودفن في دير وستمنستر . وكان
أول من دفن في هذا الدير .

وقد امتاز تشوسر بهذه الميزة الكبيرة وهي أنه لم يتكل على
مواهبه الطبيعية ، بل أخذ نفسه بالتعليم الدائب المستمر ، فتأثر
أولاً بفرنسا ، وفي هذه الفترة القصيرة ترجم « رواية الوردة » ، ثم
تأثر بإيطاليا ، وكانت هذه المرحلة مرحلة حاسمة في تفتح مواهبه ...
ففي هذه الفترة إنما ابتدع أدواته الشعرية ، أعنى البيت المقتفى المؤلف
من عشر مقاطع . وتبنى الإنجليزية لندن ، وجعلها اللغة الأدبية
للبلاد . وقد ترجم أشهر المؤلفات الإيطالية ، وتلاحظ في ترجمته
تقدماً مستمراً ، فكل ترجمه خير من التي سبقتها . كما أنه عمد إلى
طريقة الاقتباس ، وأشهر اقتباساته (١٣٧٣ - ١٣٨٥)
« تريلوس وكريسيدا ، و « أسطورة نساء الخير » ، وقد
جمعها من كتب بوكاشيو وأوفيد عن حياة كليوباترة وديدون ،
ولوقريطس ، وأريان ، وفيلو ميلا ، وغيرهم .
غير أن أجمل قصيدة من قصائد هذا العهد الإيطالي في حياة

تشوسر هى تلك القصيدة التى تم فى أوضح صورة عن تشوسر
الانجليزى ، تشوسر الحقيقى ، وهى قصيدة رمزية بعنوان «برلمان
الطيور» ، وقد نظمها فيما بين عامى ١٣٨٢ ، ١٣٨٥ ، بمناسبة
زفاف ملكى ، زفاف آن دى بوهيم إلى ريتشارد الثانى ملك إنجلترا
فقد كان يتقرب إلى آن هذه ، عدا ريتشارد الثانى ، وفى الوقت
نفسه ، أميران ألمانيا ، فصور لنا تشوسر نسرة جميلة يتقدم
إلى خطبتها من أمها الطبيعة ثلاثة نسور ، فيجتمع برلمان الطيور ،
ويبدى كل رأيه ، فأما الطيور الكاسرة ، أمراء المملكة ، فأنهم
يناقشون الدعوى مناقشة جدية ، ويرونها سبباً كافياً لوقوع حرب
خطيرة . وأما الطيور الدنيا ، من أمثال التجار الذين يركبون الماء
والبورجوازيين الذين يتغذون بالديدان ، والزراع الذين
يأكلون الحبوب ، فإنهم لا يعنون كبير عناية بهذه الناحية الهينة
التي تتعلق بالشرف . فترى الأوز الناطق بلسان الطيور المائة
والسكوكو الناطق بلسان آكاة الديدان ، يصرحان بأن الأمر تافه
لا قيمة له . وبين هاتين الفئتين المتطرفتين أعنى فئة اليسار وفئة
اليمين ، ينبرى اليمام ، الطائر الشعري ، يود أن يبدى رأيه ، ولكن
يتصدى له البط ، ويجعل يسخر منه ويهزأ به . وأخيراً تقف
السيدة الطبيعة وترجى إصدار الحكم .

ولا يقل الثلث الأخير من « برلمان الطيور ، جمالا بمن
حكايات تشوسر الممتازة . وإنما الذى أربك تشوسر هو اهتنامه
بالإبقاء على الرمز ، وترى هذا الإرتباك يزول حين يأخذ تشوسر
بسرده حكاياته لمجرد السرد ، بدون سابق فكرة أخلاقية أو غاية
سياسية .

٢- حكايات كاتربرى

وفى عام ٣٨٥؛ خطر على بال تشوسر أن يوجد خيطاً ينظم
فيه قصصه الشعرية التى سبق قرضاها ، وإليك ما تخيله لذلك :
من فندق تابارد ، فى ضاحية ساوثورك بلندن ، يطعن بعض
الحجاج ، قاصدين إلى ضريح القديس توماس بكت ، الأسقف
الشهيد . وكان عددهم يبلغ الثلاثين ، من كافة طبقات المجتمع .
ودليلهم صاحب فندق تابارد ، رجل شههم طروب ، يخشى السامة
وطول الطريق ، فيقترح على أصحابه ، تزجية للوقت ، أن يروى
كل منهم حكايتين فى الذهاب وحكايتين فى الاياب . ويلقى
الإقتراح قبولا من الجميع ، ويبدأ السلسلة أحد الفرسان . .
ولم يتسع وقت تشوسر لإنجاز مشروعه ، فلم يخلف لنا إلا
ثلاثا وعشرين حكاية ، وظل كثير منها ناقصاً .
ليست موضوعات حكايات كاتربرى بالموضوعات الأصلية ،

فقد استمدتها تشوسر ، كما فعل جوور ، من الروايات التي كان يتداولها الناس في القرون الوسطى . وإنما تظهر أصالة تشوسر ، ويظهر تفوقه على معاصريه ، في طريقة عرضه لهذه الحكايات . فإن له أولاً قدرة عظيمة على التصوير ، فإذا قرأت حكاياته ، رأيت بأم عينك عصره كله يعيش فيه مرة أخرى : رأيت العصور الوسطى الجميلة بغزلها الرقيق (الذي يتخذ حجة لمجون خفي) ، ونسائها اللأثى طلين وجوههن بالأصباغ الزاهية ؛ وشبانها المتأنقين الذين عقدوا على أجيادهم الياقات الواسعة ، وضفروا شعورهم ، وتطيّبوا بحامات ماء الورد ؛ ورأيت العصور الوسطى التي تؤمن بالخرافات ، فتعتقد بالأشباح ، وتخشى يوم الجمعة لأنه يوم مشئوم ، ويخدعها أهل الصنعة وجماعة المنجمين ؛ ورأيت العصور الوسطى المولعة بالجدل ، وقد انهمك أهلها في سؤال وجواب وأخذ ورد ومناقشة ومطالعة . ورأيت العصور الوسطى المضياقة ، وقد كثرت فيها الفنادق ، واختلط الحابل بالنابل ، فأوى الضائف والمضيف إلى فراش واحد ، وناما معا إن كان إلى النوم مع البراغيث سبيل . ورأيت كذلك العصور الوسطى المحاربة . وقد امتلأت بأساليب العنف وقطع الطرق والقتل والتذبيح .

ويتجلى تفوق تشوسر على جوور أو وضح ما يتجلى في قدرته .
على ربط مختلف الحكايات بعضها ببعض ، مما ينتهي الراهب من
حديته عن موت بعض الشخصيات الشهيرة كنيرون وقيصر
وكريزوس وغيرهم ، حتى يقول العارس بعد انقضاء ساعة من
الاستماع إلى هذه الحكايات المحزنة :

- كفانا من هذا ، ياسيدى المحترم! . أعتقد أنه حسبنا

ما سمعنا من حزن . فيضيف صاحب الفندق مؤيدا :

- أقسم بأجراس كنيسة سان بول إن ما تقوله ، أيها الفارس

لصحيح . إن هذا الراهب ليكثر جدا . سيدى الراهب ، حسبنا ،

من هذا إن حكايتك تمل كل السامين . مثل هذه الحكايات

لا تساوى قيمة فراشة ، فليس فيها مزاح وليس فيها لعب . استحلفك

أيها الراهب أن تقول غير هذا .

ولسكن الراهب يرفض ، فيتوجه صاحب الفندق إلى الكاهن ،

ويلقى إليه بدقة الحديث ، فيأخذ السكاهن يقص حكاية الديك

شانتكلير والدجاجة بيرتلوت .

وما يكاد السكاهن الذى سر السامعين ، يفرغ من كلامه ،

حتى يجد المؤلف وسيلة أخرى لطيفة للانتقال من حكاية إلى

أخرى ، على لسان شخص آخر .

وأكثر الأجزاء أصالة من هذه الحكايات هو التمهيد ، أعني تقديم هؤلاء الحجاج . فقد رسمهم تشوسر في صورة واضحة المعالم بارزة القسمات . وبديهي أن تشوسر قد توخى أن تكون نماذجه غريبة بعض الغرابة ، ولكن لم يصل بهم إلى حد الكاريكاتور . وإليك صورة الراهب : « راهب جميل ، مولع بالصيد ، كل هواه أن يجرى وراء الأرنب ، لأن هذا لا يكلفه شيئاً . . ومن بين كافة المآكل ، يحب الأوزة الدسمة ، وهذه صورة الرئيسة : « كانت بابنسامتها بسيطة جدا ، متحفظة جدا . . وكان أعظم أيمانها أن تقسم بالقديس إيلوا . واللغة الفرنسية كانت تجيدها حديثا ، على طريقة مدرسة ستافورد لوبو . . لأنها كانت تجهل فرنسية باريس . . . وعلى المائدة كانت أنيقة ، أنيقة جدا ، فما كانت تدع شيئا من الفسات يسقط من شفتيها ، ولا كانت تغمس أصابعها في المرق كثيرا » .

ولعل كل الصور الأخرى جديرة بأن تذكر . . صورة الفارس الفتي « ذى الصفائر المجددة التي كأنها ضفرت على عجل ، والتاجر ذى اللحية المفروقة ، والمرأة ذات الأسنان المتباعدة ، والحجاز ذى الأنف الذى يعلوه ثؤلول تقوم فوقه خصلة من الشعر أشبه بأوبار أذن الخنزير ، . . الخ

والحكايات التي يرويها الحجاج متناسبة مع طبقتهم الاجتماعية وعقليتهم الخاصة تناسباً مدهشاً . ومن الصعب أن نصفها تصنيفاً دقيقاً . ولكن يمكن أن نقسمها إلى قسمين : الحكايات الجدية والحكايات المرحة .

فأما الحكايات الجدية — أقول جدية ولا أقول مظلمة لأن لهجة تشوسر مشرقة دائماً — فمعظمها مستمد من روح الفروسية ، التي احتضرت في القرن الرابع عشر ، وكان تشوسر يتحسر على زوالها كما يتحسر اليوم راكب القطار على جمال السفر بالعربات فالفارس يروي آلام أخوين محاربين هما بالامون وأركيت ، وقد عادى أحدهما الآخر لأنهما أحبا امرأة واحدة . والرئيسة مدام إجلاتين تبنى ألمها لموت شماس صغير في السابعة من عمره ضرب اليهود الخبثاء عنقه . والطبيب يروي حكاية مصرع ثرجينيا التي قتلها أبوها إنقاذا لها من رذيلة القاضي آيوس . والشماس يقص مغامرات التقيّة الصابرة جريزليدس . والفتي الريني يتحدث عن شهامة آرفيراجوس سبد آر موريك ، وزوج النبيلة دوريجين ، وعن كرم أوريلوس محب دوريجين .

وإن المرء ليشعر بلذّة عظيمة وهو يقرأ هذه الحكايات ، ولكنه يشعر من حين إلى حين بشيء من الضيق ، إذ يحس أن تشوسر

ينحني عنه شخصيته الحقيقية ، بل يسخر من حكاياته ومنا جميعاً .
وتشوسر الحقيقي هو تشوسر الحكايات المرحه ، تشوسر
الماكر اللاذع ، الذي تجود قريحته أكثر ماتجود في الحديث عن
النساء ، هذه المسوخ التي وجدت لشقاء الإنسان . فيجرى على
لسان الديك شاتكثير أن المرأة عذاب الرجل ، ويرينا كيف أن
المرأة مسفة في تفكيرها ، بليدة جاهلة عنيدة ، وأنها إذا كانت ذكية
لم ينصرف ذكاؤها لغير الحيلة والغش والخداع . فهذه أليزون الصبية
زوجة جون ، النجار العجوز ، تعشق الطالب نقولا الذي يقنع
زوجها ، حتى يفسح له المجال ، بأن الطوفان سيحل من جديد ، وأن
من الخير أن يقضى الليل داعياً مصلياً في قادوس معلق في السقف .
وهذه امرأة الحجاز وابنته تستقبلان في سريرهما ، والرجل يموت
من السكر ، طالبين من طلاب كامبردج أتيا يشرفان على طحن
دقيق الكلية . وهذه مايوزة العجوز يناير ، الذي أصبح أعمى ،
تتساق شجرة الكثرى حيث ينتظرها الجميل داميان . . . وهذه
أخرى وأخرى . . . إن كل النساء خائئات أو قاسيات أو خبيثات
أو غادرات . . .

ولكن لا يندعنا هذا الكلام فإن عدو النساء هذا إنسان
رقيق القلب ، يحاول أن ينحني رقة قلبه بنوع من الحياء الوحشى ؛

وقد تنطلق هذه الرقة من عقابها ، فاستمع إليه مثلا وهو يصف ،
الطبيعة الجميلة :

« حين تنفذ قطرات أبريل اللطيفة إلى الجذور الجافة من شهر
مارس ، فتغسل كل عرق من العروق بهذا السائل الذي بفضله
تتفتح الأزهار ، وحين تنعش أنسامه اللطيفة غض النباتات
في كل غصن وكل بستان ، وتأخذ الطيور تغرد ألحانها الجميلة
بعد أن نامت الليل كله مفتحة الأبصار ، عندئذ تقوم في النفوس
رغبة قوية في الحج والأسفار . »

إن تشوسر غض كشر أبريل هذا . . . وأبريل خالد . . .

٣ - عودة الى الليل

بعد تشوسر ، نعود ثانية إلى سهل يغشيه الضباب ، ونبقى فيه
مدى قرن ونصف قرن .

وقد حاول المتلمذون على تشوسر والمعجبون به أن يتبعوا
خطاه ، ففي عام ١٤١١ كتب توماس أوكليف كتاب « حكم
الأمراء » ، وهو كتاب تعليمي يذكر بحكايات تشوسر كما يذكر
صوت الزريق بتغريد الهزار . وفي عام ١٤١٥ نظم الراهب
لدجيت قصيدة طويلة في تاريخ طيبيا ، قدمها على أنها فصل مكمل

لحكايات كانتربرى . واستطاع الدومينيكي باركلي أن يمتع
أجيالا كثيرة ، باقتباسه « مركب المجانين » عن برانت الألماني
في عام ١٥٠٩ معتمداً على الترجمات الفرنسية واللاتينية ومضيفاً
إليها شيئاً من عنده . ونظم جون سكلتون قصيدتين هجائيتين
لاذعتين ، أولاهما ، « لماذا لا تأتون إلى البلاط » ، وقد أراد بها
مهاجمة الكاردينال فولس المطلق الساطة ؛ والأخرى
« كولان كلوت » ، وهى صرخة الفلاح والصانع يستنكران
فساد رجال الكنيسة . ولكن هاتين القصيدتين قد عني عليهما
الزمن ، فى حين أن غيرهما لا يزال يحتفظ بشيء من الجمال .

والقصائد الصغيرة الغفل ، فى هذا العصر ، هى التى صمدت
للزمن أكثر من غيرها . ومن أشهرها مناقشتان رمزيتان
« السكوكو والهزار » (الحب ضد الحكمة) « والزهرة والورقة »
(العمل ضد الفراغ) ، وقصيدتان شعبيتان تعدان من عيون
الآثار الأدبية ، أولاهما ، « تشيفى تشيز » ، وهى تروى بسذاجة بريئة
وعاطفة صادقة المعركة الدامية بين پرسى الانجليزى ودوجلاس
الإيقوسى . والثانية « الابنة السمراء » وهى أكمل من الأولى
من الناحية الفنية ، وهى تروى لنا كيف أن عاشقا مرتابا يريدان
يتمتحن إخلاص حبيبته الجميلة ، فيلقى فى روعها أنه سيعيش فى منفى

لأنه خرج على القانون ، فيخاطبها بمثل قوله :
ليس من العرف ولا من القانون . أن تذهب فتاة صبية ،
جميلة لطيفة ، مع فتى خارج على القانون ، إلى حياة الأذغال
والجبال ، وتمشى مشية سارق ، في يمينها سهم ، وعلى كتفها كنانة ،
وحياتها كلها خوف ، ورعب . إنه ليؤلمني يا حبيبتى أن أراك في
صحبتى تتألمين . . . فدعيني . . . دعيني وحدى أمضى إلى الغاب
منبوذا شقيا . . .

إنى لأشترى هاتين القصيدتين بسائر الشعر الرمزي الذي
ازدهر في إيقوسيا في القرن الخامس عشر ، مستمداً من آثار
تشوسر أسوأ عناصرها . أما « كتاب الملك » الذي كتبه الملك
جاك الأول الإيقوسى (١٣٩٤ - ١٤٣٦) فليس له من قيمة ؛
وأما المقدمات التي كان يكتبها المطران جاون ، ويصدر بها كل
جزء من أجزاء ترجمته للإنيادة شعرا انجليزيا ، فلعلها . كانت
تسلى أحدا من أهل الجنوب ، لو كان فيها شيء من نظام . وأما
وليم دمبر فإن خلوده راجع إلى شخصيته الطريفة كراهب متمرد
ومغامر بوهيمى أكثر من رجوعه إلى قيمة آثاره ؛ وأشهر
قصيدة له « الشوكة والوردة » التي نظمها احتفالا بزواج انجلترا
(مرجريت يودور) وإيقوسيا (جيمس الرابع) .

وليس النثر في هذا العصر بأحسن حالا من الشعر . ويجب مع ذلك أن نذكر اسم الناشر الانجليزي الأول (كاستون) الذي أذاع صيت تشوسر ، وجوور ، وليدجيت ، ابتداء من عام ١٤٧٤ كما نشر في عام ١٤٨٤ كتاب سير توماس مالورى عن آرثر . وأحسن ما في هذا الكتاب الذي هو منتخبات من كافة الأساطير المتصلة بالملك آرثر هو أسلوبه . ولا يزال إلى الآن يقرأ بشغف في طبعاته الحديثة .

الفصل الثالث

النهضة

١ - تهيؤ النهضة

لقد تأخرت النهضة في إنجلترا عنها في بلاد القارة الأوربية وربما كان من ذلك بعض الخير . فإن النهضة الانجليزية قد استفادت من الإيطالية الجديدة والفرنسية الجديدة ، وقل أن تجد في التاريخ عهدا يضارع في ازدهاره وخصوبته ذلك العهد الذي أخذت فيه إنجلترا ، بعد أن خرجت من الحروب الأهلية المستمرة ، تشعر بقوتها وشخصيتها في عهد إليزابث .

وكان تهيؤ النهضة الانجليزية بطيئا جدا . وكما حصل في القارة الأوربية ، كان الإنسانون والمصلحون الدينيون والسواح ، هم الذين بعثوا تلك الحركة الفكرية الكبرى التي تجلت ، في ميدان الأدب ، آثاراً أصيلة جديدة .

فقد استعادت الدراسات اليونانية - اللاتينية في الجامعات

شأنها واحترامها . وكان لسكتاب روجر آشام (١٥١٥ - ٦٨)

معلم المدرسة ، شأن كبير في تحديد أصول التربية اللاتينية .

كما أن توماس مور المطلع على الثقافة اليونانية والمتحمس لها
وصديق إيراسم ومساعدته ، استطاع بكتابه « المدينة الفاضلة »
(الذى كتب باللاتينية ثم ترجم إلى الإنجليزية عام ١٥٥١) أن
يذيع فى انجلترا أساليب الفكر اليونانى ، واستطاع بهذه
الجزيرة التى تتحقق فيها مثل المدينة الفاضلة ويسود التسامح والنظام
الشيوعى ويكون الإنسان على فطرته الأولى التى لم يفسدها شيء ،
أن يطلع المتأدين على أحلام أفلاطون فى هذا الإطار الذى
هياه له اكتشاف العالم الجديد . وفى الوقت نفسه كانت طوائف
المترجمين تطلع الناس على عيون الآثار القديمة . وأشهر هذه
الترجمات ترجمة پلوتارك التى تولى القيام بها نورث عن نص
أميوت (١٥٧٩) .

كما أن انحلال الأديرة (١٥٣٥ - ١٥٣٩) كان مؤذنا بزوال
روح القرون الوسطى . واستطاع تندال وكو فرديل بترجمتهما
للتوراة (١٥٢٥ - ٣٥) ، وكرامر وتلاميذه بكتابهم « الصلاة
العامة » ، أن يبنوا فى اللغة الدارجة كثيرا مما فى الكتاب المقدس
من بيان ساحر ، وساهمت خطب لايمر فى تنفير الشعب من
الكاثوليكية . وفى الوقت نفسه كان چون نو كس تليد كالقائ
يضمن فى إيقوسيا ظفر البروتستانتية . وبذلك كانت تنمو ، إلى
جانب انجلترا الإنسانية ، انجلترا البروتستانتية .

ثم لقد كان السواح العائدون من فرنسا وإيطاليا يحما الشعر الغنائى . وقد استطاع يات (١٥٠٣ - ٤٢) ، (١٥١٧ - ٤٧) أن يصبأ الشعر الغنائى الانجلىزى فى إيطاليا . وكان پترارك معبودهم ، فنظما ، مثله ، فىما كان من أفراح الحب وآلامه . كما أن سرى لفرط تشبعا اللاتىنى ، ترجم جزءاً من الإنباذة فى شعر انجلىزى بىء مؤلف من عشرة مقاطع موزونة بلا قافية . ولم يكن بخلده أن هذا الوزن سىءى ذىوعا عظىما .

٢ - العظماء الثلاثة

لىلى ، سىءنى ، سىءنسر

إن هؤلاء الثلاثة ، لىلى وسىءنى وسىءنسر ، من فى تاريخ الآءب ما يجعل قراءتهم الیوم واجباً من الوا . وقد لا تخلو هذه القراءة من متعة ولذة .

أما لىلى ، فقد كتب وهو فى الرابعة والعشرىن من (١٥٧٨) ، كتابا أصاب نجاحا عظىما ، بعنوان « أیوفو تشرىء الفكر » ؛ ولا يمكن أن يعد هذا الكتاب رواىة ء

فإنما هو إطار مرن ينطوى على آراء المؤلف في الحب والصدقة
والتربية والدين .

هو قصة طالب ولد في أثينا (والمقصود أكسفورد) وله
ما للطالب الشاب من ثقة بالنفس وإدعاء وغرور . فيرفض أن
يستمع إلى نصيحة عامل عجوز يحذره بما يشيع في نابولي (والمقصود
لندن) التي قصد إليها من مفاصد جهنمية . وسرعان ما يفقد الفتى
فضائله في هذه المدينة الفاسدة ، وتخدعه إحدى النساء . ولكنه
يعود إلى نفسه ، ويرجع بعدئذ إلى أثينا ويعيش حياة
دراسة وتأمل .

ويحتوى هذا المؤلف الصغير على هجاء مقذع للاوساط
المتأنقة ولمفاصد حياة الطلبة ، وقد أثار كثيرا من الغضب والحق ،
فسارع ليلى إلى الاعتراف بغلطته والاعتذار عنها . وبعد مضي
سنتين على ذلك ظهر كتابه « أيوفوز وبلده انجلترا » . وفي هذه
المرّة نرى الأخلاق الصفراوى المزاج يتملق ويدارى ويصانع ،
فيمتدح « سيدات انجلترا » اللواتى يكافتهن على ذلك بأن يضعن
« أيوفوز » فى حجراتهن إلى جانب مؤلفات بوكاشيو وأريوست .
وقد أغنى ليلي اللغة الانجليزية بكلمة الأيوفية أو الطريقة
الأيوفية ، ومعناها التناظر بين أجزاء الجملة مع تشابه فى الأصوات
كما ترى فى الجملة الآتية :

Not the shadow of love, but the substance of lust

وقد استفاد مما كانت تذيبه الأساطير المتصلة بالحيوانات ،
فحدثنا عن الحية التي تنفجر متى مسها نبات الحنشار ، وحدثنا
عن السكركى التي يمسك بمنقاره حصى حتى يمتنع عن النوم أو
حتى لا يحدث صوتا حين يحلق فوق الجبال . إلا أن
الإسراف فى هذا الإغراب يتعب . ثم من الشبع ينشأ
الملال . وليس ليلى فى حياة النثر الانجلىزى بكبير شىء
والحق يقال .

وكذلك سير فيليب سدق (١٥٥٤ - ٨٦) فقد بقى اسمه
حيا فى ذاكرة الانجلىز ، وربما كان ذلك يرجع إلى نبالة
شخصه وحياته أكثر مما يرجع إلى عظمة آثاره . وهو يجمع
فى نفسه بين بايارد وپترارك .

فى الحادية عشرة من عمره كتب إلى أبيه رسائل
بالفرنسية واللاتينية . واضطره وباء خطير إلى مبارحة جامعة
اكسفورد ، والسفر إلى أوربا . وكان فى فرنسا أثناء مذبحه
سان برتلى . فكان ، وهو معتصم بالسفارة الانجلىزية ، يسمع
أصوات التهليل فرحا بتذبيح إخوانه « فى الدين » . وعاد إلى
لندن وهو يكره الكنيسة الرومانية كرها شديداً .

وقد أحب شاعرنا ينلوب ديفرو التي أصبحت بعد ذلك
ليدى رتش . ولم يشعر بحبه الشديد لها إلا حين تزوجت ، وكان
قبل ذلك يشتهيها ويريدها ويطمع في وصلها . وكانت من القوة
والمناعة بحيث ردتة . ولكنها كانت تحبه مع ذلك . إن
أناشيده الرائعة « أستروفل وستلاء ، التي أهداها إلى هذا الحب
العظيم لتستحق مكافأة أرضية ...

ومع ذلك لم يمت عاشقا . فقد خبات له الأقدار أن يموت
بطلا في ساحة القتال . فقد سقط جريحا في معركة زوتفن ،
فوضع على حمل وكان عطشا . . فلما أتوا إليه تقينة ماء ،
رأى أحد الجرحى تجتاحه حمى شديدة وينظر إلى القنينة
نظرة الظامى . الشره ، فأسلم إليه القنينة وهو يقول : « أنت
أحوج إليها منى ، . وقد تعهد الجراحون بعد ذلك فاستطاعوا
أن يمدوا حياته بضعة أسابيع مات بعدها وهو أشد ما يكون
رباطة جأش .

وخلف كتابا كبيرا ضمن له شهرة طويلة بعد وفاته ،
بعنوان « أركاديا ، وهو رواية ريفية على الطريقة الإسبانية ،
أعنى أنها مطبوعة بطابع فروسى ، وتمتاز إلى جانب ذلك
بملاحظات نفسية .

أما موضوع هذه الرواية فلا يمكن أن نعثر عليه وسط هذه الاستطرادات التي لا حصر لها . نرى الملك باسيلوس متربعا على عرش أركاديا . وله ابنتان ، پامبلا وفيلوكيا ، تجهلان الحب كل الجهل . ويأتى أجنبيان ، هما موزيدوروس وپيروكليس . وقد تخفى الأول فى زى فلاح ، وتخفى الثانى فى زى امرأة . . فيقع الملك باسيلوس مغرماً بالأسير پيروكليس وقد ظنه فتاة حقا . وتقع المأساة جينيسيا فى حب پيروكليس وقد أدركت أنه رجل . ثم يظهر شخص اسمه أمباليوس ، هو ابن الساحرة سكروپيا ، يريد ، مدفوعا بإرادة أمه ، أن يتزوج فيلوكيا فيخطفها هى وأختها پامبلا . . وتتعاقب الحوادث . . تترى . . ثم تنتهى بأن تنتصر الفضيلة وينتصر الحب فى زواجين . وقد أضاف سيدنى إلى هذا كله حكاية البداية ، دامتاس وميزو وموپسا ، وحكاية بارتينيا ، وحكاية فيلوكسينوس . . الخ . . كل ذلك فى أسلوب متكلف متطرف قديم ، يضحك ثم يغضب . . ولعلنا كنا نتذوق هذا النثر الشعرى لو أن ساعرنا قد امتلك زمام خياله الطافح الجامح ، ثم لم يزوق عباراته على هذا النحو الممل . .

على أننا نلاحظ إلى جانب هذا الإسراف الذى ينافى

الذوق ، كثيراً من عمق التحليل وتلوين الوصف وإيجاز التعبير ، ومزاوجات جديدة بين الألفاظ تؤذن بشيكسبير . وقد كان تأثير سيدنى تأثيراً عظيماً ومضراً . فقد استولت الأركاديانية (نسبة إلى كتاب أركاديا) على الرواية والشعر خلال قرن كامل ، ولم يتخلص منها إلا في عام ١٧٤٠ حين شوهد هذا الناشر اللندنى صاموئيل ريتشاردستون يهدم القصر الذى بناه سيدنى من ملاط ، ليحل محله بيتاً من نحت ، متيناً مريحاً . وأما إدموند سبنسر (١٥٥٢ — ٩٩) فقد خلف آثاراً أثبت على الزمن . وكان قد قضى القسم الأعظم من حياته يشتغل فى إيرلاندة سكرتيراً للورد جراى . وكانت إيرلاندة تعنى المنفى ، والضجر ، والسامة . . فكان له من وقته ما يتسع كل الاتساع للتعبير عن نظراته الشعرية الكبرى .

وقد شرع ينظم سلسلة اثني عشرية من المدائح أسماها « رزنامة الراعى » (١٥٧٩) . وتشهد له هذه المدائح ، إذا رفع عنها إغرابها ، بروح موسيقية رائعة . وقد كتب سبنسر بعد ذلك طائفة من المؤلفات جعلته أهلاً لأن يلقب « بشاعر الشعراء » ، منها « ميوبوتوس أو حياة وموت الفراشة الشاعرة » ، ومنها « عودة كولان كلوت » ، حيث روى لنا فى صورة رمزية

زيارته للندن عام ١٥٨٩ . ومنها غرامياته التي خاطب بها خطيبته . ومنها خاصة «الزفاف» ، وهو نشيد قوى رائع يتغنى فيه بزواجه .

على أن هذه الآثار كلها ليست إلا مقبّلات في المأدبة التي يدعونا إليها سبنسر . وأخر صحون هذه المأدبة قصيدته : « ملكة الجن » ، وهي قصيدة رمزية كبيرة ، اشتغل في نظمها حوالي ٢٠ سنة ، ولم يستطع أن يتمها : ترسل جلوريانا ، ملكة الجن ، عشرين فارسا من بلاطها يمثل كل منهم فضيلة من الفضائل . وتأمروهم أن يضربوا في الأرض يقوّمون أخطاء الناس ويصلحون من أمرهم . فأما فارس الصليب الأحمر ، بطل العفة والبروتستانتية ، فإنه يتغلب على الخطأ ولكنه يقع أسيرا في يد الكبرياء فينفذه الأمير آرثر (اللطف الإلهي) — وأما سر جوين بطل الاعتدال فإنه يخرب الحدائق السحرية التي تملكها الساحرة أكرازيا (الفجور) — وأما سر كاليديور ، بطل اللطافة ، فإنه يخلص بلاد الجن من البيمة الخوّار (النيمة) . . الخ .

والأمر إلى هنا سهل . ولكن سبنسر يضيف إلى الرمز الأخلاقي رمزا تاريخيا . ثم هو لا يعني كثيرا بمنطق الحوادث

فلجوريانا مثلاً هي الملكة إليزابث . ولكن إليزابث هي كذلك بلفوييه وبريتومارت . وكونت ليسستر ، حامى سينسر وعشيق الملكة هو الأمير آرثر . ولكن آرثر يمثل كذلك سيرفيليب سيدنى ، حين لا يكون سيدنى هو كاليدور . وكلما تقدمت فى القصيدة رأيت الرمز الأساسى يمتحن تحت رموز ثانوية استطرادية متناقضة وينتهى به الأمر أن يزول فلا ترى له من أثر .

على أنه ليس يعيننا كثيراً أن تكون «ملكة الجن» ملحمة رمزية مضطربة . نعم إن من يقرأ هذه الأجزاء الستة التى كتبها سينسر ويحاول أن يفهم مدلولها التاريخى الفلسفى على وجه الدقة ، لا بد فاقد صوابه . ولندع كذلك للأخلاقين مهمة امتداح هذا الأثر الذى يمجّد الفضائل الإنسانية ويبحث عن طريقها الموصل إلى الله ، وحسبنا أن نعلم أن طائفة من قصص الأطفال المتداولة مستخرجة من مؤلفات سينسر ، فعلياً . أن نقرأ مؤلفاته بهذه الروح ، فنسى مثلاً شخصية جلوريانا ، ونذكر منزل الحداد الذى يقضى فيه إسكوما دور ليلة قاسية . . ونذكر نبس الضحك حيث تحاول السابحات المغربيات أن يغوين جويون الفارس العفّ ، الخ .

الفصل الرابع

الادب في الاليزابثي

الشعر والنثر

١ - الشعر

إن أكبر الشعراء بعد سبنسر - إذا فهمنا الكبير بمعنى الإكثار - قد وقفوا كل شعرهم تقريبا على الإيمان الجديد: انجلترا وملكتها.

أما وليم وارنر (١٥٥٨ - ١٦٠٩) فقد نظم قصيدة كبيرة في تاريخ إنجلترا، منذ الطوفان حتى عهد الملكة إليزابث. وكانت قصيدته عبارة عن مجموعة من الأساطير والحكايات، منها الخطير ومنها المرح، ولكنها جميعا رديئة النسلسل، رديئة الحبك والبناء، وقد أصابت مع ذلك نجاحا كبيرا.

وأما صاموئيل دانييل (١٥٦٢ - ١٦١٩) فقد كان أدنى إلى القصد من صاحبه. كان كاتباً مسرحياً ومؤلفاً تعليمياً في آن واحد. وقد كتب ثمانية أناشيد من قصيدة بطولية

كبيرة بعنوان « الحرب الأهلية بني يورك ولا نكاستر » ، وقد أحسن إذ حدّد موضوعه، إلا أنه أساء الاختيار . فإنه رجل وديع رقيق ، والعصر الذي يصفه عصر عنيف وحشى ، وليس يحسن تأريخ هذا العصر إلا بوهيمى أشعث ...

وأما منافسه درايتون (١٥٦٣ - ١٦٣١) فقد كان أقرب إلى روح العصر الإليزابثى ، أى كان أكثر حدة وانطلاقاً . فإنه لم يتوان لحظة واحدة عن إثارة الشعور الوطنى بتغنيه بالماضى المجيد (حرب البارونات ، قصيدة آزنكورت ، القصائد البطولية الانجليزية) . إلا أن فكرته الأساسية لم تكن نظم التاريخ بل نظم الجغرافيا . فأضخم قصيدة من قصائده وهى پولوليون (الجزيرة ذات البركات الكثيرة) تتغنى فى ثلاثين نشيداً بسهولة هذه الجزيرة الشهيرة بريطانيا ، وبجبالها وغاباتها وأنهارها ووديانها وغير ذلك من أماكنها ، مع خليط من أهم تواريخها وآثارها وعجائبها ومتعها ومزاياها . وقد جسد الشاعر هذه الأنهار والجبال والوديان والغابات ، وجعلها تروى الحوادث التى كانت مرتعاً لها . ونحمد الله على أننا نفع من حين إلى حين على وصف جميل ، كوصفه لصيد الأيائل فى غابة أردن .

وبالجملة نقول إن الشعراء الوطنيين هم أولئك الناس الذين

تحييمهم عن بعد، ولسكنك تحاذر الاقتراب منهم خشية التورط معهم في ثمرات لا خلاص لك منها إلا بشق الأنفس. وإنى لأبغض من كل قلبى كل من يستطيع أن يقرأ قصائد وارنر ودانيل ودرايتون دون أن يضيق بها. ولاشك أن من يستطيع ذلك تهون عليه بعدئذ أشق أعمال البحث والدراسة والتنقيب .

ولا كذلك كتب الشعراء الإباحين ، فازلنا نقلها إلى الآن فى شىء من المتعة . فربما كان الحب أخلد على الدهر من البطولة ومن هذا القبيل قصيدة «هيرو ولياندر» للشاعر العظيم مارلو . (وقد كتبها قبل ١٥٩٣) ، وإن كان يفسدها شىء من التصنع والتكلف ، من مثل حديثه عن النحل كيف كان يحسب زهرات وشاح هيروزهرات حقيقة يشم شذاها الذكى ، فى حين أن أنفاس الصبية الجميلة هى التى كانت تنشر عطر أكمطر الزهر ... ثم ما هذه الجرأة فى وصف الحب المحرم اما أشد ما يسرف مارلو فى هذه الجرأة ، حين يحدثنا مثلا عن نيتون ، المولع بجمال الذكر ، وهو يلاحق لياندر تحت الأمواه .

أما قصيدتا شيكسبير القصصيتان ، فان المعجبين بهما والمتحمسين لهما كثر ؛ وعندى أنه لولا أنهما مهورتان بهذا الامضاء الضخم : شيكسبير ، لما نالا كل هذا الإعجاب وكل

هذه الحماسة. أما الأولى « فينوس وأدونيس » (١٥٩٣) فهي
تعالج موضوع الفتى الرياضي (أدونيس) الذي يقضه حب
عاهرة مجرّبة (هي فينوس). وأما الثانية ، « هتك لوكريس ،
(١٥٩٤) فهي تتناول ، خلافاً للأولى ، موضوع الصيدة البريّة
التي يلاحقها فاجر مجنون بالأهبة .

وفي رأي أن ليس في وسع القارئ أن يصبر طويلاً
على قراءة هاتين القصيدتين ، خصوصاً إذا كانتا في مجلد يضم
مسرحيات شيكسبير .

والحق أن الشعر الأليزابثي الوحيد الذي قاوم الزمن هو
الشعر الغنائي ، المجنح ، السريع ، الذي تغنيه في داخلك
أكثر مما تقرؤه بلسانك . إنى لا يبع كل « هير وولياندر ،
بتلك المقطوعة الصغيرة من مقطوعات مارلو » من الراعي إلى
الراعية ، حيث يناشد الراعي حبيبته أن تأتي إليه ، ليعيشا معاً
أياماً كلها حب ، في الوديان المعشوشبة ، وفوق الجبال الشم ،
وبين المراعي والغياض والغابات . أليست أجمل الذكريات التي
تبقى في الذهن من مسرحيات شيكسبير هي قراءة أو سماع تلك
الأناشيد الرائعة التي تقفز كالأمواج ، أو تن كالريح بين الأغصان ،
مثل هدهدة الجنيات (في « حلم ليلة صيف ») وأغانى آريسل

(في « العاصفة ») ، واللحن الذي يؤلفه أوتو ليكوس تغنياً
بحياة التشرد ، (في « حكاية الشتاء ») ، وأغنية الصفصاف
(في « عطيل ») ، وغير ذلك من الأناشيد التي لا يمكن أن
تنساها الذاكرة أبداً ؟ ...

وليست هذه اللآلي منفصلة عن جملة الآثار الدرامية
لذلك العصر ، وقل أن تجدها مستقلة فيما يجمعه الكتب من
متقطعات غنائية . وإلا فهل سمع غير المختصين عن شاعر طيب
موسيقى دراى اسمه توماس شامبيون ؟ ومع ذلك فما أروع
مانظم شامبيون هذا من شعر غنائى ! ما أجمل تلك القصيدة
التي يتحدثنا فيها عن حبيبته ، فيشبه وجهها ببستان ، جمع من
الأزهار أزهاها ، ومن الثمار أشهاها :

ولكن الكرز الذي هناك
لا يمكن أن تمتد إليه يد
فيل أن ينادى هو نفسه :
كرز ناضج

وبعد فإن شمس الشعر الغنائى في عهد إليزابث سرعان
ما شجبت في عهد جاك الأول ؛ فقد كانت البيورينانية ، هذه
السحابة الكبيرة العاصفة ، تحتاج الأفق .

فانرى الآن إلا ويندر (١٥٨٨ — ١٦٦٧) ينظم في

شبابه بضعة أبيات جميلة متغنياً بالطبيعة والحب : (« صيد-
الراعي ») ونرى صديقه وليم براون (١٥٩١-١٦٤٣) يتأثر
« أركاديا ، سيدني ، فينظم قصائد دينية فروسية مخدرة .
ونرى الأخوين فلنشر (فينياس ، ١٥٨٢ - ١٦٥٠ .
وجيلس ١٥٨٨-١٦٢٣) ، وهما قسيسان من قسس الأرياف .
أحدهما يتغنى بأعضاء الجسد الانساني ، والثاني يتغنى بالمسيح ،
ويصف جمال الجنة . ونرى بن جونسون يقلد الأقدمين
تقليداً دقيقاً ، ولا سيما شعراء الأتولوجيا ، ويحاول أن يلقي
على الشعر الغنائى الإلزابثى مسوحاً كلاسيكياً محدثاً . وطبيعي
أن لا يوفق إلى ذلك . فما كان للفراشة أن ترتدى فروة الخلد .
ونرى أخيراً دون (١٥٧٣ - ١٦٣١) عميد سان بول ،
يتصنع التعقيد والشنود إلى أبعد الحدود المضحكة . على
أنه إن كان لا يطاق في مقطوعاته المتكلفة ، فإن في قصائده
التي تسيطر عليها فكرة الموت ، نغمات مؤثرة في بعض
الأحيان .

٢ - النثر الاليزاباثى

تكثر فى العصر الاليزاباثى الروايات القصيرة على غرار ليلى وسيدنى والإيطاليين. ولعل أقلها إملالا رواية «باندوستو» لجرين (١٥٦٠ - ٩٢)، ومنها استمد شكسبير موضوع «حكاية الشتاء»، وكذلك «مينافون» لجرين أيضا، و«روز النداء» للودج (١٥٥٨ - ١٦٢٥)، وهى التى استمد منها شكسبير موضوع مسرحية «كما يعجبك».

على أتى أرى أن تلك الكتب التى تكشف لنا عن حياة الطبقات الدنيا أحفل بالصور وأغنى بالألوان. فعندى أن كل ما ألف جرین من روايات يخفى أمام قصص «صيد الأرائب»، التى تصف حيل اللصوص فى اقتناص أرنب أو سرقة حمامة. وكذلك فإن اسم ناش (١٥٦٧ - ١٦٠١) سيظل حيا، بفضل كتابه «حياة جاك ولتون»، حيث يتحدثنا عن مغامر يساهم فى حركات الإصلاح بفلاندر والمانيا، وينخرط بإيطاليا فى عالم الجواسيس والشرطة ونساء السوء. وهناك أخيراً ديكرد الذى سنجد به بعد قليل مؤلفا دراميا، وقد ضمن لنفسه الخلود بكتابه «قرن المخدوع»، حيث يتحدثنا

عن حياة شاب يجب أن يبدو «ظريفا» فيصايق بتظرفه الناس في المسرح والحانة والشارع ، ويحسب انه يتخدع غيره ، في حين أن غيره يزدرية ويهزأ به ويسخر منه .

أما توماس دلونى (١٥٤٣ - ١٦٠٠) فيستحق أن نفرده له مكانة خاصة . لقد جمع هذا الحائك الفالونى من معاشرته للعمال وصغار الناس والخدمات الثرائيات ثروة ضخمة من التجارب الشعبية ، فألف في سنى المجاعة قصائد قوية تصف بؤس الشعب ، وكان يمضى ينشدها من ورشة إلى ورشة ومن حانة إلى حانة بل من مدينه إلى مدينة ، حتى أهاج بذلك السلطات فأمرت بالبحث عن « شخص حقير يدعو دلونى » . واعتدل بعد ذلك ، ورأى أنه إذا صهر ماسمنه أنشاء تشرده من حكايات فقد يكتب آثارا تحظى باستحسان كثير من القراء .

وليست رواياته الثلاث إذن («جاك نيوبرى ، و«توماس ريدنج ، و« المهنة الشريفة ») إلا مجموعات من الاستطرادات المنسلية . وأبرز هذه الروايات هى أولها ، وهى تروى لنا قصة جاك ، أجير الحائك المخلص ، كيف تزوج أرملته معلمه ، ثم قرمل ، فتزوج ثانية من إحدى خادماته ، ثم اشتهر بأنه خير صواف فى بركشير ، وكيف أصبح الناطق بلسان أهل

مهنته حين أتى هنرى الثامن إلى نيوبرى ، وكيف كانت الغازلات
اللواتى يرهقن بالعمل يرشقن يعر الكلاب . . .
إن دلونى قريب إلى النفس ، وقد كتب ، بدون أن يشعر ،
ملحمة خالدة ، ملحمة العمل المهن فى القرن السادس عشر .
وكان النثر الفلسفى التاريخى فى هذا العصر لا يقل غنى عن
النثر الروائى ، فإلى هذا العصر ينتسب فرنسيس بيكون
(١٥٦١ — ١٦٢٦) . وهو من أكبر العبقريات التى عرفتها
الإنسانية . وهو مؤسس الفلسفة العلمية الحديثة . كان عالما وفيلسوبا
لكنه كان دنى الخلق . حتى لقد قام بحملة قوية على صديقه
الحكيم كونت دسكس إرضاء لضغائن غرامية فى قلب الملكة .
وعين على أثر ذلك كبيرا للأمناء . وقد كتب مؤلفاته الرئيسية
باللغة اللاتينية ، لأنه كان يعد الانجليزية لغة عامية مصيرها إلى
الفناء . ولم يكتب بالانجليزية إلا مقالات أخلاقية قصيرة ، كتبها
ليتسلى بها رجال البلاط ، وسماها « مقالات » ، كما فعل مونتيني ،
ولكن شتان بين هذه الأخلاق وبين تلك الأخلاق الجميلة
التي تخرج من « مقالات » مونتيني . وهو سواء أتحدث عن الحقيقة
أم الموت ، أم الحب ، أم الثروة ، أم الدراسة ، فإنه يسفر
عن حكمة نفعية عملية واحدة ، ولكنه يبلغ من قوة التعبير ما يجعل

كل عبارة من عباراته المركزة مثلاً قائماً بذاته . هذا إلى لغة غنية ، وأسلوب مصقول ، وتركيب قوى .

وهناك ناثر فلسفي آخر في هذا العصر هو روبرت برتون (١٥٧٧ — ١٦٤٠) . وهو كاتب غريب معقد . كان قسيساً في قرية ، وكان فأر مكاتب كما يقولون ، وكان يعرف كيف يسخر من نفسه ومن الآخرين عند الاقتضاء . وقد انتحل لنفسه اسم ديموقريطس الصغير ، فكتب كتاباً ضخماً بعنوان «تشریح السكابة» ، هو عبارة عن خليط عجيب من الفلسفة والطب والعبث والسخرية والتلاعب . وهو يذهب في هذا الكتاب إلى أن السكابة (أو المزاج الأسود) هي علة الحرب ، والبيوريتانية ، والكسل ، وصداع الرأس ، والفسق ، وغير ذلك . ويستعرض برتون في هذا الكتاب معظم الاعوجاجات البشرية ، وترى ذلك كله محشواً باستطرادات وملح واستشهادات ، بأسلوب مطنّب تارة ، موجز أخرى . . مع العناية بتجميع الكلمات على نحو غريب على غرار ما كان يفعل رابليه . ومن الصعب ترجمة نصوصه لهذا السبب .

وقد لا يكون عند برتون ما يشوق القارئ العادي . ولكن هواة الأشياء الغريبة واجدون لا شك في كتابه معنا

لا ينضب من هذه الأشياء الغريبة .

ولن يكمل عرضنا هذا للنثر الاليزاباثى مالم نذكر اسم هوكر (١٥٥٤ — ١٦٠٠) . كان هوكر هذا رجلا من رجال الدين ، وبطلا من أبطال الانجليكانية ضد أصحاب البيوريتانية . وقد كتب ثمانية كتب بعنوان « قوانين السياسة الاكليريكية » ، بلغة انجليزية جميلة ، فيها كثير من الشعر ، وإن جنحت إلى الإغراب في بعض الأحيان .

على أن أثر هذا الكاتب لا يعد شيئا إذا قيس بما قامت به جماعة من العلماء من « ترجمة التوراة » عام ١٦١١ . كانوا سبعة واربعين عالما ، استفادوا من الترجمات السابقة ، وأعادوا الفقرات التي أسقطها سابقوهم ، ووصلوا إلى كمال التعبير في دقة المعنى ، وجمال الموسيقى . ولن تجد بين ترجمات التوراة في لغات العالم ترجمة تضارع الترجمة الانجليزية إشرافا وجمالا . فكل عبارة من عباراتها صيغة سحرية تفتن النفس وتأسرها . ولو أبدلت كلمة بكلمة أو غيرت موضع الكلمة ، لتبدد هذا السحر ، وزالت القوة المستسرة التي تأسر نفسك وتسمو بها . ومن التوراة إنما تعلم كبار الكتاب الانجليز كيف يحسون الجمال .

الفصل الخامس

الدرامة الاليزابثية

١ - التفتح

تطور المسرح الانجليزي في القرون الوسطى كتطوره في القارة على وجه التقريب ، فانتقل من داخل الكنيسة إلى فناء أمامها ، ثم انتقل من الفناء إلى الساعات العامة. واشتملت « الأسرار » و « المعجزات » الانجليزية على التاريخ المقدس كله ، ومثلت أمام جماهير غفيرة من الناس . وأدى هذا النجاح نفسه إلى ظهور المسرحيات الهزلية .

وفي منتصف القرن الرابع عشر ظهر الاتجاه الخلقى أكثر تجرداً ولطافة ، فكان يقتضى جمهوراً من المستمعين أكثر ثقافة . ولكنه سرعان ما اجتاحت مع ذلك جمهرة الناس . ثم انفصلت المحاورات الهزلية المبثوثة في « الأسرار » و « الأخلاقيات » عن هذه « الأسرار » وهذه « الأخلاقيات » ، وأصبحنا بصدد شكل درامى جديد ، هو المحادثة الهزلية ، وهي مسخرة قصيرة مؤلفة من سؤال وجواب وأخذ ورد ، وقد جلى فيها چون هاوود بوجه خاص .

ثم انبثقت النهضة حاملة تراث القديم والحديث . ورأينا نيكولا س يودول ، رئيس مدرسة ايتون ، يؤلف مسرحية بعنوان « رالف رويستر دويستر » ، ورأينا تلاميذ المدرسة يمثلونها ، ورأينا المسرحية تضم عدا شخصيات خادمت انجليزيات أحسن تصويرهن ، شخوصا كلاسيكية صرفة (كالطفيلي ، ومادح نفسه وغيرهما) وتضم على كل حال مشاهد لا يملك المرء إزاءها أن يمنع نفسه من الضحك ، كما لمشهد الذي يصور أحد شخوص الدواية وهو يقلب معنى العبارة رأسا على عقب بمجرد تغيير بسيط في النقط فإذا بها رسالة تحقير بعد أن كانت بطاقة تودد ، وفي هذه الفترة نفسها مثلت في كامبردج مسخرة جميلة بعنوان « إبرة الأمل جور تون » ، حبكتها كلاسيكية وشخوصا انجليزية صرفة .

وكما قلدوا پلوتوس في الملهاة ، فقد قلدوا سينيك في المأساة . وأول مأساة انجليزية جديدة بهذا الاسم هي المأساة التي ألفها الشاعران ساكفيل ونورتون بعنوان « جور بودك » (١٥٦١) ، وهي سلسلة من الجرائم قصد منها إلبى بيان ضرورة تحديد نظام التعاقب على العرش . وكان الجمهور الانجليزي قد أصبح يشعر بالحاجة إلى الانفعالات القوية .

ومضت عشرون سنة في تلس ومحاولة . وكان لا بد من

إرضاء كل أنواع الناس الذين تضمهم قاعة المسرح الواحدة. كان هناك الشعب التتن الذي يأكل لحم الخنزير ويشرب البيرة الثقيلة فكان لابد أن تتوفر في المسرحية جرائم عديدة ونكات كثيرة، وكان هناك أفراد الطبقات العليا من أكلة الطيور النادرة وشاربي الخمر المعتقة وقد تضمخوا بأطيب العطور، فكان لابد من لغة متعاطمة وعواطف نبيلة. هذه مسرحية « قميز، (١٥٦٩) : يريد الملك أن يبرهن على أنه ليس بسكران. فيتناول قوسه، ويقتل طفلا، ثم يشرح جثة الطفل لـ ليبرهن على أن سهمه قد نفذ إلى صميم القلب. كل ذلك في أسلوب بلع من التنفخ، والتعاطف، أن اتقده بعد ذلك شكسبير. وسرعان ما أصبح المسرح مؤسسة قومية أو قل عمالما ليا فصار الناس يقذفون إلى السوق بالمسرح كما يؤسسون اليوم البنوك. أما كيف يجب أن تتصور المسرح اللندني في عصر اليزابث فأليك الوصف :

كان المسرح يقوم في جنوب التامز، خارج ولاية لورد مير، فإذا اقترب أو ان التمثيل، ارتفعت فوق سطح البيت راية كبيرة، يراها الناس من لندن، فيستقلون القوارب ويعبرون النهر. فإذا وصلوا تكوموا في الساحة الواسعة،

حيث يباع لهم التفاح والجمعة والجوز ، فيأخذون يشربون
ويأكلون ويغازلون بنات الهوى اللواتي آتين لالتقاط
الزبائن . وعلى منصات ذوات قوائم ثلاث أو على حانات
المسرح يقعد المشرفون على الحفلة وبأيديهم عصي يضربون
بها الممثلين إذا اخطأوا ، ويدخون التبغ بغير انقطاع .

ويقوم المسرح عالي الساحة، ويتألف من ثلاثة أقسام:
المسرح الأمامي، ومنه يخرج الممثلون إلى الكواليس من باين
جانبيين، والمسرح الخلفي، ويفصله عن الأمامي ستار يزاح أثناء
التمثيل ألف مرة ومرة ، ثم البلسكون وهو يستعمل نادرا .
وهكذا يمكن أن يجرى التمثيل في مواضع ثلاثة ، بدون أن يكون
ثمت فترات تفصل مشهدا عن مشهد ، فما ينتهي الممثلون من
محاورتهم فوق المسرح الأمامي ويخرجوا من الجانبين حتى يزاح
الستار الخلفي ، ويدخل الممثلون الآخرون من باب في آخر
المسرح ويقولون ما يريدون قوله ، ثم يسدل الستار وينتقل إلى
المسرح الأمامي (أو يصعد إلى البلسكون) وهكذا دواليك .
وبذلك لا يكون للجمهور متسع من الوقت للتصفير .

ويكون الإيدان بالابتداء نفخاً في بوق ضخمة . ويبدأ
التمثيل : محاورات ورقص وغناء وموسيقى . تتعاقب بغير

انقطاع . . . أما الملابس فرائعة : سراويل مذهبة ، وثياب مطرزة بالذهب والفضة ، تمثل ثياب البلاط ويلبسها الممثلون على غير تمييز ، سواء أكانوا من الانجليز أم من الرومانيين أم من غير هؤلاء وأولئك . وأما التزيينات فأليك كلام قيل في مدحها : « صخور ، وسرير ، وعرش ، وأثاث كثير وابواب مدن ، وبيوت ، وأبراج ، وتابوت ، ومنبر ، وأشجار (منها أشجار تفاح من ذهب) ، وجرسان ، وأسود ، وقوس قزح . »

وأما الجمهور فهو يطرب ويهتز ويتحمس ويصخب ويصفق ويشرب ويأكل ويقيء ويتحرك ويعمل أشياء أخرى أيضا ويشعر الممثلون أنهم « ناجحون » فيتحمسون ، فيخرجون عن دورهم المكتوب ، يأخذون يتحاورون فيما بينهم وبين بعض ، أو فيما بينهم وبين الفكهين من النظارة .

وينتهى التمثيل بين الصراخ والصخب ، وما يأتى الممثلون على النهاية حتى يكون الاعياء قد أخذ منهم مأخذا كبيرا ، فإن معظمهم قد مثل أكثر من شخصية واحدة ، لقلة عدد الممثلين ؛ ومنهم من يمثلون دور النساء ، فلم يكن فى ذلك العهد ممثلات ، وكانوا يختارون لتمثيل أدوار الملكات والحرائر شبانا مردا .

هذا ما يتعلق بالممثلين ، أما المؤلفون فهم أَدعى إلى الرثاء أيضاً . لقد كان عليهم أن يعملوا بسرعة متعاونين . . وكثيراً ما كانوا يعمدون إلى القديم ينهونه ، أو إلى مسرحيات الجار ينتحلونها بعد تغيير في العنوان .

وأشهر المؤلفين يومئذ هو جون ليلي ، مؤلف «ابو فوس» ، وكان يستمد موضوعاته من التاريخ القديم تارة ، (ففي مسرحية كامباسب أخرج الاسكندر وأبليس) ومن الأساطير تارة أخرى (آنديميون) . وكانت مسرحياته خفيفة الظل جميلة . وهناك الشاعر جورج پيل (١٥٥٨ - ١٥٩٨) ، وقد نافس ليلي بعض الوقت ، لكن ليل غلبه فانصرف إليه الشعب وقد أخرج التوراة على المسرح (حب داود وبتاسيه الجميلة) . وهناك الهجاء ناش ، والشاعر لودج ، والروائي جرین ، وقد ألفوا كذلك مسرحيات كثيرة إلا أنها لم تلبث أن هوت إلى عالم النسيان ، ولم تعد أصواتهم الخافتة تسمع بين زئير كيد ومارلو ، هاتين العبقريتين الوحشيتين .

أما توماس كيد (١٥٥٨ - ٩٤) فهو مؤلف أول ميلو درامة كبيرة في عهد اليزابث ، هي «المأساة الاسبانية» ، قد وصف فيها المؤلف عدداً من حوادث التناز الفظيعة : يقتل هوراسيو

الجميل ذات ليلة بينما يكون مع حبيبته اميريا يبادلها وعود
الحب . فيقسم أبوه العجوز المارشال هيرونيمو لبيدين الجناة
عن بكرة أبيهم . ويتظاهر بالجنون تمويهاً على أعدائه حتى
يهملوا الاحتراس منه والحيطه له . ولكن سرعان ما يتخطط
عليه الأمر ، وينقلب الهزل جداً ، فايفرق بين العقل والجنون .
إلا أن الفكرة الثابتة تظل مع ذلك قائمة في ذهنه تغذيها
الاشباح وتقويها رؤى الليل . ويستطيع هيرونيمو أخيراً
أن يقتل جانين رئيسيين من أعدائه ، ثم يستخرج جثمان ابنه
الغالي هو راسيو من التراب . ثم يعض على لسانه فيقطعه
بأسنانه . ثم يختم هذه السلسلة الدامية من الحوادث بأن يغمد
خنجره في صدر دون كاستيل ثم يغمده في صدر نفسه .

وقد ظلت هذه المسرحية رائجة خلال خمسة عشر عاماً ،
ولم تستطع السخریات يومئذ أن تقتلها ، أو أن تحدمن رواجها .
ولو شهدناها الآن لكانت أدعى إلى الضحك منها إلى البكاء ،
ومع ذلك ففيها صرخات وحشية لانملك إزاءها إلا أن تتأثر .
أما كريستوفر مارلو فهو أدنى إلى الاعتدال وأرفع في سلم
العبقرية ، ولو لآ أنه مات شابا لكان منافسا لشكسبير : وهو ابن
حذاء في كتربري ، وقد عاش في طفولته حياة مشرودة ، ثم تلقى علومه

في جامعة كامبردج . ويدل اختفاؤه من حين إلى حين وحماية
القنصل الخاص له على أنه دخل مبكرا في سلك الجاسوسية
التي تدر من الربح أكثر مما يدر تأليف الدرامات . وبين عامي
١٥٨٧ - ١٥٨٨ مثلت مسرحيته « تاملان » ، فما كان أجمله
من موضوع هذا المذبذب الذي يمجّد ، في عبارات نارية ،
الارادة الوحشية ، والقوة الرجولية ، والسعى الهائب العنيف
إلى المستحيل . حقا إن مسرحية « تاملان » مسرحية مضطربة
مبهرجة ، متعاطمة ، ولكتنا نجد فيها من قوة الانفعال وعنف
الهيجان ما يجعلنا ننساق معها كأنسياقنا مع سيل جارف عرم .
وقد اعتدل مارلو قليلا في مسرحية « تاريخ الدكتور فاوست
المفجع » (١٥٨٨) . ولكن هذه المسرحية ليست للأسف
إلا مخططا أو مشروعا ، أو هكذا وصلتنا على الأقل . وإنك
لتحس في المشهد الأخير ، حين يكون فاوست ، يرتعد رعبا
في انتظار الساعة المقدرّة في منتصف الليل ، أقول إنك لتحس
في هذا المشهد الأخير عظمة شكسبيرية رائعة . غير أن مجموع
المسرحية ضعيف بوجه العموم . وأوضح ما يظهر هذا الضعف
في شخصية مفيستوفيلس . وفي المسرحية استعراض للخطايا
الرئيسية السبع ، ومحاورات بين ملاك الخير وملاك الشر ، مما

يدل على أن مارلو قد حاول أن يحدد « الأخلاقيات » التي كانت لاتزال رائجة إلى ذلك الحين .

وقد كتب مارلو مسرحية « يهودى مالطة » معارضة « للأساسة الاسبانية » ، فهي تقوم إذن على فكرة الثأر . ولكن باراباس بطل مارلو بلغ من الشذوذ أنه يوقظ في نفس مارلو شيئا من العطف الغريب .

ثم ازداد مارلو اعتدالا وتعقلا ، وازداد تمسكنا من أداته ، وصقلا لكتابته ، وترويا في عمله ، وتعد مسرحية « ادوارد الثاني » أول مأساة جميلة من التاريخ القومى فيما قبل شيكسبير . ومع ذلك فإنك تقع هنا وهناك على تطرفات شتى تدل على أن مارلو القى لم يمت من نفسه . ولسكن قوة البناء ، وعمق التحليل ، وجدة الأسلوب ، كل ذلك يدل على أن مؤلفا جديدا عظيما جدا قد ولد . . . وأنه لن يلبث أن . . .

ولسكن في مايو من عام ١٥٩٣ وجدت عند كيد أوراق فيها هجوم على الدين ، فقبض على كيد ، واستجوب في الأمر ، فاعترف أن الأوراق لمارلو . وأكد الشاهدون أن مارلو يدعو إلى الإلحاد أينما ذهب ، ويقرر أن « من لا يحبون التبغ والغلمان أغبياء مغفلون » . عندئذ أصدر القنصل الخاص أمره

إلى مارلو أن يحضر كل يوم ، وقرر أن هذا الجاسوس أصبح
خطرا . وفي اليوم الأول من يونيه ، في أثناء شجار وقع لمارلو
في فندق في ديتفورد وحضره بعض مخبرى البوليس ، طعن
مارلو بمخجر في صدره ، فوقع على الأرض وهو يسب الدين ،
ومازال يجدف حتى لفظ آخر أنفاسه ، وأبى مارلو إلا أن
يطلق مع آخر نفس شتيمة أخرى . . .

كذلك مات هذا الرومانطيق الساطع المتهب في الساعة
التي أخذ فيها يتسلق الذرى . ولولا أن انبثق شكسبير في هذه
اللحظة نفسها ، لكانت الخسارة فيه لاتعوض .

٢ — الازدهار

ينبغى أن لا يبهنا نور شكبير فنعشى عن رؤية بعض
الكواكب المتألقة .

ومن هؤلاء طائفة الانسانيين ، وبينهم شاپمان ، وبن
جونسون ، الأول عادى والثانى عبقرى خالد .

فقد أفاد شاپمان الأدب بترجمة لهوميروس أكثر مما
أفاده في مسرحياته الصاخبة المزججة . وليس لمسرحية « بسى .
الامبوازى ، من قيمة إلا في عمق تحليله لشخصية تاميرا'
(سيدة مونتسورو)

ولا كذلك بن جونسون (١٥٧٣ - ١٦٣٧) ، فهو شاعر غنائى من الطراز الأول ، فضلا عن سعة اطلاعه وقوة شخصيته ، ويدين بخلوده إلى ملامه . وقد ألف خمس عشرة مسرحية . على أن المسرحيات التي كتبها في سن النضج هي التي ينبغي أن تعد من عيون الآثار الأدبية ، أما الأولى فلا تبلغ هذا المبلغ من القوة .

في مسرحية فولبوني يحددنا بن جونسون عن شيخ عجوز اسمه فولبوني تحيط به طائفة من الناس تحاول أن ترث ثروته ، فيظاھر بأنه مشرف على الموت ، فيجن جنون هؤلاء الناس ، ويتسابقون في إكرام العجوز في شبه مزايده محبومة ، ويضحون من أجله بالشرف والثروة ، بل إن أحدهم يقدم إليه امرأته . ثم ينكشف لهم أمره ، فيهرعون إلى العدالة يشكونه . ولكن العدالة تبرئه . . إن سراب الذهب ليسوغ أحقر الحفارات . إلا أن هذه المسرحية تؤلم أكثر مما تضحك . ولا كذلك مسرحية إيبسين (١٦٠٩) فهي تضحك فحسب . هي قصة عازب مستوحش ، مصاب بالنورستانيا ، يخشى الضوضاء خشية مرضية ، فيلف أذنيه بعصابة كثيفة تمنع عنهما وصول الضجة ، ويسكن في شارع ضيق لا سبيل إلى مرور العربات .

فيه ، ويفرش السلام حتى لا يكون لوقع الأقدام صوت . ولكي يحرم ابن أخيه من ثروته ، يتزوج من فتاة صغيرة قالوا له في وصفها : إنها صموت إلى درجة الخرس . وكان ابن الأخ في الواقع هو الذي دبر المزامرة . وفي وسعك إذن أن تحزر باقي القصة : ففي ليلة الزواج أخذت العروس الصموت تنبح وتعوى وتصدر أصواتا كأصوات الرعد ، ثم هي تدعو فرقة موسيقية لإحياء حفلة العرس . فيقرر موروز المسكين أن يطلقها على الفور . ولكن ما العمل ؟ وما هو السبب الذي يجب أن يحتاج به لتسويغ الطلاق ؟ هنا يظهر دور ابن الأخ . فيعرض على عمه أن يحل له الأمر مقابل خمسمائة جنيا يدفعها له في كل عام . ويقبل موروز . وهنا يتكشف أمر العروس : لقد كانت شابا ، فكان الزواج لاغيا إذن بطبيعة الحال . . .

وقد كتب بن جونسون كذلك مسرحيتين رومانيتين هما « سيجان » و « كاتيلينا » ، وملهاتين هجائيتين هما « الكيميائي » و « سوق سانت بارتلي » ، وفيهما يهاجم البيوريتانية . ولوجردتا من بعض أفعالها لكاتنا أشبه بما يروج الآن من مسرحيات في المدن الصغرى بأمریکا .

وأخيرا فقد برز جونسون في كتابة ما يسمى « Masques » وهو عبارة عن رقص نغم مصحوب بموسيقى وكلام .

وقد أصبح للكلام بفضل جونسون شأن كبير في هذا النوع من التمثيل ، ولكن برغم جهوده أصبحت الشخصيات الفظة أو الشريرة تسود شيئا بعد شيء ، وحل محل هذا النوع نوع آخر سمي Antimasque ، كما ان الآلية والحركات ازدادت على حساب المحاورات والناشيد الغنائية .

ونقول بوجه العموم إن العيب الرئيسى الذى يؤخذ على جونسون هو الثقل . وهو عيب شامان كذلك . وقد تعاون هذان المؤلفان مع مؤلف درامى ثالث من كتاب الطبقة الثانية اسمه مارستون (١٥٧٥ - ١٦٣٤) فألفوا معا ملهاة بورجوازية رائعة ، بعنوان « هيا إلى الشرق » ، وهى تمثل صناعا فى لندن عنده أجيران أحدهما فقى نشيط والثانى شاب متهتك ، وعنده كذلك فتاتان إحداهما عذراء عاقلة والثانية سيئة مغرورة . يتزوج الأولان ، وينعمان بالسعادة ، ويشقى الآخران ثم لا ينجيهما من الفضيحة إلا تدخل الأولين . حقا إن الموضوع لقيمة له ولكنك تنسى الموضوع لجمال الوصف وتدقق الحيوية .

وقد شهدنا فى هذا العصر نفسه حالات كثيرة من هذا التعاون الخصب ، ولكنه لم يوفق مرة كما وفق فى مسرحية

« The Changeling » . لقد كتب مؤلفاها ، مدلتون (١٥٧٠ — ١٦٢٧) ورولى (١٥٨٥ — ١٦٤٢) ، آثارا طيبة منفردين ، ولكنهما لم يبلغا من كمال الروعة في تأليف المأساة ما وصلنا إليه في هذه المسرحية . لقد خلقا شخصية شيطانية من الطراز الأول ، هي شخصية المغامر فلورز : علجوم قدر مرعب ، يرتكب جريمة قتل بأمر. بياتريس الجميلة ، ويطلب إليها أن تستلم له ، منشبا فيها أظفاره . والفتاة تحبه في سرها حبا ينقلب إلى كره .

نصل الآن إلى ديكر (١٥٧٠ — ١٦٤١) . وبوصولنا إليه نعود إلى التفاؤل المرح . ومن مسرحياته مسرحية « عيد الحذاء » ، وهي تصور رجلا صبورا لا يخرج عن أناته شيء ، لا أمراته الشرسة ولا أجراءه الشكسون ، ثم « كوتتا » شابا يشتغل أجير حذاء رغبة في التقرب من خطيبته . كل ذلك في جو متفائل مرح .

والمسرحية الثانية العظيمة من مسرحيات ديكر هي « البغي الشريفة » : وهي تصور بغيا تدعى بلافرنت ، تزد إلى الفضيلة بعد نصح طويل يسديه إليها رجل صموت ، فترغم الرجل الذي أغراها لأول مرة على الزواج منها ، فإذا بالرجل الصموت

يغدو لعباً يحاول إغراءها ، فتأبى ، وترده عن نفسها .
ويكون خادمها هو أبوها على غير علم منها ، ويحاول إغراءها
كذلك ! ما أمتعته من منظرٍ منظرٍ هذا العجوز المتيم
يلتهب شوقاً . . . أما المشاهد الأخرى التي يعرضها لنا ديكر
في « مستشفى المجاذيب » ، أو « سجن النساء » ، فقد بلغت غاية
ما يمكن أن يتمناه هواة الواقعية الفظة .. إن العاطفة والأخلاق
ليست من شأن هؤلاء المؤلفين الذين كتبوا في عهد اليزابث .
إلا أن علينا مع ذلك أن نستثنى مسرحية « المرأة التي قتلها
العضو » ، وهي خير آثار المسرحى المكثار توماس هيوود
(١٥٧٥ - ١٦٥٠) . موضوع المسرحية موضوع مبذول :
زوجة فاضلة تعنو يوماً لإغراء صديق حميم لزوجها فتزل بها
القدم . ويتفق أن يفاجئها الزوج .. فبدلاً من أن يقتل
زوجته . يقضى عليها أن تعيش وحيدة ، بعيدة عن أقاربها ،
في بيت مستقل : فيكون عفو الزوج عن زوجته على هذا النحو
أبلغ تأثيراً في نفسها من الانتقام ، فما يسعها إلا أن تنتحر . . .
لعلك تسخر من الموضوع وتزمية بأنه غير واقعي . فما
هذه البطيئة الغريبة من جانب الزوج ! وما هذه الفضيلة العجيبة
من جانب الزوجة ! نعم ، واسكنك لا تفكر في هذا كله إلا

بعد الفراغ من رؤية المسرحية . إن في مشاهدتها لمواقف نفسية قوية ، تصور النفس الإنسانية أصدق تصوير ، فاستطيع أن تضحك مهما بلغت من قسوة السخر .

ومهما يكن من أمر فقد بدأ الجمهور الاليزابثي بعد عام ١٦٠٣ يميل إلى النوع الباكي . لقد كان قبل ذلك يتطلب مشروبات قوية ليعول ، وأصبح الآن يتطلب مشروبات ناعمة ليحاول أن يدمع . إن ظهور هذه العاطفية مؤذن بالانحطاط .

٣ - الذبول

طائفتان من مؤلفي الدرامات حاولتا أن تمهدا الطريق للانحطاط : الأولى بتقوية العنصر المأتمى في المسرح الإليزابيثي والثانية بإدخال التقليد الساخر والملمهة الخفيفة . في الإنتاج الدرامى .

أما الطائفة الأولى فأبرز رجالها اثنان هما تورنر (١٥٧٥ - ١٦٢٦) ووبستر . ويتمتع هذان المؤلفان بمواهب قوية ، ولسنا نعرف شيئاً عن حياتهما ، وقد اختصا فيما يسمى « بالدرامة السوداء » . فلست ترى بين المأسى مأساة جمعت من المشاهد الفظيعة ما جمعت « مأساة الإتيقار » لتورنر ، وإليك بعض مشاهدنا فأحكم عليها بنفسك :

يكن فاندیس (وهو المنتقم) في طريق موكب الدوق ،
وييده جمجمة عشيقته الذي سممها الدوق . حتى إذا مر الموكب
شد الدوق إلى مكته واضطره أن يقبل شفقي الرأس الميت
وقد طلاه بالسّم : وفيما يكون الدوق في دور الإحتضار ،
يريه الدوقة بين ذراعى سپوريو ، ابنه غير الشرعى . ومشهد
آخر : مشهد أنطونيو الذى هتك ابن الدوقة عرض عروسه ،
يكشف عن جثمان امرأته . ثم مشهد جراسيا ، أم فاندیس ،
تدفع ابنتها في حماة الدعارة للحصول على المال ، وتقوم عند
ابنها بدور القوادة . ثم ختام الدرامة : مذبحة عامة .
ونلاحظ هذا التطرف في « مأساة الملحدة » ، المسرحية
الثانية لتورنر : امرأة تتقدم إلى كل رجل قوى ، وتلقى
الجواب على ذلك ملاطفات من هذا النوع : « إن حب
المرأة أشبه بفطر من الفطور ، ينبت في ليلة ، ويقدم لذة
في الغد على المائدة ، ولكنه سرعان ما ينشر رائحته الكريهة
ويسم ، ويجرى أكبر مشهد من الدرامة في المقبرة ، حيث
ترقد شخصيات هذه المسرحية . قال مارسيل شوب
متحمساً « لقد ولد تورنر من زواج إله مجهول بأمة عاهرة »
وأقول أنا بدون أن أذهب هذا المذهب ، إننا لا نستطيع إلا

أن ندهش هذه الروح الفاجرة عند تورنر ، وهذه النفة
الفضيحة إلى الحياة ، ولهذا الإشمئزاز من الإنسانية .

أما وبستر (١٥٧٥ - ١٦٢٤) الذي أعقبه مباشرة ،
أسمى موهبة من ناحية البناء والشعر . وقد استمد موضوعه
من تواريخ إيطاليا في عصر النهضة ، وهي تفيض بأخ
الجرائم . في مسرحيته « الشيطان الأبيض » ، يصور
فضائح بغى اسمها فيتوريا تدفع بعشاقها وخالانها إلى ارتكاب
جرائم القتل ، ثم يرفع أمرها إلى القضاء لتحاكم على
الجرائم التي حضت على وقوعها ، فتقف تدافع عن نفع
أمام القضاة ، فإذا بها تبلغ في دفاعها من قوة البلاغة وذ
التأثير ما يذهل القضاة فأيجروون أن يحكموا عليها بالاعد
وفي مسرحيته « دوقة أمالني » ، يصور لنا امرأة مسكينة يذ
إخوتها إلى الجنون والموت : في وسط الظلام يمدون إ
يد رجل ميت زاعمين أنها يد زوجها أنطونيو ، ثم يضيئه
النور فتري وراء حجاب شفاف وجوه أنطونيو وأبنائها في و
الموت (وقد صنعت الوجوه من الشمع) . ثم تحاط المسك
بعدد من المجانين ما تلبث أحاديثهم الجنونية أن تفسد
عواهبها ، قبل أن يبطش بها السيف . ولكن كفى .. كفى

ولنعد إلى الاعتدال بحديثنا عن جون فلتشر (١٥٧٩ -
١٦٢٥) : هو ابن أسقف لندن ، أديب مرهف الحس دقيق
الذوق ، صاحب مسرحية ريفية جميلة بعنوان : « الراعية
الأمينة » . وقد كتب بالاشتراك مع بومونت (١٥٨٤ -
١٦١٦) معارضة هزلية رائعة للدرامة البطولية « فارس
السيف القاطع » . يذهب أحد البقالين مع امرأته إلى المسرح ،
ويخشيان أن تكون المسرحية المعلن عنها « بائع لندن » هجاء
لاذعا لطبقتهم ، فيطليان إلى أجيرهما رالف وهو ، من
قراء الروايات البطولية أن يلعب دوره في المسرحية ليكون
نحر البقالين ، فيقوم هذا بدور فارس السيف القاطع ، فنشهد
له عددا من المآثر الحميدة ، منها أنه ينقذ زبائن حلاق (كان
ينعت في ذلك الظرف بالعملاق بارباروسا) . . إلى آخر
ما هناك . وهكذا نرى ثلاث ملاء في ملهاة واحدة . المسرحية
الأولى (وهي هجاء الدونكيشوتية) ، وإضافات الفارس رالف
المتنفخة ، ثم تعليقات البقال وامرأته ، وهي من أجل
التعليقات وألطفها . ونرى المؤلف ينتقل من الشعر المرسل
إلى الشعر المقفى ، ومن الشعر المقفى إلى النثر ، بدون أى
تدرج . ولكنك لا تحس في ذلك كله شيئا من الفوضى أو

الاضطراب . وهذه ناحية قوية لم يوفق إليها فلتشر فيما كتب بعد ذلك .

أما تليذه ماسنجر فتعوزه الأصالة والقوة . إلا أن له مسرحية بقيت مع ذلك حية إلى حد كبير ، وعنوانها « طريقة جديدة في تسديد ديون قديمة » ، وهي تمثل مرايا شاذا غريبا ، يجب المال لأن المال يتيح له أن يحطم غيره . فهو أمرؤ مولع بالتعذيب ، فليس يسعده شيء كما يسعده أن يرى الناس يتعذبون . ولكنه يقع أخيراً في الفخ ، فنشده وهو يرغى ويزبد وبعض الأرض ، ويساق إلى مستشفى المجانين . ألم تذكر مارلو وبن جونسون ؟

هذا هو ، رغم كل شيء ، خير ما في الدراما الاليزابثية (نحن الآن في عهد شارل الأول) . وقد اكتشفت أخيراً مسرحية لمؤلف اسمه فورد^١ (١٥٨٦ - ١٦٣٩) تمجد حب المحارم في حب جيوفاني لأخته أنابلا التي تزوجت . وتآبى الأخت على أخيها ، فيقتلها في الكواليس ، ثم يعود إلى المسرح وهو يهز قلب أخته الدامي على رأس خنجره . مرحى فورد ! ولكن تورنر كان « أشطر » منك ! ...

ويمكن أن نذكر كذلك اسم شيرلي (١٥٩٦ - ١٦٦٦)

الذى قلد سابقه ، ولكنه برهن على تمكنه من صناعته وعلى
براعة عظيمة .

وما هي إلا لحظة حتى ساد ليل شامل وظلام دامس .
ويقطف البيوريتانيون ثمرة جهودهم الطويلة ، فيصدر في
عام ١٦٤٢ قرار يقضى بإغلاق المسارح . .

ولما فتحت المسارح بعد ثمانى عشرة عاما كان الذوق قد
بلغ من التغيير أن تساءل الناس : كيف أمكن أن يكون
أجدادنا بدائين إلى هذا الحد ؟

الفصل السادس

وليم شكسبير

١ - المؤلف والرجل

سيد الأدب العالمي غير منازع . معجزة من معجزات العبقرية . كان منافسوه من خريجي الجامعات يحسدونه في أثناء حياته ، فيردلونه ويشتررون عليه . ولكن هيات أن ينال قزم من عملاق . تعيش أبطاله حياة فوق الطبيعة فما يعرف الهرم إليها سيلا .

ليس يضيره أن يقع في شيء من التكلف والغلظة من حين إلا حين ، فقد كان يعرف كيف ينهض ثانية . لم يكن يسعى إلى أصالة ، وإنما هو مورد مسرحيات يريد لفرقة أن تكسب وتربح . كان يتبع الذوق السائد ، فشعاره الحياة أولا . فإذا أصدرت الملكة أمرها إلى المشارح أن تعمل على «إذكاء» الوطنية ، هب شكسبير يكتب مآسى تاريخية كبيرة في تمجيد الانتصارات الإنجليزية . . وإذا كان الجمهور

يعنى بالدرامة السوداء ، رأيت شكسبير يكثر من حوادث القتل والتعذيب والانتحار والجنون .. وإذ أرىنا فالتشريح يضمن الغلبة والسيادة للحياة الخفيفة ، رأينا شكسبير يبادر إلى تصوير شخصيات لطيفة ، ورأينا مسرحياته تفيض عطرا وزهرا .

وكان الذوق العام يتطور بسرعة، فكان لابد من الكتابة بسرعة . فكان شكسبير يستمد موضوعاته من أى معين كان : من أخبار هولنشد أو من آثار بوكاشيو أو باندلو أو غيرها ، بل كان فى غالب الأحيان يكتب بأن يعتمد إلى مسرحيات قديمة فيضيف إليها بعض الفصول أو يحذف منها بعض الفصول بدون أى مراعاة للانسجام . وكان لرغبته فى إرضاء الجماهير ، شأنه فى ذلك شأن معاصريه ، يمزج بين عقدة هزلية نثرا وبين عقدة فاجعية شعرا

ولعلك تقول : وكيف يكون إذن إنسانا عظيما مادام يعوزه الابتكار الأصيل ؟
ولسكن مهلا . إن شكسبير ما يكاد ينشب مخله فى موضع حتى ترى فيه طابع العبقرية .

ليس بين العبقريات التى عرفتها الإنسانية عبقرية واحدة تضارعه خفة وانطلاقا .

عُسمد شكسبير فى ستراتفورد أن أفن فى السادس والعشرين

من عام ١٥٦٤ . وكان أبوه تاجرا ميسورا الحال ، عُين رسميا في وظيفة ذائق للبيرة (في مصلحة قمع العش) ، ثم عين قاضيا في بلده (وبهذه الصفة كان يستقبل فرق الممثلين المتجولين) .
وأما أمه ماري آردن فكانت تنسب إلى أسرة من صغار ملاكي الألبان .

أدخل في « مدرسة النحو » بستر أفورد ، وهي مدرسة ممتازة ، لم تكن تعنى بالدراسات الكلاسيكية (اللاتينية خاصة) فحسب ، بل بدراسة اللغة الانجليزية كذلك . ثم يفس الأب ، وبعد ذلك تغيب عن نظرنا شخصية الفتى وليم شكسبير . ولا نعرف من أمره إلا أنه في الثامنة عشرة من عمره تزوج آن هاتاوى التي تكبره بثاني سنين ، وأن الزواج كان اضطراريا ، إذ لم ينقض عليه ستة أشهر حتى كانت الزوجة قد وضعت غلاما .

سافر وحده إلى لندن يسعى وراء الثروة . ودخل ميدان المسرح فكان ممثلا عاديا . ولكنه لم يلبث أن اكتشف طريقه كملفق لمسرحيات . وحالفه الظفر ، فاندفع عندئذ وراء التأليف الشخصي . وتردد على اوساط البلاط . ففتحته كونت سوثامبتون حمايته . وقد عالج آلاما عاطفية شاذة : ففي « قصائده » ما يشير إلى

حبه لسيد فتى خانة مع د امرأة سمراء ، ١ وإنك لتحس في نبراته لوعة حقيقية وألما صادقا .

ونال الثروة، فقد كان رجل أعمال ممتازا . فاشترى في مسقط رأسه منزلا استقر فيه عام ١٦١٠ . ومات في الثالث والعشرين من شهر ابريل عام ١٦١٦ ، ودفن في الكنيسة امام الهيكل . وجمعت مؤلفاته عام ١٦٢٣ في مجلد ضخيم وكان بعضها قد نشر قبل ذلك في مجلدات صغيرة ، ولكنه لم ينشرها إلا مضطرا ، فإن بعض اللصوص قد نشر وانصا ناقصا حصلوا عليه بواسطة الاختزال أثناء التمثيل . ويبلغ مجموع مانشر من هذه المؤلفات تسعة عشر مؤلفا . منها أربعة عشر فقط نشرت بموافقة للمؤلف .

ولكن شكسبير كان يكتب ليُمثَّل لا ليُقرأ ، ويجب ألا نعد النصوص التي وصلتنا من آثاره نصوصا مقدسة نهائية لا يمكن أن تمتد إليها يد . فإنما هي في معظمها منقولة عن الدفاتر التي كانت تكتب للبلقنين ، وكثيراً ما كان شيكسبير يعود إلى نصوصه فيجرى فيها قلبه تبديلاً وتنقيحاً وفقاً لما تقتضيه النظارة أو المودة الدارجة . وكثيراً ما كان يضيف تفصيلات تقتضيها الطوارئ والحوادث المستجدة . بل كان

لا يعنيه أن يعرف هل هذه الإضافات أو الاختصارات تسيء إلى تفهم المجموع . وهذا هو السبب في أن كثيراً من الفقرات غامضة مهمة .

وقد أمكن تحديد الترتيب الزمني لظهور مسرحياته الأساسية بالاعتماد على وسائل كثيرة ، منها ظهور المجلدات الصغيرة ، وما تضمنته سجلات «شركة المكتبات» ، وما تضمنه مؤلفات منافسيه من إشارات ، ثم الفقرات التي تشير إلى حوادث مستجدة ، بل والصورة التي كتبت بها المسرحيات (فإن شكسبير قد فقد شيئاً فشيئاً احترامه للقافية وأصبح أدنى إلى المرونة) . . الخ .

وتفاوتت قيمة مسرحياته علواً ودنواً ، فمنها الرائع ، ومنها الحسن ، ومنها المتوسط ، ومنها الرديء . وقد أخذ النقاد منذ ثلاثة قرون يقسمونها إلى ثلاثة أقسام عادلة معقولة ..

٢ — الشباب الطامح

نستطيع أولاً أن نستبعد كل المسرحيات التاريخية تقريباً . فمعرضنا « هنرى السادس » ، و « ريتشارد الثالث » ، أدنى إلى الغرابة منها إلى الواقع : تبدو جان دارك في مسرحية « هنرى

السادس ، في ملاحح امرأة ساحرة - على أن في مسرحية « ريتشارد الثالث ، مشهداً ليلياً رائعاً غداة المعركة الحاسمة ، حيث نرى الملك وقد غزته أشباح ضحاياها .

والطائفة الأساسية من المسرحيات التاريخية هي ذلك التمثال الشاهق الذي أقامه شكسبير تمجيداً لبطل قوى هو الملك هنرى الخامس بطل آزنكورت . ولكن قاعدة هذا التمثال أعنى ريتشارد الثاني لا قيمة لها إلا من حيث هي دراسة لطبع من الطباع : طبع الملك الضعيف، الخيالى، الذى يذهب ضحية أخطائه ، الكرهية والداعية إلى الشفقة فى آن واحد . كما أن التمثال ، هنرى الخامس ، يتحرك حركات فيها كثير من التفخيم . ويحس القارىء أن شكسبير أراد أن يؤلف مسرحية ذات أسلوب نغم . لقد لجم عبقريته حتى خنقها .

وهناك الجزءان الاخيران من مسرحية « هنرى الرابع ، وهما جزءان لا يزالان حين بفضل البطانة الهولية للعقدة . ولئن كنا لا ننسى ذلك العنصر المؤثر فى المشاهد التى تدور بين الملك الذى هرم قبل الأوان بتأثير الهموم وتأنيب الضمير والحب ، وبين ابنه الأمير هال الفتى الذى يتمرغ فى حماة

الفسق والفجور بناء على خطة مرسومة ، فاننا ننتظر بوجه خاص
مشاهد الحانة حيث يلبع سير جون فولستاف ، رفيق الأمير ،
ومرشده ، وضحيته . إن فولستاف يلخص في شخصيته أبطال
الملحمة الرابلية .. إنه برميل متجول يقضى لياليه وهو يمتلئ .
وكلما ازداد عبأ للخمر إزدادت قريحته نشاطاً . إن عينيه الصغيرتين
تشعان الخبث في وجهه المستدير استدارة البدر . إنهم يصفعونه
ويسرقونه ويصبون عليه ألواناً من الكذب والخيانة والغدر .
ومع ذلك فإن الكلمة الأخيرة دائماً له . إن الناس يضحكون
دائماً معه لا عليه . إنه البرهان الحى على عظمة الخمر .

وكان من نجاح هذه الشخصية أن عاد إليها شكسبير في
مسرحية « الزوجات المرحات في وندسور » . ولكنه يقدمه لنا
هنا هرما ، غيبا ، سريع التصديق ، تستطيع بورجوازيتان
سخيفتان أن تضحكا عليه وتدساه في سلة الخسيل الوسخة
وترمياه في النهر .

ولا تزال الملاحى التى كتبها شكسبير فى شبابه تصيب
نجاحا . ولا سيما اثنتان منها هما « تاجر البندقية » و « كما
يعجبك » .. ويجب أن نذكر كذلك مسخرة قديمة عمد إليها
شكسبير فخورها ، وهى « ترويض النمرة » ، وما زالت هذه

المسخرة تنال رضى ممن يحبون أن يضحكوا على نحو ما كان الناس يضحكون في القرون الوسطى .

أما « تاجر البندقية » ، فهى ملهاة سيئة التأليف ، تتناول ثلاثة موضوعات رئيسية ، فضلا عن الموضوعات الثانوية : الغرض الذى اتفق عليه بين اليهودى شيلوك والتاجر أنطونيو ، ثم قرار بورشيا فى أن يتزوج من بين المعجبين بها ، الرجل الذى يختار من بين الصناديق الثلاثة الصندوق الجيد ، ثم غرام لورنزو بجيسىكا ابنة شيلوك . أضف إلى ذلك أن هذه المسرحية تحتوى على أمور غير ممكنة الوقوع : فهل تبلغ الغباوة بياسانيو ألا يعرف خطيبته بورشيا مجرد أنها ارتدت رداً قاضٍ ؟ ولكن ، فى المقابل ، ما أروع ما هنالك من مشاهد نخمة ، كحديث الحب بين لورنزو وجيسىكا ، ثم ما أعظم اختراع شخصية شيلوك ! إن شخصيته لمن التعقيد بحيث فسرها كل قرن تفسيراً مختلفاً عن تفسير القرن الآخر : مثله أيام شكسبير فى صورة عجوز كرهه مكشراً لا يقصد من شخصيته إلا أن يضحك جمهوراً ممن يكرهون اليهود . ومنذ عهد الرومانطيين . خففنا من غلوائنا وأصبحنا نشفق عليه بعض الاشفاق : ليس شيلوك بالذكى ، ولكنه يبلغ من

آلام قلبه وماله وكرامته الإنسانية أننا نكاد نبرر له ما عمد إليه مع أنطونيو من إبرام هذا الوعد الوحشي الذي يقضى بأن يؤدي له أنطونيو رطلا من لحمه . لم يكن ليدور بخلد شكسبير أن الناس ستعجب يهوديه : لقد فاقه بطله .

وليس في مسرحية « كما يعجبك » ولا في مسرحية « الليلة الثانية عشرة » أبطال بلغوا هذه الدرجة من قوة الوضع . وربما كان هذا هو السبب في أن هاتين المسرحيتين غير ذائعتين ذبوع مسرحية « تاجر البندقية » ، رغم أنهما أكثر توازنا منها . على أن في مسرحية « كما يعجبك » أشياء رائعة لا تنسى ، فهل تنسى غابة آردن حث نرى روزالند تخفي آلام قلبها ، ونرى جاك المريض بأعصابه يزجي وقته محملا إحساساته ساخراً بالآخرين ! أما « الليلة الثانية عشرة » ، قصة التخفي والحب ، فما أظن أن كثيرا من الملاحى الخيالية تضارعها في توازنها وحسن تسلسلها ، بل إنك لتأخذ عليها هذا الإسراف في التوازن : فإن المرء ليشاهدها مفتونا بها ، ولكنه سرعان ما ينساها .

وأجمل مسرحيات شكسبير الشباب مسرحيتان : إحداهما خيالية من عالم الجن ، عنوانها « حلم ليلة صيف » ، والثانية

مأساة غرامية هي «روميو وجوليت». ولا شك أن الأولى تحتوى على طائفة من الشخصيات ليست بالشائعة كثيرا مثل: شخصية الدوق تيزيه وحاشيته. ولا شك أيضا أن العقدة الهزلية فيها تبطئ الفعل أو الحدث فيما لا طائل تحته. فالصناع الغلاظ الذين يهثون مأساة لزواج دوقهم لا يضحكوننا إلا على قدر ما يفيدون في إضحاك الجنيات: إن العنصر الجنى فى المسرحية هو الذى يشوقنا: شخصية أوبرون الزوج الطاغى الذى ينتقم من امرأته بأن يجعلها تحب بوتون الحائك الخشن القاسى.. الذى ألبس رأس حمار، الخ أما روميو وجوليت، فهى درامة الحب والشباب والنور، وقد عدتها الأجيال ثروة عامة للبشرية بأسرها. ولا شك أن من الممكن أن نأخذ عليها هذه الخاتمة الميلودرامية المسرفة. وقد نأخذ عليها عدم الاحتشام فى كلام المربية العجوز التى لا تحلف إلا بعدراويتها، وتمزح دائما بشئون الزواج.. إلا أن فى هذه الدرامة عنصرا أبديا خالدا، هو هذا الحب الحار العنيف بين شاين، هذا الحب الذى يدوى فى أعماق القلب كما يدوى صوت الأرغن فى غابة واسعة. قلء بين الشعراء الغنائيين من بلغ ما بلغه مشهد الشارقة من رفعة وسمو، حيث يتساقى روميو وجوليت أحاديث الغرام الذى سوف يربطهما حتى فى الموت...

٣ - الفترة المظلمة

بأنقلاب صفحة القرن السادس عشر ينقلب شيكسبير إلى المأساة القاسية الدامية . ولا شك أن من العوامل التي دفعت في هذا الاتجاه ما أصابته « الدراما القائمة » من نجاح : إن مسرحية Measure for Measure تنتهي نهاية ملهارة ، ولكنها في الواقع مأساة ، إنها درامة النفاق . إن أنجيلو الپيوريتاني الذي يستفيد من سلطته لإرضاء تبذله هو شخصية مأساة . أما مسرحية « ترويلس و كريسيدا » فهي معارضة لأدب القدماء الذي يريد أن يكون فكها وهو في حقيقته مرغاية المرارة . وأما « تيمون الأثيني » فهي درامة الخداع والذناء الإنسانية والدعوة إلى كره الإنسان . وأحسن المسرحيات الرومانية التي كتبها شيكسبير مسرحية « يوليوس قيصر » ، وفيها يبين بمثال بروتس كيف يخفق مواطن طيب مستقيم مخلص أمام سياسي ماكر ، بل كيف يهدم ، بسلامة نيته ، القضية التي احتضنها ، قضية الحرية .

والسلسلة السوداء حقاً من آثار شيكسبير هي مسرحياته الأربع « عطيل » و « الملك لير » و « هاملت » و « ماكبث » ،

وهي أشهر مؤلفاته على الإطلاق. وأكثرها اسوداداً هي «الملك لير»، فنحن هاهنا في عالم من المرضى والشواذ وأنصاف المجانين: هي قصة ملك عجوز متعاطف يدعى لير، يحب المديح، ويريد أن يقسم مملكته بين بناته الثلاث، فيطلب إلى كل منهن أن تقول كلاماً في مدح شخصه العظيم. أما الكبريان جونزل وريجان، فانهما تسمعانه أقوالاً معسولة تفيض بالتبجيل، وأما كورديليا فتشتم من هذا النوع من التمثيل وترفض الإجابة، فيحرمها أبوها من إرثه، وتترك المملكة مع زوجها ملك فرنسا. إن لير لا يعرف من الملك إلا مظاهر العظمة. إنه عجوز مزعج يحف به حرس طائشون. ولم يكن يحتمل أقل شيء من النقد، فكلمة واحدة كانت كفيلاً بأن تجعله يرنى ويزبد غضباً. وفي ليلة عاصفة ينبذه الجميع إلا مضحكه، فيهرب إلى أرض قاحلة وهو يهذى ويعربد ويشتم العاصفة. وفي ناحية منعزلة يلتقي يادجار، الابن الشرعي لسكونت جلوستر، الذي طرده أبوه على أثر وشاية نماها إليه ابنه غير الشرعي ادموند، فتخفي تحت قناع مجنون متسول. وبينما تزرأ الرياح وتعصف، نسمع هؤلاء الثلاثة: المجنون الحقيقي والمتظاهر بالجنون والمجنون المحترف (مضحك الملك) يتبادلان الحديث والهديان.

وتتراكم الحوادث فنفقاً عينا جلوستر ، وتأتى كورديليا مع الفرق الفرنسية لإنقاذ والدها ، ولكنها تهزم ، وحين يسدل الستار نرى جثث الأموات على المسرح أكثر من أجسام الأحياء . ولا يستطيع الانسان أن يهتم كثيراً بهؤلاء المختلين . إن لير الحرف وكورديليا العنيدة لا تثيران فينا سوى قليل من الشفقة . ولا يبقى لنا من عزاء إلا فى المضحك ، وهو شخص رقيق فكه ذكى من نوع فولستاف .

أما مسرحية « ماكبث » ، فهى أحسن تأليفاً وأقل تطرفاً ، وما أحسب أحداً استطاع أن يحلل الشعور المعذب بأحسن مما فعل شيكسبير فى « ماكبث » . وما كبث رجل كان فى وسعه أن يكون إنساناً صالحاً لولا تأمر القدر عليه . فنبوءة الساحرات ، وثقة الملك العمياء به ، ثم طمع امرأته القاسى . كل ذلك دفعه إلى أن يمثل ذات ليلة دور القاتل الخائف . ويصبح ماكبث ملكاً ، ولكنه لا ينعم بالهدوء ، بل تلازمه الأشباح ، وامراته يحطمها تمزق الروح ولا أقول الندم ، فتصبح مجنونة ، وتجعل تطوف فى أنحاء القصر تسمح يدها لتمحو بقعة من الدم يصورها لها الخيال . وتتسارع الحوادث تترى ، ويموت ماكبث وهو يحارب ، يفدى نفسه

هذا الألم الروحي وهذه الميتة الشريفة . . .
أما « عطيل » فإنها ترك في نفسك شعوراً بالضيق والبرم ،
لأن الطباع تتطور بسرعة كبيرة . فهذا عطيل ، المراكشي
الذكي المستقيم ، ينقلب فجأة ، بمجرد ما يتسرب الشك إلى
روحه ، إلى شيطان محموم غيور مجنون ، وهذه ديدمونة ،
المتكبرة الجريئة التي تتحدى حق أبيها وتطالب أمام مجلس
شيوخ البندقية بحقوق الحب في كثير من الكبرياء ، تتحول
بسرعة عظيمة إلى حمامة مذعورة بمجرد ما يبدى لها سيدها
المراكشي شيئاً من غضبه . وأقوى شخصيات هذه المسرحية ،
ولعلها أقوى الشخصيات الأدبية التي عرفها العالم ، شخصية
إياجو ، هذا العبقرى الشرير المبغض المتآمر الذي يجد أعظم
اللذة وأكبر السرور في رؤية الناس يتألمون . وحين كشف
أمره لم ينبس بكلمة واحدة تم عن الندم . . .

أما « هاملت » فهي أكثر درامات شيكسبير السوداء
تفككاً ، ومع ذلك فهي أروعها وأكثرها إثارة للانفعال .
إن شخصية هاملت سرّ محير ، بل إن أفعاله نفسها محيرة .
فالواقع أن هناك هاملتين . هاملت وحمشيا وقحا حقودا
يرغب في الانتقام ، ويهزأ بأوفيليا ، ويحرق جثة يولونيوس ،

ويدفع باثنين من رفاقه إلى الموت دون ماشفقة ولا رحمة .
ثم هاملت آخر شريفا نبيلًا ، صريحًا كريما ، يعترف باخطائه
ويحب أصدقاءه ، ويعبد أباه .

إن هاملت يتظاهر بالجنون .. لماذا؟ إنه لم يكن معرضاً
لأى خطر .. . لقد كانت أمه تحبه ، وكان من الممكن أن
تحميه من عمه . وعمه يجهل كل شيء . ولكن هذا الجنون
المتكلف كان يجعله على حذر من الأمر . ولقرط ما يتظاهر
هاملت بالجنون ينساق مع هذه اللعبة الخطرة ، ويفقد رقابته
على نفسه .. . لقد كان يستطيع تحت قناع الجنون أن يكسب
الوقت وأن يعمل . فهنا يكمن كل شيء . إن هذا الرجل
البالغ ثلاثين عاماً من العمر شخص ضعيف الإرادة . لقد
عاد إلى الدانيارك منهك القوى ، وهو يفكر في الانتحار ،
ويرزح تحت عبء تلك الحالة النورستانية التي يخاف فيها
المريض من مجرد فكرة الجهد المتصل . فلما اكتشف مقتل
أبيه هوى إلى درك الانحلال الإرادي . حتى لقد جعل عمه
يحاذره ويخشاه على عمد منه . ويدفعه إلى الهجوم دفعاً .
ولو أن عمه استطاع أن يستثيره فقط ، إذن لكان من الممكن
أن يندفع بجأة إلى قتله ، فإنه حين ضرب بلونيوس الذي كان

يتجسس عليه كان يحسبه عمه . إنه يحاول دائماً أن يستثير نفسه بصرخات وشتائم .. ولكن عبثاً .. وحين يظن أنه قد عزم على الأمر واتخذ قراراً نهائياً ، لا يلبث أن يوحى إلى نفسه اتجاههاً آخر فيتساءل : أليس من الممكن مع ذلك أن يكون عمى بريثا ؟ وحين الفرصة ذات يوم ولا يبقى بينه وبين الانتقام إلا أن يهوى بيده ، فيصرع عمه . ولكن عمه كان يصلي ، فيجد هاملت في ذلك حجة للتراجع ، فيقول لنفسه : لو قتلته الآن لمت شهيداً . ولم يقرر هاملت أن يعمل وأن يضرب إلا وقد طعن الطعنة القاتلة .

لم يسبر شيكسبير أعرق الأركان المستسرة من النفس الإنسانية مرة كما فعل في هذه المرة . وليس هاملت الشخصية المعذبة الوحيدة في هذه المسرحية الخالدة . فهناك أوفيليا التي يتقاذفها جها من جانب وواجبها البنوى من جانب آخر . وهناك أيضاً الملكة جيرترود التي لا تعلم هل يجب عليها أن تحب ابنها أم تبغضه . إن مسرحية « هاملت » ، لهى ذروة من أرفع ذرى الأدب .

٤ - الصفاء الأخير

ولقد عاد شيكسبير في نهاية حياته إلى الختام التفاؤلى .
ومنع ذلك فليس بين مسرحياته الأخيرة إلا مسرحية واحدة
استحقت الخلود بالفعل وهى « العاصفة » .

أما مسرحية « سيمبلين » فإنها تتناول مرة أخرى موضوع
الغيرة ، ولكن عطيلها رجل محبوب ، كما أن شخصية إياجو
قد لانت . ولكن ديدموتتها ، أعنى إيموجين ، مخلوقة جميلة
نييلة ، ولعلها أصفى وأنقى بطللة خلقها شيكسبير .

وأما « حكاية الشتاء » فهى أيضاً تروى قصة الغيرة
الجنونية متمثلة فى شخص الملك لبيونتس : إنها محكمة التأليف ،
ولكنها تشحب إذا وضعت يازاء « عطيل » . على أن المشهد
الريفى فى الفصل الرابع يتمتع بكثير من النضارة والفتنة . إن
العيد القروى ، وأفراح خطبة فلويزل إلى پرويتا ، وأغانى
أوتوليكوس ، هذا المتشرد المفتون بالفضاء والشمس والحب ،
كل ذلك يجعلنا ننى أن غاتمة المسرحية بعيدة عن سياق
المعقول والممكن ، وأن من المستبعد أن تكون الملكة التى
ظنوا أنها ماتت لا تزال حية . لئن قلنا لشيكسبير منذ هنيهة :

إنك أسرفت في الخواتيم السيئة ، فليس يسعنا الآن إلا أن
نصرح له بأنه أسرف في الخواتيم التفاؤلية .

وأما في « العاصفة » ، وفي « حلم ليلة صيف » ، فإن الشخصيات
السمائية هي التي تخلف في نفوسنا ذكريات لا تبلى : مثل
شخصية آرييل الذي ينطوى اسمه نفسه على عنصر هوأى
مجنح خفاق ، والذي ينفذ أوامر سيده بروسبيرو ثم يفتى فرحة
حياته المقبلة تحت الزهرة المعلقة بالغصن - ومثل كاليان ،
خصمه الفظ الغليظ الذي يزجر زجراته الغريزية الصماء .

لقد أراد رينان أن يعد كاليان رمزا للشعب المستعبد الذي
يضمثر ثورات قاتمة ، في حين أن شكسبير لم يخلقه إلا ليضعه
موضوعا للصحك . ويرى كلاريدج أن آرييل يمثل الخيال
الحر ، ويرى هازلت أنه يمثل الروح في مقابل المادة ، ويرى
شليجل أنه يمثل الهواء الخفيف في مقابل العنصر الثقيل
أعني الأرض ، ويرى ريشين أنه يرمز إلى « الروح التي
تطوف في الأشياء » . أليس من خصائص العبقريّة أن تخلق
شخصيات يفسرها كل عصر من العصور وكل شارح من
الشارح على نحو خاص ؟

لم يخلق شكسبير شيئاً . إن شكسبير لص سارق . . . إن

شكسبير عبد « المودات » . لقد استلب موضوعاته من غيره ، وأغار على مؤلفات منافسيه . ولكن شكسبير قد أقام قصورا تتحدى الزمان . إنه الوحيد في زمانه الذي رأى النفس الإنسانية عارية في كل جمالها وفي كل قبحها . ولعله الوحيد في العالم الذي أوتى من مواهب الرؤى ما لا يسند في العادة لغير الآلهة .

الفضيل السابع

الأدب في ظل البيوريتانية

١ - النثر والشعر

ذبل الأدب في عهد تشارلز الأول في إبان الجمهورية ثم ما لبث الليل أن ساد . . . تقطعه بعض البروق الخاطفة . . . إن النثر فقير . . . أول من نصادفهم سير توماس براون (١٦٠٥ - ٧٢)، وهو لا يكاد يقل غرابة وشدوذا عن بيرتون. وأكبر مؤلفاته Religio Medici وهو مجموعة من المواعظ والاعترافات كتبت بلغة مرهفة فنية . ولا يزال براون يحظى بعدد من المعجبين المتحمسين. على أن المعجبين به أقل عددا من المتحمسين لإسحاق والتون، وهو كاتب غريب قريب من القلب حبيب إلى النفس؛ حتى لقد دخل كتابه «الصيد الماهر»، في عداد المؤلفات الكلاسيكية، وهو مجموعة من التراثات الممتعة اللذيذة . . .

غير أن الكتاب الكبير النثرى الوحيد الذى يحمل طابع البيوريتانية لم يظهر إلى النور إلا متأخرا جدا. أى

حين أخذت البيوريتانية تطارد من كل مكان ، وأخذت تميل إلى الأفول . . . أعنى كتاب جون بنيان (١٦٢٨ - ٨٨) : هو إنسان صوفي من أصحاب الرؤى ، قضى في السجن سنين طويلة في سبيل إيمانه ، وختم حياته الإشرافية رسولا وراعيا لفرقة كبيرة من الخوارج . إنسان فطرى ، تغذى بالتوراة ، وبعض الكتب اللاهوتية الغامضة ، وكتب لنا كتابا رائعا بعنوان « تقدم الحاج ، (١٦٧٨) بلغ فيه أرفع الذرى الصوفية . روى لنا ما كان من أمر (المسيحى) الذى نجما من المغريات ، وأصغى إلى النصائح الحكيمة ، كيف اجتاز وادى (ظل الموت) بدون عائق ثم (سوق الغرور) وكيف نجما من العملاق (اليأس) ، وكيف وصل أخيرا بمساعدة (الأمل) إلى نهر (الموت) وبلغ أبواب (مدينه السماء) .

« وعبر (المسيحى) النهر . وكان على الضفة الأخرى شخصان نورانيان فى انتظاره . سار معهما إلى أعلى الراية . فلما وصلوا قالوا له : ستدخل الآن جنة (الرب) ، حيث ترى شجرة الحياة ، وتأكل من ثمارها التى لا تذبل ، وسيلبسونك حين تفصل رداء أبيض ، وستتنزه وتتحدث كل يوم مع (الملك) إلى الأبد . . .

« ولما اقتربوا من الباب كان في استقبالهم طائفة من حرس السماء . فقال الشخصان النورانيان : هذا هو الرجل الذى أحب الرب حين كان على الأرض ، وترك كل شيء فى سبيله ، وقد أرسلنا الرب لإحضاره فأحضرناه ، حتى يستطيع أن يدخل ، وأن يرى وجهه (مخلصه) فرحاً . .

« واجتاز (المسيحى) الباب ، فتحول إلى كائن آخر ، وألبسوه ثوباً يلمع كالذهب ، وسمع أجراس (المدينة) كلها تدق دقاً فرحاً . لقد كانت المدينة تلمع كالشمس . وكانت الشوارع مفروشة بالذهب .

غير أن بنيان لم يستطيع أن يضع قدمه مرة ثانية على هذه الذرى الصوفية ، فقد جاء الجزء الثانى من كتابه ، حيث يروى لنا ما كان من أمر (المسيحية) حين مضت للحاق بزوجها ، أشبه « بسخرة » أجبره على القيام بها الواجب والنجاح . على أن فى كتابه « موت السيد الشرير » لفتات واقعية جميلة تفهى بديشو .

أما الشعر فى هذا العصر فهو أنمى جداً من النثر ، وإن لم يكن من الطراز الأول . وفى هذا العصر نرى المسرح تحتله طائفة من الشعراء تصنف بالتعقد . والتكلف والشذوذ على

غرار دون، وتسمى بطائفة الشعراء الميتافيزيائيين، لأنهم يريدون أن يتجاوزوا الطبيعة، وأن يجدوا شيئاً وراء الظاهر الواضح للأشياء. وقد أسرفوا في مذهبهم فوقعوا في الشذوذ والمفارقة والمبالغة والاستعارة المعقدة. من ذلك قول أحدهم، وهو كروشو (١٦١٢ - ٥٠): «إن دموع مريم المجدلية هي زبدة أنهار الحجر التي تشرب منها الملائكة عند الصباح». ومن هؤلاء أيضاً فوجهن وهو طيب قرية، نظم قصائد قصيرة في الطفولة والطبيعة، وهي قصائد تسيطر عليها فكرة الماضي والموت في جو ديني. على أن أكبر هؤلاء الميتافيزيائيين قس هادى. يدعى جورج هربرت (١٥٩٣ - ١٦٣٢)، يضم ديوانه «المجدد» قصائد مقفاة تلتزم أدق القواعد الشعرية وأخرى حرة لا تتقيد بشيء قط، كما يستعمل استعارات أرضية في التعبير عن وثبات صوفية.

ويمكن أن ننسب روبرت هيرك (١٥٩١ - ١٦٧٤) إلى طائفة الميتافيزيائيين، ولو أنه في الواقع أعظم وأكثر أصالة من أن ينسب إليهم. وهو قس في الريف أيضاً، ولكنه كان قبل ذلك في البلاط، وكان أبوه صائغاً، وكان يقرض الشعر هو الآخر. وديوان هيرك «هسييريدس» عبارة عن قصائد

دينية وأخرى هجائية وبعض مقطوعات المناسبات . وقد عفى الزمان عليها وطواها النسيان . إلا أن له شعراً عن الجن لا يزال حياً ، وله كذلك شعر جميل في الخمر وفي الحب الشهواني . ولا يزال نقرأ بشغف قصائده القصيرة التي يتغنى فيها بالموسيقى والأزهار والمراعى .

وعلى الطرف المقابل لطائفة الشعراء الميتافيزيائيين ، هؤلاء الشعراء الدينيين ، الانجليكانيين أو الكاثوليكين ، تقف طائفة الشعراء الفرسان أو شعراء البلاط . وزينة هذه الطائفة شاعران أولهما كارو (١٥٩٨ — ١٦٣٩) ، وثانيهما لقليس (١٦١٨ — ٥٨) ، وقد عرفا كيف يغنيان الحب المتحلل في شعر فني جميل — ثم طائفة البيوريتانيين ، وأمع شخصياتها شخصية أندرو مارفل (١٦٢١ — ٧٨) وهو رجل سياسى كانت له ساعات من الإلهام الشعرى فذة نادرة . وهو شاعر الحدائق بالدرجة الأولى ، وأول من راقب طير السماء ولاحظ بريق عينيه .

وفي آخر هذه الفترة ظهرت المدرسة الكلاسيكية الجديدة التي حاولت ، بدون أن تتحرر من هوس الميتافيزيائيين ، أن تقدم للعالم الحديث قصائد تضاهاى عيون الآثار القديمة .

وأكبر أقطاب هذه المدرسة كولى (١٦١٨ - ٦٧) وقد عرف كيف يحلل الحب إلى عناصره كما يحلل الموشور شعاع الشمس إلى ألوان الطيف. وقد تعهد الأنواع الكلاسيكية ، كالرثاء والقصيدة البندارية^(١) بل والملحمة . وفي هذه الأثناء كان دنهام (١٦١٥ - ٦٩) فى «راية كوبر» يروى لبنى وطنه الحوادث التاريخية التى شهدتها ضفاف التاميز ، وكان والر (١٦٠٧ - ٨٧) ينظم أشعاراً جميلة فى المناسبات .

ولكن ذلك كله ذهب مع الريح . إن هؤلاء الكلاسيكيين المحدثين أصبحوا لا يهتمون الآن غير المؤرخين . ولئن كان كولى لا يزال يحتفظ ببعض المعجبين فإنه يدين بذلك بالدرجة الأولى إلى « مقالاته ، النظرية الرشيقة . ومع ذلك يجب ألا ننسى أنه ظل خلال قرن كامل يعد أبا الشعر الحديث .

(١) بندار (٥٢١ - ٤٤١ ق.م) أمير شعراء اليونان الغنائيين ، امتازت قصائده بقوة الفكر وجمال الاستعارة وروعة الأسلوب ووفرة الصور ، وحرارة الرواية . ويؤخذ على قصائده شيء من التموض والتعاطف .

٢ - جون ملتون

هناك كاتب موهوب واحد يسود انجلترا البيوريتانية :
جون ملتون . وهو كاتب عظيم مافى ذلك ريب . والكنهم



ملتون ١٦٠٨ - ١٦٧٤

بالغوا فى تعظيمه فى الأوساط الفكرية بانجلترا . والطريف فى
الامر أنهم كانوا يظنونه أرثوذكسيا إلا أن الأبحاث الجديدة
بينت أن تفكيره الدينى كان مستقلا جريئا إلى حد بعيد . وقد

عدته بعضهم نداءً بشكسبير . وأصبح ملتون الآن موضوع خلاف كبير بين الباحثين . والاتجاه الراجح الآن هو تمجيد ملتون الفارس الغنائى على حساب ملتون الملحمى المسيحى . ولد ملتون فى لندن عام ١٦٠٨ ، وانصرف إلى حياة الأدب فى سن مبكرة . وكان أبوه يحضه على ذلك . وكان منذ عهد المراهقة إنساناً الترعة ، بارعاً فى الموسيقى ، تقياً على غير إفراط .

ودخل جامعة كبردج عام ١٦٢٥ . ولفت إليه أنظار الجميع بوفرة اطلاعه وقدرته على العمل ، وكان موضع إعجاب أساتذته وزملائه جميعاً . وكان ينظم شعراً باللاتينية والإنجليزية ، فكان هذا مؤذناً بعبقريته . فلما بلغ الحادية والعشرين من عمره كتب قصيدته عن « صباح عيد المسيح » وهى تحتوى على مقاطع منسجمة مؤثرة فى موت بان .

وكان كل شىء يهينه لأن يكون كاهناً ، ولكن الأسقف لود كان يسير بالكنيسة الأنجليكانية عندئذ نحو الأرثوذكسية . وترك ملتون الجامعة بدون أن يدخل فى سلك الاكليروس . واعتكف عند أبيه فى هورتون مدة خمسة أعوام . وفى خلال هذه المدة (١٦٣٢ - ١٦٣٨) نظم قصيدتين

رائعين أو لاهما « L'Allegro » ، وهي تغنى ربيع الطبيعة والقلوب
والثانية « Penseroso » ، وهي تتغنى بالتأمل السكتيب الذى
يهجر الأرض متجها إلى السماء . وكتب بعد ذلك فوراً
مسرحية خيالية بعنوان « كومس » تكاد تكون مسرحية واقعية ،
وفىها صور لنا أليس الحسناء ، بنت كونت برديجوتر ، تضل
فى الغابات ، ويلاحقها كومس الجنى الساحر يحاول عبثاً أن
يغزبها وآخر قصائد شباب ملتون قصيدة بعنوان « ليسيداس »
وهى مرثاة رقيقة نظمها بمناسبة موت زميل له فى المدرسة ،
ولا يفسدها إلا إسراف فى الروح الريفية .

وفى عام ١٦٣٨ سافر ملتون إلى إيطاليا ، وكان يفكر فى
كتابة ملحمة قومية كبيرة عن الملك آرثر . فلما أتته أخبار
الحرب الأهلية أسرع إلى لندن واندفع جسماً وروحاً يساهم
فى النضال مع البرلمان ضد الملك . وكاد يهجر الشعر هجراً
تاماً ، فما كان ينظم إلا بعض السونيتات من حين إلى حين ،
(واحدة عن مذبحه الفوديين وأخرى عن فقده بصره
الخ) ؛ ووقف نفسه على خدمة الحرية بمهاجمة أعدائها ،
فهاجم أولاً الأساقفة الانجليكانيين ، ثم الملك ، وأخيراً
البرسبترين . كان بطل الأفكار التقدمية ، وأحسن

كتاباتة الهجائية ما كتبه بعنوان « Areopagitica » ، وفيه هاجم قيام الرقابة بمنطق قوى وبلاغة رصينة . واندج في الحياة العالمية ، فكان السكرتير اللاتيني لكرومول ، وتساجل مع أكبر مفكرى أوربا ، وظفر عليهم جميعا .

قد هوى فجأة وزال مجده . فلما وافى عام ١٦٦٠ ارتقى شارل الثانى مرش آباءه ، لم يعد ملتون شيئا مذكورا ، وأنفق السنين الأخيرة من حياته فى كتابة ملاحم من التوراة كان قد تصورها فى صورة مآسى يونانية مصحوبة بكورس . وعندئذ سيطرت عليه فكرة الأسطورة . وكان قد فقد بصره . ولعل ذلك يرجع إلى أنه أسرف فى استخدام عينيه المسكينتين دفاعا عن البروتستانية . وأخذ يملئ أشعاره على امرأته وبناته ، وهن يكتبن ما يملئ ، ويعزفن أحيانا على العود ترويحاً لنفسه وإيقاظاً لوجه .

وفى نهاية عشر سنين كان ملتون قد نظم ثلاث ملاحم بلغة انجليزية تتبع خطى الجملة اللاتينية ، وشعر مرسل يسكاد يخاور من الوزن ، اثنتان من هذه الملاحم الثلاثة كاد يطويهما للنسيان : « العودة إلى الفردوس » ، وهى تصور امتحان المسيح فى الصحراء ، و « شمشون المتقاتل » ، وهى درامة يشبه فيها ملتون مصيره بمصير بطاله .

أما الملحمة الثالثة منبى « الفردوس المفقود » (١٦٦٧) .
وقد ظل الناس خلال قرنين كاملين يكيلون لها المدح جزافا ،
والحقيقة أنها في مجموعها لا تصمد لامتحان نقدى . فلئن كان
يحلو للعلماء والمؤرخين أن يمشوا يكتشفون مصادرها في التوراة
ويؤولونها ، فإن القارىء العادى ليضيق ذرعاً بهذه التشبيبية
اللفظة في الغالب . إن الأشخاص فيها تتطور وتبدل ، حتى
« الأبدى » الذى كان يجب أن يظل ثابتا لا يعتوره تغيير
ولا تبدل . والملائكة عزاب قساة لا يكادون يتأدبون في
معاملة حواء ، فكانوا يرسلونها إلى المطبخ متى أرادوا أن
يلقوا على آدم درسا في الكوزموغرافيا أو اللاهوت أو
التاريخ . والسماء منظم كتظيم مجلس اللوردات ، والجحيم أشبه
في تنظيمه بمجلس العموم . وفي قلب المعركة يخترع الشيطان
المدفعين ، ولكن مدفعه قريبة المرى جداً بحيث يستطيع
رؤساء القطع أن يتحدثوا بسهولة مع المحاربين الذين أمامهم .
« والأبدى » مولع بالاستعراضات ، مغرم بالتمرينات
العسكرية في الثكنات . إنه يعين هيئة من الحرس في دهليز
الجنة الأرضية ، ويأمر بطواف العسس في الليل ، ولكن هذا
لا يمنع « الشيطان » من أن يمر ، وحين يأتى الملائكة قلقين

لتقديم تقريرهم ، يزعم « الأبدى » بكل هدوء وبرود أنه قد
تنبأ بأن الحرس لن يكونوا إلا خشبا مسندة . . .

وإذا كان ذلك كذلك ، فمن أين أتت هذه الشهرة العظيمة
التي أصابتها هذه القصيدة . لقد أتتها أولا من أنها تحتوى على
فقرات وصفية رائعة ، وإيماءات موسيقية خارقة ، وأتتها ثانيا
من شخصية (الشيطان) البطل الحقيقي للقصيدة ، الذى يعيش
حياة عنيفة غنية . إنه التمجيد الرائع للكبرياء . إنه بطل
(الحرية) الذى لا يمكن ضبطه أو السيطرة عليه . إنه (الروح) .
وليس آدم أو الأبدى أو الابن أو حتى حواء ، إذا وضعوا
بجانبه ، إلا دى متحركة . .

لم تقدر قيمة ملتون فى العصر الذى نشر فيه هذا الأثر
الذى يعد أحسن آثاره ، ثم أسرفوا فى تمجيده بعد ذلك .
وهو يحتل اليوم مكانا مرموقا فى تاريخ الأدب الانجليزى .
إنه أول من شعر بأن الثورة والتمرد والألم صفات تعظم من
شأن (الشيطان) . ومن هذه الناحية يمكن أن يُعد
الرومانطيقون أتباعا له .

الفصل الثامن

أدب الإصلاح،

١ - العقلية الجديدة

قلّ أن تجد بين الثورات ثورة تضارع «الإصلاح»،
عام ١٦٦٠ نفاذاً إلى عالم الآراء والأخلاق والعادات.

لقد كانت انجلترا حبيسة في غرفة خانقة، فأخذت تفتح
النوافذ. كان الناس قد عاشوا في سأم خلال عشرين عاماً،
فأخذوا الآن يمرحون ويسرفون في المرح. هاهم يلعبون
ويسكرون ويعربدون ويشتمون، ويجرون في الشوارع ليلاً،
يضربون العسس، ويقررون أنوف الآخرين، ويشنقون
النساء من أرجلهن، ويظهرون في الشرفات سكارى في
أوضاع منافية للحشمة.

أما في ميدان الأدب فقد كانت السيادة للتأثير الفرنسي.
كان كل شيء يهيم. انجلترا لنزعة كلاسيكية من الطراز الفرنسي،
على قدر ما يمكن للغة الانجليزية، وهي رومانطيقية غامضة
بطبيعتها، أن تكون كلاسيكية.

على أن النثر ينتسب إلى ميدان الفلسفة أو التاريخ أكثر من انتسابه إلى الأدب بالمعنى الأصلي للكلمة . وكل من يعنى بتطور الفكر الإنساني لا يستطيع أن يهمل هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٨) مؤلف كتاب «Leviathan» الذي هاجم التيوقراطية ، ومهد للذهب الإلهي ، والمذهب الوضعي ، والمذهب النفعي ، وكثير من المذاهب أيضا - لا ولا نستطيع أن ننقل لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) صاحب كتاب «رسالة في العقل الإنساني» الذي يمكن أن نعدّه من ناحية علم التربية مهداً لروسو . هذا وقد أحيا هواة الطرف الأدبية مؤلفات جلافيل (١٦٣٦ - ٨٠) عن الساحرات .

وفي وسع المؤرخين أن يتلقطوا كثيراً من الأشياء في هذا العصر ، فيجدوا مؤلفات كلاريندن (١٦٠٨ - ٧٤) عن الحرب الأهلية ، ومؤلفات الأسقف بيرنت (١٦٤٣ - ١٧١٥) عن الأزمات الداخلية لبان «الإصلاح» ، وأن يجدوا أخيراً وخاصة عدداً من كتب «اليوميات الخاصة» . وأهم هذه الكتب ثلاثة : يوميات ريرزبي (١٦٣٤ - ٨٩) ويوميات إيفيلين (١٦٢٠ - ١٧٠٦) ويوميات بينز (١٦٣٢ - ١٧٠٤) . وقيمة هذه المؤلفات متفاوتة . فأما

ريرزى فقد كتب للأجيال المقبلة ، وأما إيشلين فقد كتبت
لأبنائها ، وأما بينز فلم يكتب إلا لنفسه ، فكان إذا أتى المساء
يتناول قلباً وورقة ويدون سرأ بأسلوب مختزل كل ما رآه أو
خطر له طيلة النهار . ولم يبدأ الباحثون بفك رموز يومياته
إلا فى عام ١٨٢٥ ، ولم يجرؤ أحد على نشر هذا الكتاب كاملاً
إلى الآن ، فلا تزال هناك فقرات لم تطبع ، فقد ارتاع الناشر
حين رآها وآثر أن يتجاوزها .

إن هذا البورجوازى الجرىء الذى كان موظفاً فى البحرية ،
وتزوج بنت هوجنوتى مبعده لم يخف عنا شيئاً من ضروب
الضعف الإنسانى الذى يتمثل فيه . كان يحاسب نفسه كل يوم ،
ويسجل كل شىء كيفما اتفق ، بدون نظام ، فتراه يحدثنا عن
تتويج الملك ، عن الأحاديث البذيئة التى تدور فى حاناته
المفضلة ، عن طاعون ١٦٦٥ ، عن الفطائر التى أكلها ،
والمسرحيات التى شهد تمثيلها ، والمواعظ التى نام أثناءها ، عن
الحريق الكبير فى عام ١٦٦٦ ، عن النساء اللواتى امتلكنه ،
عن لحظات حماسه الوطنية ، عن تغوطاته الشاقة ، عن خصوصياته
مع امرأته ، عن العقوبات التى يوقعها على نفسه كلها ارتكب
إثماً ، عن الوعود التى كان يرتبط بها ويتحلى منها بانطاقة .

وهو حين يروى سقطاته بحمر خجلا ، ويستعمل كلمات
أجنبية . . .

إنى لأبيع يوميّات بين كل أدب « الإصلاح » ماعدا
المسرح . إن الشعر في هذا العصر يكتب بالتعبير عن أفكار
شائعة في صورة سهلة منسجمة . وقد عمل كونت روسكمن
(١٦٣٣ - ٨٥) على ترجمة هوراس في شعر مرسل ، واشتهر
بالرصانة والجد ، ولكن هذا لم يمنعه من أن ينظم في مغنّية
كانت تخشى أن نصاب بالزكام . وهناك كونت روتشستر
(١٦٤٧ - ٨٠) وهو مثال الرشاقة في شعره ، وقد نظم
قصائد قصيرة رقيقة وأخرى بذئبة ، كان يتداولها الناس سرّاً .
والأثر البارز الوحيد هو أثر صموئيل بطلر (١٦١٢ - ٨٠)
وقد ظفر بالمجد والشهرة على أثر نشر قصيدته « هودبراس » ،
وهي قصيدة طويلة من النوع البطولي الهزلي ، متأثرة بسرقاتنس
وسكارون ، تروى لنا قصة برسييتري اسمه هودبراس يمضى
مع تابعه البخيل رالف ليحارب مفسد العصر ، فيلقى مايلقى
من عنت وعناء . ولكي تقدر ما في هذه القصيدة من تندر
« بالنور الداخلى » وغير ذلك ، لا بد أن نلم إلى ما جيداً
بالخصومات اللاهوتية في ذلك العصر .

۲ - جون درايدن



درايدن ۱۶۳۹ - ۱۷۰۰

إن الرجل العظيم في هذا العصر هو درايدن . وهو ابن
رجل محترم من الريف . حصل ثقافة قوية في وستمنستر
أولاً ، ثم في كامبردج بعد ذلك . وعاش حياة أدبية طويلة .
وقد تزوج فتاة من الطبقة النبيلة ، وكان يحظى بعطف الملك ،
فاندمج في حياة البلاط اندماجاً وثيقاً ، ولكن هذا لم يمنع
كبار النبلاء من معاملته معاملة الحقر . . وقد رأيناه في فترة

قصيرة يتغنى بكرمول أولاً ثم بالإصلاح بعد ذلك بنفس الحماسة . وحين ارتقى جيمس الثاني الكاثوليكي العرش رأينا درايدن ينقلب إلى الكاثوليكية . . ولكن حين دارت الرياح نحو البروتستانتية ، لم يجرؤ أن ينكر نفسه مرة أخرى ، فقضى ما تبقى من حياته منبوذاً .

ليس شعره الغنائى بالشعر الشائق . وقد اندفع في شبابه مع التيار الميتافيزيائى .

وبعد ذلك أصبح بطل المذهب الكلاسيكى ، وأصبحت أشعاره أقرب إلى الاعتدال والرصانة . ولا شك أن فى قصيدته « Annus Mirabilis » التى تصف حريق لندن ، كثيراً من الوثبات الروحية ، كما أن فى « أنشودة عيد سانت سيسيل » وفى « عيد الإسكندرية » موسيقى قوية . على أن أمهات آثار درايدن فى نظر معاصريه هى ترجماته الشعرية الحرة للشعراء اللاتين ولا سيما ترجمته للإنيادة .

ولا شك أنه فى الهجاء أعظم منه فى غير ذلك . حتى لقد ظلت قصيدته « أبسالون وأكيتوفل » ، رغم أنها تدور حول السياسة الداخلية فى تلك الفترة فحسب ، أكثر قصائده شهرة وذيوها بين الناس . وقد نظمها بناءً على طلب البلاط فى

مهاجمة كونت شاقسبرى ودوق مونموث . ليست تعيننا
الأسرار التي يفضحها ، وإنما نحن نعجب بهذه الصور الناطقة
التي يرسمها لأشخاصه . إن درايدن يرسمها شيئا فشيئا ، خطأ
خطا . يخط أولا دائرة واسعة ثم يأخذ في ملء هذه الدائرة
بالخطوط الصغيرة التي تبلغ منتهى الدقة والوضوح . فليس
من الصعب على مطلع أن يتعرف تشارلز الثاني ومونموث
وشاقسبرى وبكنجهام في شخوص دافيد وأبسالون
واكتوفل وزمرى .

ولكن الشعر لم يكن ليغذى صاحبه ، فكان درايدن
يكسب معيشته عن طريق تأليف الدرامات . وكان المسرح
والمجتمع قد تطورا بوجود ممثلات يمثلن أدوار النساء . هاهي
نل جون (وهي عاهر من بيوت الدعارة) تظهر ذات مساء على
المسرح ، فما يكاد يراها تشارلز الثاني حتى يطير له إعجابا بها ،
فيمضى إلى لقاءها وراء الكواليس ويتخذها خليلته . لقد أصبح
المسرح مكانا يلتقي فيه الناس ، تأتيه السيدات مقنعات متخفيات .
هاهي النظارة تلعب الورق في الشرفات . . . والشعب من
تحتها يتراسق قشور البرتقال . . . وكان المؤلفون يحاولون
لاجتذاب انتباه مثل هذا الجمهور ، أن يثيروا الشهوات المنحطة

ويبالغون في العناية بالديكور ويولون القسم الموسيقى جل عنايةتهم :

وكان درايدن يعد ملك المسرح غير منازع . وقد كتب عدة بحوث قوية عن الفن الدرامي . ولكنه لم يكن موفقا في تأليف الملامى ، حتى لقد كان دون منافسيه قوة في هذا الباب . فى مسرحية « المتوحش الأنيق » يرينا كونستانس وهى تضع تحت ثوبها مخدة لتوهم بأنها حامل وتقنع أباهما بأنه هو نفسه على وشك أن يلد .

أما إذا تناول المأساة البطولية رأيتة أكثر اطمئنانا وحرية . فى مسرحية « كل شىء فى سبيل الحب » يتناول مرة أخرى موضوع أنطونيو وكليوباترة . ومن مسرحياته « فتح الاسبان غرناطة » . ومنها « أمبوينيا » ، وهى مسرحية وطنية ترينا الانجليز يعذبهم الهولانديون فى الهند .

ولكننا لم نعد نقرأ الآن من هذه المؤلفات إلا المقدمات التى كان يكتبها درايدن فى الدفاع عن منهجه وصناعته .

٣ - المسرح في عهد الاصلاح

في حين أن كثيراً من منافسيه مازالوا يجدون من يقرؤهم بل ويمثلهم ، على الرغم من أنهم أضعف موهبة منه .
من هؤلاء لى (١٦٥٣ - ٩٢) وهو طالب قديم في كبرج ، كان بوهيميا يعيش حياة فوضوية منحطة ، وكان مدمناً على الخمر إدماناً لا يبرء منه ، وقد جن أخيراً وأودع مستشفى المجانين . كتب عدداً كبيراً من الدرامات في شعر مرسل تتدفق فيه الشهوانية تدفق سيل عرم . كان يكتب وهو في سورة من الحمى ، ولا يزال هذيانه يؤثر في النفس لأنك تسمع فيه رنة الصدق . ولكن أبطاله في معظم الأحيان أشبه بدمى مصروعة . ولعل أحسن مآسيه والملكات المتنافسات ، وهي درامة مؤلمة (من الصعب أن نجد شيئاً أعنف من تهديدات روكسانالساتيرا) وهي في الوقت نفسه غنية بمشاهدها (نرى في الفضاء معركة تدور بين جمع من البوم وجمع من الغربان ، ونرى معركة عجيبة بين نسر وصقر) .
ومنهم أتواى (١٦٥٢ - ٨٥) وقد عاش هو الآخر حياة شقية كممثل وجندى ومتطفل . ولكنه استطاع قبل أن يموت

جوعا ، أن يستمتع بفرحة الظفر بمسرحيته « اليتيمة ،
و «إنقاذ البندقية» . وقد وضع قلبه في خدمة حزب المحافظين
أعنى حزب التاج ، فصور الزعيم الشعبي المجدد شاقسبرى
عضواً عجوزاً بمجلس الشيوخ يقلد الكلب ليضحك لعشيقته .
ثم إن لهاتين المسرحيتين ، ولا سيما الثانية قيمة حقيقية . فما
أروع هذا التناقض بين المتآمر پير الذى يتصف بقوة العزيمة
وصلابة العود وبين صديقه جافير الذى يشى بالمؤامرة حياً
لامرأته ويستطيع مع هذه الحقارة أن يقوم بأعمال التضحية
فيقتل نفسه بعد أن يخدم پير بقتله إنقاذاً له من المقصلة .

أما الملهاة فى عهد الإصلاح فلا تزال تقرأ إلى الآن . ولكنها
أدنى إلى المسخرة المنحطة منها إلى الملهاة الرفيعة ، فهى تستفيد
من كل أنواع القذارات ، وتلعب فيها أصناف الرذيلة دوراً
أساسياً ، ولعل كثيراً منها لا يمكن أن يمثل كاملاً إلا فى
بيوت الدعارة . . .

ومن مؤلفى الملهاة سير جورج إثيرج (١٦٣٤ ؟ - ١٩٠٤)
كان قنصل إنجلترا فى راتشبون (رجنسبورج) . وفق إلى
خلق ثلاث شخصيات نالت رضى الجمهور وإعجابه ، هى

شخصيات : الشاب المتكلف (سير فرديك فرولك في مسرحية « الإلتقام الهزلى ») والمتغذرة الشريفة (لادى كوكود في مسرحية « تريد لو كانت تستطيع ») والظريف المتفرنس (سير فوبليج في مسرحية « رجل على المودة »)

ومنهم شادول (١٦٤٢ - ٩٢) : مؤلف مغرور متعجل ، ولكنه استطاع في مسرحياته المفككة أن يصور مختلف نماذج المجتمع الانجليزى من الطبقات الراقية والطبقات المنحلة . ومنهم ويتشرلى (١٦٤٠ - ١٧١٦) : يفوق منافسيه بموهبته التأليفية وواقعيته الفظة . إن هذا الرجل الراقى الذى كان يتردد باستمرار على صالون دوقه مونتوزيه والذى اندمج فى حياة الطبقات العليا حين عاد إلى لندن ، لم يصور لنا إلا غلاظاً أو معتوهين ، وشخصياته ، رجالاً ونساء ، لا تعيش إلا من أجل اللذة الجسدية فى أحط صورها . إلا أنك تحس عنده رغبة قوية فى تلبس الحقيقة تضاف بصورة لاشعورية إلى هدف أخلاقى . وأقوى مسرحياته « The plain Dealers » تصور رجال القانون ومن يخذعون بهم . وأفسكه هذه المسرحيات « السيد أستاذ الرقص » وهى تصور رجلاً إسبانيا يدعى دون ديجو مولعا بالمواد الإسبانية ، وسيداً من باريس يبلغ به خب عادات

ما وراء المائش أنه يقبل خادمتا المطاعم ، ويصاب بالأمراض التي يسمونها فرنسية . لا يكلّ ويتشرى من الهزء بأولئك الذين يتظاهرون بترك العادات البريطانية القديمة .

وقدر هفت الملهاة بعد ويتشرى . ومن المؤلفين بعد ذلك :
كونجريف (١٦٧٠ - ١٧٢٩) رجل من الطبقة الراقية ، كف عن الإنتاج بمجرد ما تجهم له الجمهور . وقد شاء سوء الحظ أن يصيب هذا التجهم أحسن مؤلفاته ، أعنى « طريق العالم » ، وهي مسرحية جميلة تذكرنا بطلتها ملامانت بطلات شكسبير . هي فتاة ذكية ، مرهفة ، فكهة ، ماكرة ، رقيقة القلب على ندره ذلك فى هذا العصر .. إن لها من قوة الإشعاع ما يجعلنا ننسى من أجلها ملامه كونجريف الأخرى .. وأحسن هذه الملامه الأخرى « الحب للحب » ، وهى من ناحية الصناعة والافتقان تفوق « طريق العالم » كثيرا . ويمكن أن نذكر من منافسى كونجريف :

- فانبروج (١٦٦٤ - ١٧٢٦) : تميل مسرحياته إلى المسخرة على طريقة رابليه .

- ثم فاركارا الأيرلندى (١٦٧٧ - ١٧٠٧) :
أرهف من سابقه وأقرب إلى القلب ولكن نقضه المسائل

الجنسية . وكلا الرجلين قد أزعجه تطور الذوق العام ، فقد أخذ الناس يحبون العاطفة ويميلون إلى الحشمة والخفر والحياء .
فقد كتب القس جريمي كولير في عام ۱۶۹۸ مقالة هجومية بعنوان « نظرة سريعة إلى فساد المسرح الانجليزي » ، أعلن فيها أن المسرح أشبه بمدرسة تعلم فساد الأخلاق .
لقد أزال البيوريتانيون المسائل الجنسية . وهانحن رأينا رجال (عهد الإصلاح) لا يعيشون إلا من أجلها . ولا بد أن يبدأ الآن عهد جديد ، عهد التوازن بين العاطفة والعقل ، بين الجسد والروح .

الفصل التاسع

عصر الملكة آن

١ - الشعر الكلاسيكي : بوب

هذا هو الازدهار الأدبي الثاني تعيش على رأسه ملكة أيضا . ويمتد عصر الملكة آن فيشمل العهود التي تلي عهدها .



بوب ١٦٨٨ - ١٧٤٤

الشعر في هذا العصر ممتع ولكنه سطحي . إنه أولًا يكاد

يجهل الاندفاعات العاطفية ، وهو ثانيا عبد السياسة ، وهو ثالثا قد أسرف في استعمال المفردات الريفية .

هناك شاعر واحد في هذا العصر وطائفة كبيرة من النظامين . أما النظامون فيمكن أن نذكر منهم براير (١٦٦٤ - ١٧٢١) وأن نمنحه مرتبة الشرف الأولى ، وقد نظم قصائد جيدة في المناسبات كما نظم بعض القصائد الغزلية الفكاهة - ويمكن أن نذكر أيضا جاي (١٦٨٥ - ١٧٣٢) ونمنحه مرتبة الشرف الثانية ، ومن قصائده : « أسبوع الراعي » ، وهي تمتاز بأسلوب أنيق متخير ، وكذلك قصيدته « فن السير في شوارع لندن » ، وهي من النوع البطولي الهزلي ويتغنى فيها بأخطار الشارع اللندني .

أما الشاعر العظيم في هذا العصر ، فهو رئيس مدرسة ، بل قل رئيس قبيلة ، ألا وهو الكسندر پوپ (١٦٨٨ - ١٧٤٤) . كان هزليا ، ومشوها ، وكاثوليكيًا . وتلك كلها أسباب جعلت الناس يبنذونه ، وجعلته يصبح إنسانا شريرا . ولكنه كان ذكيا نشيطا . فتفتحت مواهبه مبكرا جدا . قضى سني مراهقته العاملة النشيطة قريبا من غابة وندسور . ولم يتجاوز الخامسة والعشرين حتى نشر القصائد التي ضمننت له المجد وجعلته في طليعة الشعراء . لقد استهدف في أول الأمر أن يكون فرجيل إنجلترا ،

فنظم «الريفيات» ، ولكن طبيعته المنطقية تغلبت عليه بعد ذلك ، فكتب «مقالة في النقد» . وقد اجتمعت هاتان الصفتان في «غابة وندسور» ، حيث تتخضب الناحية الريفية بأهداف تعليمية . ولكن أول روائعه قصيدة بطولية هزلية بعنوان : «سلب خصلة الشعر» .

وأخذ يوب ابتداء من عام ١٧١٥ بترجمة هو ميروس شعرا انجليزيا ، وقد درت عليه هذه الترجمات حوالى تسعة آلاف جنيه ، فلما أصبح غنيا ، وضمن استقلاله ، استقر في توپكهام ، واتخذ له سالونا في مغارة اصطناعية . وقضى القسم الأكبر من وقته يحارب أعداء قدماء ويوجد أعداء جدد . وأكبر آثاره التي كتبها في كهلته ملحمة هزلية بعنوان «Sottisiade» يسخر فيها من الشعراء الذين لا ينتسبون إلى قبيله . ورغم أننا لا نعرف شيئا عن هؤلاء المساكين فما زالت بعض مقاطع هذه الملحمة تبعثنا حين نقرأها على كثير من الضحك .

أما باقى آثار يوب فلا تعنى غير المؤرخ . وقد عاد إلى مهاجمة صغار الشعراء في قصيدته «رسالة إلى الدكتور آر بنت» كما نظم نظريات صديقه بولنجبروك الفلسفية ، وذلك في قصيدته «مقالة فى الإنسان» . ومات فى عام ١٧٤٤ راضيا

مطمئنا إلى ما نال به غيره من عض موجع . . .
أما في المسرح فليس هناك إلا أثر عين واحد من تأليف.
جاي بعنوان « أوبرا المتسول » وقد خلدت هذه الأوبرا
بالموسيقى الممتعة التي وضعها لها بيوش الذي أراد أن يسخر
من هندل ومن الأوبرا الإيطالية ، فعمد إلى ألحان شعبية
قديمة ، وخصص أرق الألحان لأفظ الأغنيات . ونرى هذه
المعارضة الساخرة نفسها في كلام المسرحية من أولها
إلى آخرها .

وقد وفق جاي إلى الهزم بالدرامة العاطفية التي كانت
تعيث فسادا في ذلك الوقت ، واستطاع أن يقضى على الدرامة
البورجوازية وهي في مهدها .

٢ - النثر الكلاسيكي : سبكتاتور

كلما سادت الكلاسيكية في إنجلترا كان النثر هو زينة
الأدب . كانت السياسة في إنجلترا ، أيام حكم الملكة آن
ناشطة ، وكانت المساجلات الدينية عنيفة ، وكانت الآراء
تتصادم في طائفة من النشرات والصحف .

ويمكن أن نذكر بين الذين كانوا يدافعون عن الديانة
الأرثوذكسية جوزيف بطر (١٦٩٢ - ١٧٥٢) ، ومن خصومه

يمكن أن نذكر بولنجبروك (١٦٧٨ - ١٧٥١) ، وخصوصاً ماندفيل (١٦٧٠ - ١٧٣٣) مؤلف « أسطورة النحل » التي تبرهن لنا ، من وراء المظاهر البريثة ، على ضرورة الفساد والرذيلة لكل مجتمع أحكم تنظيمه .

وبين المؤلفين السياسيين الهجائين (باستثناء دى فوسويقت) يجب أن نذكر بالدرجة الأولى آرثنوت (١٦٦٧ - ١٧٣٥) وهو يروى لنا في كتابه « تاريخ جون بول » بصورة فكهة خصومات نيغولا فروج (لويس الرابع عشر) . وأعتقد أنه مامن أحد كتب التاريخ كتابة متحيزة وفكهة إلى هذا الحد .

وتعد الجريدة الأخلاقية (أو جريدة المقالات غير السياسية) التجديد الأساسى فى هذا العصر . وأول جريدة قيمة بهذا الوصف هى « الثرثار » لصاحبها الإيرلاندى ستيل (١٦٧٢ - ١٧٢٩) . كان العدد من أعدادها عبارة عن مقالة سريعة تتحدث عن الأخطاء الاجتماعية الصغيرة ، وتعرض لآخر مسرحية ناجحة ، وتتناول موضوعات من النقد الأدبى . ولكن ستيل ، هذا البوهيمى الذى كان ضابطاً ومؤلفاً درامياً وناقداً ، كانت تعوزه الأناة والوقت

والثقافة العامة . إلا أنه في المراحل الأخيرة من مراحل «الثرثار»
قد تعاون مع صديق له مرهف مثقف أديب هو جوزيف
إدسون (١٦٧٢ - ١٧١٩) ، فأصدرا معا جريدة جديدة
سميها سبكتاتور (أى المتفرج) . وما زالت هذه الجريدة
تعد خير نموذج في بابها .

وكان الصديقان يكمل كل منهما الآخر ، فقد كان كل
منهما نقيض الثاني . أما ستيل فقد وصفته لك ، وأما إدسون
فقد كان رجلا هادئا متأنيا . وهو ابن أحد القسس ، وكان
طالباً في أكسفورد . ساح كثيراً في أوروبا ، وكان عضواً
في البرلمان . وقد نظم شعراً باللاتينية ، ونظم قصائد طويلة
في المناسبات ، وألف مأساة على الطريقة الفرنسية بعنوان
«كاتون» . وقد أصدر عدة صحف ، ولكنه لم يكتب شيئاً
يضارع مقالاته في سبكتاتور . وقد استطاع بمعاونة ستيل أن
يجعل ما يطبع من هذه الدورية الأدبية التعليمية ثلاثين ألف
نسخة . فما كنت ترى امرأة في إنجلترا ، وعلى رأسهن الملكة ،
إلا وتطلب سبكتاتور في نفس الوقت الذي تطلب فيه
فطورها عند الصباح ، هذا بالرغم من أن معظم مقالاته كانت
موجهة ضد الجنس اللطيف وغدره وجهله ، إلا أن مسخريته

كانت من اللطافة والخفة بحيث لم تكن تؤذى السيدات بل كن على العكس يجدن في قراءتها لذة كبيرة .

وأجل ما ابتدعته جريدة سبكتاتور طائفة الأشخاص الشواذ التي تشتمل على ممثل لكل طبقة من طبقات المجتمع : رجل قانوني يحب الأدب والمسرح ، تاجر غني يكره الحرب ، جندي متقاعد متواضع بقدر ما هو شهيم ، قس يفيض معرفة وفضيلة ، السبكتاتور نفسه (المتفرج) ، هذا الشخص العاقل الذي يطوف في الحياة ملاحظاً صامتا - وأخيراً سير روجر كثرلى وهو سيد من الريف لبق أنيق يحب أرملة فتية جميلة . على أن شخصية سير روجر كثرلى هي بين يدي ستيل اللطف منها بين يدي إدسون . لقد جعل منها ستيل أو أراد أن يجعل منها شخصية رجل بوهيمي ملتهب العاطفة يعيش حياة عنيفة ، يكثر من شرب الخمر ، ويحب الحب . أما إدسون فقد تمثلها شخصية رجل شاذ ، غريب الأطوار ، امتلأ رأسه بالأفكار العجيبة المضحكة ، يعيش حياة خاصة من طراز قديم ، ولا يفقه شيئاً في المسائل السياسية ، وهو أشبه بدمية مضحكة . وفي مقابل ذلك نرى إدسون يفوق صاحبه ستيل في النقد الأدبي .

كانت جريدة سيكتاتور تظهر كل يوم ، ماعدا الأحد ،
وظلت تصدر مايقرب من عامين (من مارس ١٧١١ إلى
ديسمبر ١٧١٢) . ويجب أن نغنى خاصة بثلاثمائة العدد
الأولى التي أوجدت هذا النوع الزاهر من الكتابة : أعني
« المقالة » .

٢ - العملاق ديفو وسويقت

سادا عصرهما ، وظلا بعد موتهما بقرنين يعيشان حياة
تبعث على العجب .

دانيل ديفو (١٦٦٠ - ١٧٣١) : هو ابن قصاب .
وقد شهد أثناء طفولته المجتهدة وباء الطاعون الكبير
والحريق الكبير ، وظلت ذكرى هذين الحادثين ماثلة في
ذهنه لا تبرحه . واشتغل بعد ذلك تاجراً ، وأفلست تجارته
(١٦٩٢) ، لكنه نهض ثانية وأصبح الصديق الحميم للملك
وليم الثالث الذي اعتلى عرش إنجلترا عقب ثورة ١٦٨٨ .
وفي الدفاع عن اتهام هذا الأخير بأنه ملك أجنبي إنما كتب
قصيدته السياسية الهجائية المشهورة « الانجليزى النقي الدم » .

وحين ارتقت الملكة آن العرش هبط من سماءه وأخذ يحارب الكنيسة الانجليكانية في صف الخوارج فأصدر بياناً يسخر فيه سخرأ مرأ من أبطال الكنيسة القومية وكان من نتيجة ذلك أن قبض عليه وسجن في نيوجيت وحكم عليه بأن يعرض على الجمهور ويهان ثلاث مرات .

واستطاع أحد السياسيين المهرة وهو روبرت هارلى أن يخرج من السجن . فأصبح ديفو التابع المخلص الوفي لهارلى الذى أصبح وزيراً . حتى لقد أصدر لتأييده جريدة اسمها « المجلة » كما قام بمجولات جاسوسية كبيرة فى الأرياف ليطلعه على اتجاهات الشعب ، وراقب فى عام ١٧٠٦ المفاوضات التى جرت للاتفاق على الاتحاد بين إيقوسيا وانجلترا . وقد ظل ديفو فى ركاب هارلى عندما انقلب هذا الأخير على حزب الشعب ، وانخرط فى حزب المحافظين .

وحين ارتقى جورج الأول العرش وفاز حزب الشعب هبط ديفو مرة أخرى . ولكنه كان فى هذه المرة ماهراً فأنقذ نفسه . كان الناس يعتقدون أنه قد انضم إلى المحافظين ، فاشتغل ، انقادا لنفسه ، جاسوساً على جرائد المحافظين عند الوزير الشعبى . ثم أقام فى ستوك نيونجتون من ضواحي لندن .

وهناك كان له من فراغ وقته ما أتاح له أن يكتب تلك الروايات التي ضمننت له المجد . ومات ديفو ميتة غامضة يطارده دائن ملحاح .

ويمكن أن نعد رواية « روبنسون كروزو » الرواية الانجليزية الأولى الجديرة بهذا الاسم : وقد أسسها على المغامرات الواقعية التي قام بها الايقوسى سلسكيرك ، وأيقظ بها في نفوس الناس محبة الوحدة والعزلة . ويمكن أن نعد شخصية روبنسون ، هذا التاجر العملى المنظم البورجوازى الساذج التقى ، صورة تكاد تكون صادقة غير مبالغ فيها للرجل الإنجليزي العادى . وقد روى ديفو معامرات روبنسون - وهى غير ممكنة الوقوع قطعاً - بتفصيل دقيق يكاد يوهم بأنها واقعية .

إلا أن رواية « روبنسون كروزو » قد هزمت الآن وعنى عليها الدهر . وأصبح الأدباء يفضلون عليها روايات ديفو الأخرى . لقد خلق ديفو الرواية التاريخيصة بإدخاله شخصية خيالية فى أحداث واقعية « مذكرات سنة الطاعون » ومع ذلك فلا شك أن خير رواياته هى تلك التى تصف حياة المغامرة والبؤس ، كالفسم الأول من رواية « كولونيل جاك »

التي تروى قصة الحياة البائسة التي عاشها أحد قطاع الطرق ،
ورواية «مل فلاندرز» وهي ترجمة ذاتية أو قل اعتراف كامل لفتاة
غُرر بها فأحاطها البؤس والظلم إلى مغامرة خطيرة ، وزوجة
خائنة ، وأمرأة عاهرة ، ولصة . ولو لم يكن لصاحبها غير
هذه الرواية لكفاه بها فخرا .

سويفت (١٦٦٧ - ١٧٤٥) : كان كل ما كانه ديفو ، مع
زيادة أخرى هي أنه موظفا كبيرا في محروم من الذخيرة الثقافية
الراقية . ولد وترعرع في إيرلاندة . وأصبح في رجولته سكرتيرا
لسير وليم تمبل السفير السابق والسياسي الكبير . وقد أتاحت
له أوقات فراغه أن يكتب كتابيه الأولين الرائعين « معركة
الكتب » التي تتحيز للقديما على المحدثين و « قصة البرميل »
وهي قصة رمزية تصور بيتر (الكنيسة الكاثوليكية) و جاك
(الكنيسة البرسيترية) ومارتن (كنيسة انجلترا البروتستانتية) .
و مارتن هذا هو الإنسان العاقل المتزن وهو الوحيد الذي يتبع
روح ونص العهد الذي خلفه أبو الأخوة الثلاثة (التوراة) .
وقد حصل سويفت على وظيفة كفسية في إيرلاندة
حيث تقيم أيضا ستيل ، ابنة تمبل غير الشرعية . وقد ظلت
ستيل هذه نجيمته المعذبة طوال حياته . على أنه قضى القسم

الأكبر من وقته في لندن واتخذ له فيها عدداً من صفوة الأصدقاء في الأوساط الأدبية كما ألب عليه عدداً من الأعداء في الطبقات الراقية. وقد منعه هؤلاء الأعداء من أن يصبح أسقفاً، فكان عليه أن يقنع برئاسة سان باتريك في دبلن. وقد وقعت له حوادث غرامية تعيسة انتهت بزواجه سرا من ستيللا، وأثرت على أعصابه، فطاش رأسه، واندفع في حرب هجائية يسكتب رسائله، المشهورة دفاعاً عن الإيرلانديين (الذين يحتقرهم) ضد مضطهديهم الانجليز. ثم ازداد شذوذه فكان يصفع أصدقائه بحجة التمرين. ومسته فكرة الوسخ والقدارة، وأصيب بقرحة في عينه، فزاد توحشه حتى أصبح أشبه بحيوان مفترس في قفص، ثم جن ومات تاركاً مالا لبناء ملجأ للمجانين!

لايكاد يبقى من آثاره الكثيرة إلا مقالاته الهجائية ذات النكتة الوحشية (يبين في الاقتراح المتواضع، أن الحل الوحيد للسألة الإيرلاندية هو أن نكره الإيرلانديين على أن يأكلوا أولادهم) ثم «مذكرات يومية إلى ستيللا، (وهي مكتوبة بقلم إنسان نصف مجنون ولكنها غنية بالحقائق الانسانية). أما كتابه الخالد فهو «رحلات جليفر»

(١٧٢٦). وقد هوى هذا الكتاب إلى مستوى أدب الأطفال في حين أنه من أختم الكتب التي عرفتها الإنسانية . يبدأ الكتاب لينا فكها وما يزال يتدرج حتى يصل بنا إلى أسفل دركات التشاؤم . ما الذي يبرهن عليه هذا الكتاب ؟ انه يبرهن على أن الإنسان كائن أحق ، مغرور ، مشعوذ ، مجنون ، محتمل ، مجرم . وأنه أخبث حيوانات الخليقة طرا . ولاشك أن في هذا شيئاً من حقيقة ، ولكنه ليس كل الحقيقة . لقد كان يعوز سويفت ، هذا الطموح المشوش ، شيء من رباطة الجأش وشيء من الاستبشار .

الفصل العاشر

القرن الثامن عشر

إن حياة صموئيل رتشاردسن (١٦٨٩ - ١٧٦١)
سرغامض كحياة شيكسبير .

كان يعمل طباعا، ولم يتلق إلتعلما أوليا ، ثم إذا بشيطان
الوحى يواتيه فجأة في الخمسين من عمره . كان يكثر من قراءة
الدوريات الأخلاقية كالسيكتاتور ، وكان يبنض الأدب
الخيالى على الطريقة الفرنسية بغضاً شديداً ، وكان يجب أن
يهبط بالرواية إلى الارض . وقد هبط بها إلى الارض فعلا ،
بل لقد شهدا إلى الارض شداً عتيفاً لا هوادة فيه .
ألف رواية طويلة هى عبارة عن مجموعة من الرسائل سماها
« پامبلا ، (١٧٤٠) : هى قصة خادمة صبية جميلة يحاول سيدها
أن يغيرها بشتى الوسائل ولا يفلح ، ثم يتزوجها أخيرا ولا يندم
على هذا الزواج .

وقد لقيت هذه الرواية نجاحا كبيرا شجع رتشاردسن

على أن يؤلف رواية أخرى في سبعة مجلدات ، تعد من عيون الآثار الادبية العالمية وهي : « كلاريسا هارلو » :

كلاريسا فتاة من الريف ، نبيلة جميلة ، ناعمة ، مثقفة ، سعدت على الارض سعادة الملائكة إلى أن ظهر لقليس . . لقليس شيطان في صورة إنسان ، عدو العفاف ، متكبر متعجرف ، عبقرى من عباقرة المغامرة والفجور . ويريد أهل كلاريسا أن يزوجها لشخص كربه ، فلا يسعها إلا أن تلتقى بنفسها في حماية لقليس الذى يستطيع بالحيلة أن يهرب بها إلى لندن ... ليقيم معها في شقة هياها لها في بيت من بيوت الدعارة .. ولكنه هناك يتردد . إن أشعة البراءة والطهر لى من القوة بحيث ينجل لقليس من نفسه ... وتفهم كلاريسا أنها مخدوعة .. فتهرب إلى هامبستد .. فيغضب لقليس غضباً شديداً . ان كبرياء الاغراء قد جرحته فيه .. وهاهو يتتبع خطى كلاريسا حتى يجدها ، ويستطيع بحيل أخرى أن يقتاد فريسته الجميلة مرة ثانية إلى لندن ، حيث يسقيها شراباً مخدراً ليظفر بجسد ساكن لاجراك فيه .

ولسكن هل نال لقليس ما يتمنى ؟ كلا ، فقد أحس أنه يجب كلاريسا ، وكلاريسا الآن تحتقره وتشمئز منه وترفض

أن تزوجه . لقد أصبحت لا تفكر إلا في الموت ... لقد تأملت كثيرا على هذه الأرض ، ولم تصل رسائل الصفيح من أهلها إلا غداة تركت الأرض إلى السماء .

ويسافر لفليس إلى القارة ينشد عزاء وسلوى ، ويتعزى شيئا فشيئا ، ولكن ابن عم كلاريسا يدعوها ذات يوم إلى المبارزة ، ويسدد إلى صدره طعنه قاتلة . ويقول لفليس وهو يحتضر « ليكن هذا تكفيرا عما أئمت يداي » ،

سيول من الدمع سكبتها إنجلترا ، وأوربا من بعدها ، بتأثير هذه الرواية . وأصبح الناس يعبدون رتشاردسون عبادتهم لإله . ثم يحمله محيطه النسوي على أن يصور الآن نموذجا لفضائل الرجل ، فيكتب « قصة سيرتشارلز جرانديسون » . غير أن رجله الفاضل هذا شخصية باردة رتيبة يضيق بها المرء ذرعا . وليس في الكتاب كله ما يشوق القارىء إلا جنون كلايماتين ، الحسناء الإيطالية ، التي تحارب عبثا حبها لسيرتشارلز .

وقد أصبحت قراءة روايات رتشاردسون الآن ثقيلة . فإن طريقة الرسائل بطيئة متكلفة ، والاسلوب محتاط ، والتكرار كثير لا يحصى ، ولكنى ما أظن أن بين الكتاب

قديمهم وحديثهم ، من يضاهاى رتشارد سون فى عمق التحليل النفسى .

أكثر ما كان يسوء رتشاردسون فى حياته وجود ذلك المنافس الخطير له : هنرى فيلدينج (١٧٠٧ - ٥٤) . كان فيلدينج من عائلة أرستقراطية أختى عليها الدهر ، فاشتغل كاتباً بالأجرة ، وألف نحواً من عشرين كتاباً تدين بنجاحها إلى موضوعاتها الخطرة .

ونجاح رتشاردسون هو الذى دلّه على طريقه ، فلقد ضاق برواية پامبلا ، وأزعجه مذهب الطهر المقيّد ، فألف رواية بعنوان « جوزيف أندروز » : هى قصة خادم شاب تحاول سيدته أن تغريه ، فيولى هاربا ، ويمضى يطوف بانجلترا بصحبة قس شهيم يدعى آدمز ، ويتزوج أخيراً بفتاة ريفية تحبه حب شبق .

وقد عارض فيلدينج رواية « كلاريسا » برواية « توم جونز » ، وهى تعالج نفس الموضوع ولكن بدون عنصر مرضى هى : قصة فتاة عنيفة متمردة اسمها صوفيا تهرب من بيت أبيها خلاصاً من زواج كرية ، وتمضى للحاق بحبيبها الشاب توم ، وتلقى فى سبيل ذلك كثيراً من العناء ، إلى أن تعثر عليه .

والشاب لفيط فقير يعيش حياة اندناعية ، يطلق العنان لغرائزه ، ويمتاز بأنه على جانب من الجمال ، وينتهي الأمر بأن تزوجه صوفيا .

لقد كان تأثير رتشاردسون في عصره من القوة بحيث لم يستطع فيلدينج أن يتحرر منه . وقد كتب تحت هذا التأثير رواية « أميليا ، وهي رواية عائلية بورجوازية عاطفية تحتوى على مشاهد قوية تجرى في السجن لسكنها تخلف في النفس شعوراً بالضيق والحرج .

مهما يكن من أمر فإن أحسن آثار فيلدينج رواية « توم جونز ، وهي رواية قوية التأليف جيدة الأسلوب . هذا إلى فكاهة جذيرة بمولير ، وكان فيلدينج يقضى « آلاف الساعات ، في صقل أسلوبه وتحسينه ، ولكن يجب نعترف بأن ليس بين شخصياته شخصية واحدة أسرة حقا . . أضف إلى ذلك أن فيلدينج يسرف كثيراً في إحكام التأليف ، فكأننا يازاء مجموعة من العجلات كل منها ضرورية للأخرى ليم سير الآلة . وفي رأبي أن أمتع ما فيها استطراد لا يمت بصلة إلى مجرى العقدة ، وهو الذي يحدثنا فيه عن رجل الراية ، ذلك العجوز المبعض للبشر ، الذي يقع عنده توم جونز وهو يضرب في الأرض .

ومن دفعهم نجاح رتشاردسون إلى دخول الحياة
الادبية دفعا، الكاتب الايقوسى سمولت (١٧٢١ - ٧١) :
كان طبيبا فى البحرية، ولم يكن على جانب عظيم من
الثقافة، ولكنه كان ينعم بخيال خصب، وقدرة على
الملاحظة العميقة النافذة. كان قد لقي فى حياته عددا كبيرا من
الحمق والمجانين والسخفاء واللصوص، وتلك هى الشخصيات
التي صورها فى روايته الاولى «رودرك راندم» التي يمكن
أن تعد فى جلها ترجمة شخصية لصاحبها. وكان يقتنى أثر
الرواية البيكارية (حتى لقد ترجم جيل بلاس) وجميع
أبطاله تقريبا تميل نحو الكاريكاتور، وقد سماها بأسماء خاصة :
لاقمات، پوشيون، كراب. وتكثر فى روايته المشاهد
الفضة والمسخرات الغليظة، وقد رسم بعض نماذج البحارة
الانجليز، مثل أوكم الحشن المشثوم، فى دقة بالغة تجعلهم
يحيون أمامك .

إن رواية «رودريك راندم» هى أحسن كتب هذا
الكاريكاتورى العبقري، ذلك أنه عاشها تجربة حية. أما روايته
الثانية «بيربجورين بيكل» فإن الخيال يحتل فيها مكانا أكبر
وليس فيها مافى الاولى من قرب من الواقع، وقد حاول

سمولت أن يكتب رواية بالرسائل نسجا على منوال
رتشاردسون وطمعا فيما ناله من مجد وشهرة ، فأخفق
المسكين إخفاقا يستحق الرثاء .

ولنتحدث بعد «همفري كلينكر» عن ستيرن (١٧١٣ - ٦٨)
إكليركي شاذغريب تقضه مسألة الجنس وجسد المرأة . كان
يكي إذامات حمار ، ثم لايبالي أن يدع أمه تعافى آلام الفاقة
والعوز . وقد ألف خطبا ومواعظ جميلة كثيرة ، وكتب تقليدا
لمعاصرة رواية بعنوان «حياة وآراء تريستام شاندييه» . لإنها رواية
لا أول لها ولا آخر ، ولا يظهر بطلها إلا في الفصل الخامس ،
بل قل إننا لانراه إلا بعد عشر فصول ، لأن الحديث في
أثناء ذلك يدور حول العم توبي . هي مناقشات لاتنتهي حول
تعميد الطفل الذي يموت في رحم أمه قبل أن يولد ... أو هي
دراسة طويلة لقوانين الحرمان السكنسي . . أو هي أيضا
كتاب في فن الولادة . ويسكر ستيرن من الشعوذة ، فهذه
فصول بيض ، وهذا فصل مؤلف من كلمات مكررة المقاطع
وأصوات مشوشة ، وهذا فصل لا يحتوي إلا على كلمة «أسفا»
مكررة بأحرف ماتزال تكبر ، وهذه مواعظ واستشهادات
فرنسية ولاتينية وأغنيات وهو من حين إلى حين يشجع

قارنه ساخراً على الاستمرار في القراءة ، وفي نهاية الباب السادس يصرح بأنه سيدخل في موضوعه .
وهذه الرغبة في التقليد هي التي دفعته أيضاً إلى تأليف كتابه الثاني « الرحلة العاطفية إلى فرنسا » . ينسى ستيرن أن يصف لنا كاتدرائيات فرنسا . ثم هو يحدثنا طويلاً عن زرزور في قفص . . . وليس يعنيه أن يشهد ارتقاء الملك للعرش ، ثم هو يعنى كل العناية بوصف إحدى خادמות الفنادق ، بوصف كيس من الساتان أو قرط من الفضة . أما لماذا نجح ستيرن : هذا النجاح كله ولماذا يولى الآن كل هذه الأهمية ا فذلك يرجع إلى شعوره المرهف الحساس . إن قدرته على تحليل أبسط الخلجات الانفعالية ، والتقاط أسرع الخطرات الفكرية وفضح أخفى الرغبات التي تنبثق من أعماق الشعور ، ثم رقة العاطفية الممتزجة بالسحر ، مع فكاهته الخالوة ، وموسيقى عباراته كل ذلك يثير فينا الإعجاب ويعطفنا إليه عطفاً شديداً .

٢ — كتاب المقالة والمؤرخون والمفكرون

من الأحكام المدرسية الشائعة أن صموئيل جونسون (١٧٠٩ — ١٨٤) هو سيد الأدب الانجليزي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر :

رجل ضخمة الجثة ، مصاب بداء الخنازير ، أعور ، نصف
أطرش ، له كتفان أشبه بكتفي الثور ، ومزاج أشبه بمزاج كلب
حاد . كان يجلس في المقهى يتحدث إلى الفنانين والشعراء
الملتفين حول عرشه ، فيبهروهم بوحشية أحكامه ، وغزارة
اطلاعه الهائل . . إلا أن كتابة جونسون ، إذا كتب ،
أشبه بالجمعجة . وقد ألف مآسى ضعيفة وقصة شرقية
بعنوان « راسلاس » ، وأصدر عدة صحف من طراز
سيكتاتور . وكان عصره يضيق بهذه المؤلفات ، ولكنه كان
من فرط خوفه منه لا يجروء على الاعتراف بذلك . وقد خدم
جونسون الأدب بقاموسه أكثر مما خدمه بمؤلفاته الأدبية .
فقد ساهم هذا « القاموس » في تثبيت معالم اللغة ، ومنعها من
الإسراف في التفرنس . ومع ذلك فإن هذا القاموس ليس
ثمرة عمل هادىء متأن . فما أكثر ما فيه من أخطاء .

أما في النقد . فقد كان جونسون متحيزاً في أحكامه
لا يرى من الأمور إلا جانباً واحداً . وقد نعت شكسبير
بالخروج عن الأخلاق . وعاب عليه أنه لم يلتزم الوحدات .
على أنه قد اعترف له بالعبقرية ! . ومن مؤلفاته « حياة

الشعراء، وهو كتاب ذو قيمة تاريخية ثمينة، وقد عاقت أحكامه الاطلاقية ازدهار الأدب السابق للرومانطيقية .

ولم يذع كتاب من كتب جونسون ذبوع ذلك الكتاب الذى ألفه عنه صديقه بوزويل عام ١٧٩١ . فجمع أحكامه الغريبة ونكاته وآراءه ، وروى حياته رواية حيادية . وإنك لتستشف عند بوزويل شخصية قوية ونفاذاً فى التحليل النفسى . وقد جاء نشر مخطوطاته فى المدة الأخيرة مصداقاً لذلك .

ومن اختلفوا إلى ندوة جونسون، وأصابوا شهرة ذائعة ، ذلك الإيرلندى جولدسمث (١٧٢٨ - ٧٤) : بوهيمى لطيف ، كان قسا مبتدئاً ثم أصبح طبيباً ، فدرساً ، فكاتبا بالأجرة . وقد طاف أوروبا بامثردا ينام على البيادر ، ويعزف للناس على الناي تحصيلاً لقوته . واستطاع أخيراً لكثرة ما كتب من المؤلفات التبسيطية أن يحقق حلمه الأكبر وهو أن يستطيع التأق فى ملبسه . ونجمه الآن فى أفول . ولن يبق من مؤلفاته الكثيرة إلا بعض مقالات كتابه « مواطن العالم ، (مثل رسائل ضيئية ، على طريقة مونتسكيو) ثم قصيداته « المسافر ، و « القرية المهجورة » وهما قصيدتان تعليميتان

تتمازان بطابع كلاسيكى كامل وتتصفان بنوع غامض من
الكتابة ولا يفسدهما إلا شيء من التكلف في « التخيير
الشعرى » ، ثم رواية ريفية صغيرة بعنوان « قس ويكفيلد » ،
كتبت بأسلوب ناعم عذب ، ويقروها المرء بسهولة محبة ،
إلا أنها للأسف تنتسب إلى أكذب وأخطر أنواع الرواية ،
أعنى الرواية الخيالية الباكية التى إن كانت تحتل فى قصص
الجن فإنها لا تطاق فى أوصاف الحياة الواقعية ، فإن العناية
الإلهية فيها تجزى الفضيلة دائماً وترد الأشرار إلى الخير وتمنح
الآنسات العاطفيات أزواج أحلامهن ، وتمنح القسس المجدين
المال الذى يسعدهم .

وقد رأينا بعد ذلك عددا كبيرا من الروائيين يضربون
على هذه النغمة السخيفة وينشئون أدبا عاطفيا كاذبا يسود
خلال قرن كامل .

والحق أن جولدمسحق العظيم هو جولدمسحق
الدرامى الذى سنتحدث عنه .

والأدب السياسى فى هذا العصر وافرغزير نذكر منه أول
ما نذكر (رسائل جونوس ١٧٦٩) التى يشيع فيها حب قوى
للوطن والحرية - وقد أعقبتها خطب بيرك العظيمة

(١٧٢٩ - ٩٧) وصاحبها عدولود للثورة الفرنسية .
وفي هذه الفترة أصبح التاريخ علما . وليس حظ الفلسفة
في هذه الفترة بأقل من حظ التاريخ حتى لقد استحق هيوم
(١٧١١ - ٧٦) أن يسمى ديكارت إنجلترا . وفي هذه الأثناء
كان آدم سميث (١٧٢٣ - ٩٠) من جهته ينادى بأن العمل
منبع الثروة . وأخيراً فإن الأدب اللاهوتي في هذا العصر
ليزهو بمواعظ جون ويزلي (١٧٠٣ - ٩١) التي تقع في اثني
وثلاثين مجلدا .

وهناك طائفة من الكتاب يبق علينا أن نذكرها الآن ،
أعني طائفة كتاب الرسائل . وفي الصف الأول من هذه
الطائفة يأتي تشسترفيلد (١٦٩٤ - ١٧٧٣) الذي يتألف
من رسائله إلى ابنه ، كتاب في الوصولية المحيية القائمة على
الإغراء الشخصي - ثم هوراس والبول (١٧١٧ - ٩٧)
وهو من هواة الأسلوب الجوتي العالمي ، وكأني به بواباً
منثقاً يروي بروح فنية شئون صالونات باريس ولندن صغيرها
وكبيرها - وفي هذه اللحظة نفسها رأينا عددا كبيرا من
السيدات يكتبن على غرار سيشينييه مثل مسز موتاجيو (١٧٢٠)

(١٨٠٠) ولادى موتاجيو (١٦٨٩ - ١٧٦٢) التى
كتبت إلى ابنتها من إيطاليا رسائل تفيض بالشر ولكنها
تفيض أيضا بالأدب . . .

٣ - المسرح

إن الناس يكثر من التردد إلى المسرح فى نهاية القرن
الثامن عشر . ولكنهم يعنون بالممثلين أكثر مما يعنون بالتمثيلية .
إنهم يشغفون بمسز سيدنز أو بجاريك أكثر مما يشغفون
بشيلوك أوديدمونه . على أننا لا يسعنا إلا أن نقتبط بنجاح
بمثل مثل جاريك الذى أحيى مسرحيات شيكسبير .

وقلّ أن نجد بين إنتاج هذا العصر مسرحيات أصيلة .
وكانت المودة الشائعة إذ ذلك هى مودة الملاهى الفكاهية
المؤثرة معا ، مثل مسرحية « بنت الطاحونة » من تأليف اسحاق
بيكر ستاف (١٧٦٥) ، وكذلك الملاهى الهجائية التى تسخر
من العاطفة ، مثل « پولى هانيكومب » من تأليف جورج
كولمان (١٧٦٠) .

ونستطيع أن نقول بأنه ليس هناك إلا مؤلفان مسرحيان :
جولد سميث وشريدان . أما جولد سميث فقد كتب ملهاة

تعد من عيون الأناز الهزلية التي تثير فيك الضحك الصريح والمرح البريء ، أعني مسرحية « تمسكن لتمسكن » (١٧٧٣) . إنها تدور حول ذلك الموضوع المضحك دائماً ، موضوع الفتاة الجريئة التي تحاول أن تنتزع اعترافاً بالحب من رجل خجول : وتظفر بذلك بواسطة سوء تفاهم طريف : يلقون في روع الخجول أن البيت الذي تعيش فيه الحسنة هو فندق من الفنادق . ثم نرى الخجول يعامل الناس بتلطف وتظرف ، ويغازل تلك التي يريدونها خطيبة له وهو يظنها خادمة . ونرى الفتاة تقبل أن تقوم بهذا الدور . إنها تمسكن بإرادتها حتى تتمكن من الحصول على زوج . ومن هذا الموقف الغريب ينشأ عدد من حوادث سوء الفهم والتورط يستشير فينا ضحكا لاسيلا إلى مقاومته .

أما شريدان (١٧٥١ - ١٨١٦) فهو أقل هزلا من صاحبه ولكنه ألطف فكاهة ، ومع ذلك فإنه يعرف كيف يضحك وكيف يضحك . أليس إيرلانديا كصاحبه جولدسميث سواء بسواء ؟ وما محمد لشريدان أنه لم يدع نفسه يتسمم بجو الصالونات ولا بجو الحياة السياسية (لقد أصبح عضوا للبرلمان وسكرتيرا للدولة) فزاه يسخر من التكلف والتحدلق والإمعية

سخرأ لطيفا (المتنافسون) كما أنه هزىء هزءاً مرأ بالأدباء (الناقد) ، وكان قاسياً وحشياً مع المنافقين والمرائين . وأحسن آثاره «مدرسة الفضيحة» وفيها يصور لنا «ترتوفا» انجليزيا باسم جوزيف سيوفيس ، يحاول أن يؤدي بأخيه تشارلز ، المبذر ولكن المستقيم ، إلى الدمار ، وأن يسلبه خطيبته لأنها غنية وإنك لتجد في هذه الملهاة من قوة الحبك وإحكام تسلسل العقدة وجمال المحاورات ما يستثير إعجابك الشديد ويتغلب على روح النقد عندك . حتى لقد ظل هذا الأثر لا يضاھيه أثر آخر خلال قرن كامل .

٤ - الشعر السابو على الرومانطيقية

الحق أن التيار الرومانطيقى لم ينقطع عن التفرق في أعماق الشعر الانجليزى الجيد . ففي اللحظة التى كان فيها شعر بوپ سائداً ، كان جيمس تومسون الإيقوسى (١٧٠٠-٤٨) ينشر أشعاره «الفصول» حيث يتصفح وجوه الطبيعة ويتغنى بها . ولئن كانت طريقة نظمه للشعر كلاسيكية ، وكذلك المعالم الأسطورية فى آثاره ، فلقد أحس بجمال الأرض التى نشأ فيها ؛ فصور لقراءه الثلج فوق الروابى ، والسيول تقفز بين الصخور ، والرياح تهب من الشمال باردة سهوجاً . وقد

نظم بعد ذلك بعدة سنين قصيدة قصيدة طويلة بعنوان « قصر
التشاغل ، التفت فيها نحو القرون الوسطى .

ولبس |تومسون الوحيد في هذا العصر ، فهناك أصحاب
مدرسة الحديقة والمناظر الطبيعية الذين ينسجون على منوال
پوپ ، وهناك مدرسة الحالمين الذين كانوا يحبون الطبيعة لذاتها
ولما توحى به إليهم من أفكار .

أما ولیم كولنز (١٧٢١ - ٥٩) فهو شاعر جاف بطيء .
صعب ، وقد استعاد اليوم شيئاً من الشهرة . ولولا أنه قصير
النفس ، ولولا أن القدماء سيطروا عليه سيطرة حبست فكرة
في نطاق القصيدة (ode) الضيق ، ولولا أنه أسرف في
استعمال التشبيهات الأسطورية ، لكان شاعراً عظيماً . علي
أنه قد استكشف في قصيدته عن الخرافات الشائعة في
« ايقوسيا » ينبوغاً شعرياً جديداً . كما أنه استطاع في قصيدته
« المساء » ، وهي خير قصائده ، أن يصور لنا ، بخفة جرس الالفاظ ،
جمال الشفق وفتنته وذلك الشعور الغامض الذي يداخل النفس
إذا اقترب الليل .

وهناك جرای (١٧١٦ - ١٧٧١) ، وهو يكمله ويفوقه ،
وأهم قصائده « مرثاة كتبت في مقبرة ريفية » . وإليها يرجع

الفضل فيما حصل عليه من شهرة . وهى تبدأ بمقاطع تكاد تكون من شعر لا مارتين . ولكن خاتمة الرواية ليست للأسف إلا نظماً لذلك الموضوع المتبدل ، الشائع فى الشعر التعليمى ، أعنى موضوع تساوى البشر أمام الموت . غير أن المجموع رغم كل شىء على جانب من الجمال ينسينا القصائد التى يحى فيها جرای خرافات الماضى ويكشف عن الأساطير الاسكندنافية . والحق أن جرای يمكن أن يعد مهدا بل رائدا . فقد رسم الخطوط الأولى لسكبريات الموضوعات الرومانطيقية : كالمقبرة ، والشعر البدائى والشعبى ، وحياة صغار الناس .

وقد استولى الرومانطيقون على « الليالى » التى كتبها يونج (١٧٤٢ - ٤٥) واتى أسكبت كثيرا من الدموع حزنا على حظ هذا الشاعر العس الذى يدفن ابنته بيديه فى ليلة ظلماء لأن سكان مونبليه القساة رفضوا أن يمنحوه مدفنا ما دامت الميتة بروتستانتية . وكان هذا كله أسطورة من صنع الخيال ، إلا أنها أسطورة لا تخلو من عاطفة صادقة ، وقد تأثرت القارة الأوروبية بها تأثرا عظيما .

لما سمع ما كفرسون الايقوسى الأساطير الجائلية القديمة ، أعجب بروحها الوحشية . وأدرك أنه يازاء ثروة يمكن

استغلاها ، فأعلن للبلا أنه أكتشف مخطوطات قديمة ،
وأخذ ابتداء من عام ١٧٦٢ ينشر مترجمات مزعومة للشاعر
السلتي أوسيان . وقد أثر نثره الموقع الخشن في أوروبا كلها ،
وأثار إعجابها به ، بل حماسها له ، حتى أصبح أوسيان
موضوع عبادة وتقديس .

وكان لما كفر سون أنداد . فهذا شخص اسمه ايرلاندا
يزعم أنه اكتشف مسرحية مفقودة من مسرحيات شكسبير
ويدفع بها إلى المسرح . وهذا الفتى تشارتون يؤلف بعض
النصوص ، ويزعم أنها من القرن الخامس عشر . وإلى جانب
هؤلاء المزيفين يجب أن نذكر الأسقف پرسی الذي نشر فعلا
بأمانة ، في عام ١٧٦٥ ، مخلفات من الشعر الانجليزى القديم التى
كشفت للناس عن كنوز من شعر الماضى .

ثم كان طبعيا أن يكون هذا الميل إلى البساطة وهذه
العودة إلى الأصول البعيدة مصحوبين بميل قوى إلى الشعراء
الذين كانوا يتحررون من سلطان الصالونات ويفيتون إلى
الأرض . ومن هؤلاء الشعراء كراب ، وهو ابن فلاح ، وقد
نظم فى هموم الفقراء وأمراضهم وآلامهم ، واستحق أن
ينعت بالواقعى (القرية ١٧٨٣) . ولكن آثاره تتصف

برودة موضوعية فلا تستثير فينا الشفقة .

وهناك كوبر (١٧٣١ - ١٨٠٠) . وهو شاعر لم يخلق شاعرا وإنما نظم الشعر ليشغل فكره ويتفادى خطر الجنون . قضى الشطر الأعظم من حياته في بلد بالريف على ضفاف الأنهار المنسابة ببطء ، وفي المراعى تحت أشجار الصفصاف . كان يهرب من الناس إلى أقصى حد . ولعله غالى في تصور مفاصد المدينة وانحطاطها وتفسخها . ولكنه أول من صور الطبيعة تصوير فنان ، فأرانا الشمس تعبت بالغباء ، وأسمعنا صوت جناح اليمامة وهى تطير . وأكبر قصائده « المهمة » . وهى قصيدة جميلة ليس يفسدها إلا اهتمام بالتعليم وتطرف فى الدين . إلا أن فيها أوصافا خالدة . ولأول مرة منذ زمن بعيد نرى فى قصيدة من الشعر نفسا معذبة صوفية تقضها أحزان غامضة .

وهناك بيرنز (١٧٥٩ - ٩٦) ، وهو أقل عمقا من صاحبنا ، إلا أنه يمتاز بروح الاستقلال والميل إلى الثورة ، الأمر الذى أعوز ذلك المتوحد المنعزل . هو فلاح إيقوسى ، ثقف نفسه بنفسه ، وكتب بلغة الأرائضى الواهية التى تسمع فيها هبوب الريح وهطول المطر . وقد أكسبته الطبيعة الواهية حشوة

حب الحرية : حرية الروح فسخر من التقاة الورعين
والكهنة المنافقين والآلهة المرعبين ، وحرية الجسد فتغنى
بالهوى الجارف والصرخة التامة . كان يكره كل غموض . .
ومن قصائده قصيدة بعنوان «المتسولون المرحون» وهي نشيد
نغم وتحد وقح للمواضعات الاجتماعية .

ولئن ظل بيرنزه على الأرض فإن معاصره ولیم بلیك
(١٧٥٧—١٨٢٧) حاول أن يهرب منها . كان شاعرا ورساما .
ولقد عاش في عالم صوفي ، فكان يكتب أو يرسم في الليل
ما تميله عليه الأرواح . كان أشبه بالبدايين والأطفال يخلق
الأساطير ويؤمن بمخلوقات خياله . وقد أوجد لنفسه ديانة
خاصة غامضة رمزية . ومن أهم آثاره «أغاني البراءة» وهي
أغنيات طفولية قصيرة جميلة ، تفيض بالفرح النقي والطيبة
البريئة — و «أغنيات التجربة» ، وفيها يشيع شيء من الألم
إذ تصور فرح الطفل تقتله القوانين الاجتماعية والدينية .
ولا أعرف أحدا طوَّف في عالم الهلوسة والحلم بأيسر مما
فعل بلیك .

الفصل الحادي عشر

الشعر الرومانطيقى

٦ - الجيل الجديد : الإرتوذكس

يطلق اسم شعراء البحيرة على ثلاثة شعراء رومانطيقين نظموا أحسن قصائدهم في بلد البحيرات (كبرلانند) . وهم مختلفون بعضهم عن بعض في العقلية والموهبة . ويجمعهم أنهم كانوا ثواراً متمردين ثم سرعان ما أرتدوا عن حماسهم وقاموا إلى الدين وإلى المجتمع .

أولهم ديردسورث (١٧٧٠ - ١٨٥٠) . عاش طفولته في بلد البحيرات ، فأيقظ ذلك في نفسه تذوق الجمال ومحبة الطبيعة ، وكان منذ لحدائه سنه يميل إلى السفر مشياً على الأقدام ، ويحب الوقوف طويلاً أمام الشمس أثناء الغروب . وكان في إبان دراسته في جامعة كامبردج يفكر في الشعر أكثر مما يفكر في دروسه . وكانت الشكوك الدينية التي تساوره تمنعه من دخول الكنيسة . وسافر إلى فرنسا أيام كانت فرنسا

تتمنح عن مولودها الجديد (١٧٩١). وتعرف في مدينة بلوا على صبية فرنسية أسماها آنيث فالون ، وقد أنجبت منه طفلة ، فاعترف الشاعر بأبنته واحتضنها ، ولكنه لم يصلح غلظته .

ثم رأى من الحكمة أن يعود إلى إنجلترا ، وعانى في إنجلترا فترة من الترقق والقلق . فضميره يخزه على سوء تصرفه مع آنيث ، ثم يؤلمه أن يرى الثورة تغرق في الدم . ولسكنه استعاد هدوءه شيئاً فشيئاً . فقد استطاعت أخته دوروث أن تصلح من حاله ودينه بالتدرج ، وأن تبث في نفسه شيئاً من الراحة والطمأنينة . كما أن صديقا له غنياً ترك له مبلغاً من المال ، فاستطاع أن يعيش في الريف حياة بسيطة خالية من الهموم .

وفي عام ١٧٩٧ تعرف إلى كولردج ، ونشر الشاعران ديواناً مشتركاً بعنوان « قصائد غنائية » ، وكان لويردسورث في هذا الديوان نصيب الأسد . وفي هذا الديوان أصبحت « أنا » هي الموضوع الأساسي . لقد ولد الشعر الرومانطيقى وقد شرع ويردسورث بعد ذلك في نظم قصيدة فلسفية أراد أن يتغنى فيها بأفراح الحياة اليومية ومزايا الوحدة

والاتصال بالطبيعة . ولم ينظم من هذه القصيدة إلا جزأين « التمهيد » و « الرحلة » . وأهم هذين الجزأين هو « التمهيد » حيث يحدثنا ويردسورث عن تطور حياته الروحية . وأخذ شاعرنا يعيش حياة هادئة متشابهة تتخللها بعض الأسفار إلى ألمانيا وإيقوسيا ، وإلى إيطاليا وفرنسا بعد ذلك . ثم استقر في مراتع طفولته بإقليم البحيرات ، وهناك إنما ألف خير آثاره .

ثم انتابه نوع من الجمود الفكرى فاذا هو يحطم ما كان يعبده ، فيصبح ألد أعداء الثورة ، ويرتد أرثوذكسيا أخلاقيا محافظا ، وهنا تنهال الأجماد على رأسه كالطر ، ويجيا شيخوخة طويلة لا يكف فيها عن تأليف ذلك النوع من الشعر الأخلاقى المؤثر الذى هو للشعب الانجليزى كالجزر للحمير على حد قول ادموند جوس .

ومن الأفضل أن ننسى ويردسورث الشيخ فما نتذكر إلا ويردسورث الشاعر الشاب الذى كان أول من عرف تلك اللحظات من الوجد التى لا يكون بدونها شعر غنائى عظيم . على ويردسورث يتنعف حين يدع الطبيعة ليتحدث عن الإنسان ، فلا يس فى أثنائه شيء من الجدة . ولئن استطاع أن يفهم قيمة

الأشياء الطفيفة ، فإنه لم يفرق دائما بين الطفيف والعامى .
ومن أحسن آثار ويردسورث قصائده القصيرة التي تميل
إلى البلاد الشعبية حيث يستطيع الابتعاد عن البساطة المزيفة ،
مثل «لوسيا» ، «الحصادة المنزلة» . الخ . أما حين يحاول
أن يعظ فإنه لا يطاق . وذلك في مثل قصيدته « بيتر بل »
وهي قصة حمار مخلص وسيد خبيث . ومن آثاره «سائق العربة»
وهي قصة حصان نشيط وسكير محب . إن المؤثر في مصير
ويردسورث أنه ولد ذئبا ومات كلبا .

وستان بينه وبين كولوردج (١٧٧٢ — ١٨٣٤) من
حيث قوة الروح ؛ كان كولوردج على جانب كبير من القلق
والاضطراب فلم يعطنا كل ما كان في وسعه أن يعطيه . لقد
كان موهوبا في الشعر والفلسفة والنقد جميعا .

ولقد نصب معين الشعر في نفسه فجأة وهو لما يزل في
السادسة والعشرين من عمره . ولم يستطع بعد ذلك أن
يتصل مرة واحدة بذلك الوحي الشعري المتدفق الذي يدين
له بقصائده : « نشيد فرنسا » ، « البحار العجوز » ، « كريستابل »
« كوبلا كان » (حتى أن هاتين القصيدتين الأخيرتين لم
تكتملا) . ولم يكتب كولوردج بعد ذلك الا نثرا . وقد قرأ

الميتافيزياء الجرمانية فأساء هضمها وتمثيلها . ولكنه من حيث هو ناقد أدبي يعد في الطليعة الأولى ، ولا سيما حين يتحدث عن حياة مخلوقات شكسبير ، هذه النفس التي تحتوى على ألف نفس . وإنما أفسد عليه حياته سوء صحته فقد كان يشكو التهابات حادة وآلاماً عصيبة لا تطاق فكان يلجأ إلى الأفيون محاولاً أن ينسى آلامه . وظل بعد ذلك عشرين سنة يعالج الخلاص من سموم الأفيون . وسرعان ما أصبح الألم الجسمي يمنع عن كولردج ذلك الهدوء الضروري للشعر .

قصائده أحلام غريبة في الغالب . فإذا قرأت قصيدته كريستال فقد دخلت في جو من الليل وضوء القمر الشاحب ، وأحسست أنك في قصر مسحور ، أو في غابات سرية ، بين كائنات خفية مرعبة .

وقصيدته الأساسية الثانية أعني « البحار العجوز » أشبه بحالة من الهلوسة . ولئن كانت موسيقاها مجلجلة ، فإن هذه الجلجلة تساعد أكثر من غيرها على تصوير النوفى ذى اللحية البيضاء الطويلة والعينين البراقتين وهو يروى رحلته المرعبة في بحار النار وسط مائتي جثة من جثث الموتى .

إن كولردج لم يحتل بعد في الشعر الإنجليزى المكانة التي

يستحقها ، وفي رأى أن مجده سيزداد مع الزمن علواً .
وثالث شعراء البحيرة هو ساوذى (١٧٧٤ - ١٨٤٣)، وهو
شاعر عادى، كان فى أول أمره ثورياً عنيفاً ثم اعتدل. وكانت
ثورته عنيفة بقدر ما أصبحت محافظته عدائية هجومية . وقد
تأثر بألف ليلة وليلة ، وبالأساطير الهندية ، فكتب قصائد
قصصية طويلة مثل «تالابا» و «لعنة كيهاما» ، وهما قصيدتان
لا يعوزهما إلا شيء واحد : الشعر . وأحسن آثاره مقطوعات
صغيرة مثل « برج الأسقف هاتو » وغير ذلك مما تلقفه
المختارات الشعرية المخصصة للتلاميذ .

وتعد آثار والتر سكوت الشعرية قريبة جداً من آثار
شعراء البحيرة . وقد أصابت فى حينها نجاحاً عظيماً . وخير
ما يمتاز به أنها صورت جمال إيقوسيا القديمة تصويراً حياً ملوناً .
إلا أن له حكايات شعرية عملة مثل « أغنية المنشد الأخير »
« ومارميون » « وغادة البحيرة » . إن أشعار سكوت حين
تقرأ بكلمات صغيرة ، ولا سيما المقاطع الوصفية ، ماتزال تجد
سيلاً إلى القلوب ، أما إذا قرأتها بكلمات كبيرة شعرت
برتابه عملة لا تطاق . لقد أحس سكوت نفسه أن عبقريته
الحقيقية ليست فى الشعر .

ونستطيع أن نذكر من صغار هؤلاء الشعراء الرومانطيين
مسز هيانس (١٧٩٣ - ١٨٣٥) التي عرفت كبف تصنع
موهبتها في تناول الأطفال - ثم كامبل (١٧٧٧ - ١٨٠٤)
شاعر البحارة والجنود - ثم روجر (١٧٦٣ - ١٨٥٥)
وهو مرفه الروح ولكن ردىء النظم - وأخيرا
وخاصة توماس مور الذى نسى الآن ظلما وأهم آثاره « الحان
إيرلاندية » ، وهى مزيج من الموضوعات الوطنية والموضوعات
العاطفية .

٢ - الجيل الثانى النأرون

أولهم لورد بايرون ، وهو الوحيد الذى طبقت شهرته
الآفاق فى أول الأمر . أما الآخران شيلى و كيتس ، فلم تقدرهما
إلا صفوة صغيرة من الناس . ولكن شهرتهما تزداد يوما بعد
يوم ، بينما يميل نجم لورد بايرون إلى الشحوب .

لورد بايرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤) : وهبت له الأقدار وهو
فى مهده كل ما يوهب لامرئ من جمال ونبل وثروة ، ولسكنها
وهبت له أيضا قدما عرجاء ، وكبرا عجيبا شاذ لقد كان بين
أجداده مجانين وفجرة ، فاعتقد أنه لا بد مطبوع على هذه الخلقة .

فها هو ذا يصرح أنه برم بالحياة وضاق بها وملها قبل أن يكون قد عاش الحياة ، وهاهو ذا يرحل إلى اسبانيا وتركيا وهو في في مستهل شبابه .

وكان إلى ذلك الحين يتبع في مؤلفاته خطى بوب ، ومن آثار شبابه « أسفار اتشيلد هارولد » ، (١٨١٢) وهو يروى في النشيدين الأولين من هذا الكتاب قصة أسفاره ، ويعرض كتابة نفسه ، ويضرب على أوتار غريبة غير متوقعة . ولقد كان من شأن هذا الكتاب أن أطار سمعته في الآفاق . ونشر بعد ذلك طائفة من المؤلفات كانت تزيد شهرته وتعظم من أمره ، منها « الكافر » ، « عروس أيدوس » ، « لارا » و« حصار كورينث » . وأبطال هذه الروايات جميعا واحدة : شخصيات عظيمة تنوء بحمل جريمة خفية تسبب ذكراها لذة مرة — ثوار يكافحون المجتمع . . .

وهناك جريمة لم يكن بايرون يجرؤ على تذكرها إلا كخيال مرعب فظيع ، أعنى نكاح المحارم . وقد ارتسب بايرون هذه الجريمة بالفعل ، تدفعه إليها رغبة مرضية عنيفة في اقتراب هذا الخطيئة الكبرى التي لا تغفر . فمن عام ١٨١٣ عقد بينه وبين أخته أو جوستالي صلوات إجرامية حتى أنجبت منه

طفلة . وبعد ذلك بستين تزوج فتاة نبيلة المحمد ظنت أن في
وسعها أن تحيل زوجها إلى إنسان طيب :

وأبي بايرون إلا أن يعرض مخازيه ، وقام الناس في إنجلترا
وقعدوا يستنكرون الجريمة الكبرى ، فما كان من بايرون إلا
أن أبحر في ذات يوم من ابريل سنة ١٨١٦ إلى القارة الأوربية
فطاف في بلجيكا ، وأقام مدة في سويسرا حيث التقى بشيللي ،
ثم استقر في البندقية بإيطاليا حيث جهد أن يدهش العالم
بضروب شذوذه وفنون مجونه . وفي تلك الفترة إنما ألف أحسن
آثاره : « سجين تشيلون » و « مازيبا » وخصوصا « ما فرد »
و « قابيل » و « دون جوان » . ولكي يلفت إليه انتباه العالم
مرة أخرى سافر بعد ذلك إلى اليونان ، لتحريرها ومات من
الحمل في ميسولونجى . وقد ألهه الرومانطيقيون تأليها لفرط
ما تأثروا بهذه الظاهرة الدونكيشوتية ، وفاتهم أن إلههم ليس
إلا كومة من الوحل .

ليس يخلد من آثاره إلا شيء قليل ! فكتابه أسفار اتشيلد
مارولد ، إذا استثنينا منه بعض المقاطع الجميلة كوداعه لبلده
ومسقط رأسه ، وقصة واترلو وغير ذلك ، أشبه بدليل منظوم
يسترشد به السياح في أسفارهم .

ولسكن «ما نفر د» ، هذه الدراماة الغنائية المستوحاة من جوته ،
فإنها تؤثر فينا تأثيراً قويا . وأما «قايل» ، هذه الدراماة الفلسفية ،
فهي أشبه بمقالة ضد الدين ؛ ولسكن بايرون ، في هذه المرة ،
يقدم لنا أبطالا فوق الطبيعة ، كما أن التطرف الرومانطيقى لا
يبدو مزعجا . وأما كتابه «دون جوان» الذى لم يكمل فإنه
تعبير عن السخرية المرة ، على طريقة فولتير ، التى تفوق حد
الثورة وحد الروح السلبية . إنك تجد فيه حروبا هزلية واحتقارا
لاحدله للبشر والأشياء ، وتقريراً لحماقة الإله . إنه أثر من آثار
القرن الثامن عشر . ليس بايرون شاعراً كبيراً فحسب ، إنه
«حدث أدبى» .

والآن فلتحدث عن كيتس (١٧٩٥ - ١٨٢١) : هو ابن
خادم فى اسطبل ، علم نفسه بنفسه ، وكان طالبا يدرس الطب .
خلف لنا آثاراً قليلة ، لأنه مات بداء السل ولما يزل فى
الثامنة والعشرين من عمره . ولسكن لئن كانت آثاره ضئيلة فإن
مجده لسكبير دائم . كان كيتس ، على حبه للحياة والخمر والحب ،
أهدأ ممثلى هذا الجيل من الثائرين .

تتلذذ كيتس على أكبر الأساتذة : الأليزابيثيين وملتون .
ولئن أعوزه التعليم فقد واته العبقرية . وعلى أنه كان يجهمل

اللغة اليونانية وكان مضطرا لقراءة التراجم والمعاجم فيما يتصل بالأساطير اليونانية ، فقد كان في عصره ، الوحيد الذى يحس الجمال التجسيى ، والوحيد الذى يتذوق الجمال اليونانى . ليست كل آثاره رائعة ، فكثيراً ما يعوزه الذوق ، ويكاد يكون قصير النفس فى كل ما أنتج ، وتدل «أنديميون» على أنه شاب عديم الخبرة ، كما أن فى أسلوبه أحيانا كثيراً من التكلف . ولكن إلى جانب ذلك ما أعظم هذا الغنى الحسى فى ألحان بان ، أو فى وصف نوم آدونيس ، أو فى أغنية الخريف . وقد كتب كيتس قصيدة ناقصة بعنوان «هاپيريون» أراد أن ينافس بها «الفردوس المفقود» ، وهى فى جملتها متكلفة ، إلا أن كيتس يبالغ فى بعض مقاطعها ، مثل احتضار التيتان ، أرفع ذرى الملحمة .

ومن أجل آثاره تلك القصائد القصصية القصيرة ، مثل «إزابيل» (وقد استمر موضوعها من بوكاشيو) و «ليلة سانت آجنس» و «لاميا» (وهى حكاية سحرية غريبة مستمدة من برتون) . إلا أن كيتس سيظل يعرف بأنه مؤلف ذلك الكتاب الرائع الذى يصور القرون الوسطى الفروسية الخيالية ، أعنى «المرأة الجميلة التى لاتشكر» ، وبأنه

مؤلف أناشيد جميلة موسيقية تنقلنا إلى آفاق من الفرح الصوفي،
مثل « نشيد الخريف » و « نشيد الهزار » .

لقد تذوق كيتس جمال الأشكال ، وجمال اللحم الحى ،
ولكنه كان يفكر دائماً رائحة الموت . لقد كان وثنيا . لقد
أحب العدم . لم تكن عواصف نفسه تثور على السطح بل في
الاعماق . إنه بأس هادى ، انصعاق تحدته رؤية الهوة السحيقة .
لم تكن لغة كيتس الشعرية فى مستوى أفكاره . غير أن
الأسلوب ينصقل مع مرور الزمن . ولو قد عاش كيتس أكثر
نما عاش . . . ولكن من يدري ! فلعل الحياة كانت تؤدى
إلى أفول مجده .

الفصل الثاني عشر

شيللى

١ - الرجل وآثاره



(شيللى ١٧٩٢ - ١٨٢٢)

لأن كنا نفصل شيللى عن جيله ، فلأنه ثالث فئة من
فهم الأدب الانجليزى بعد تشوسر وشكسبير .

لقد ظل شيللى يرتعش طيلة حياته ، يرتعش للظلم ، يرتعش للبغيض ، يرتعش للجمال ، يرتعش للحب ، يرتعش للنور . كان مؤمنا كره الدين ، وأحب الإنسان ، وعبد الحرية . كان في أول أمره واحدا من أمثال رينيه ، وسرعان ما ارتفع بعد ذلك فوق الرومانطيقه ، وفوق الكلاسيكية ، وفوق كل المذاهب ، ليحقق شخصيته الخاصة ، ويكون هو نفسه .

كان طفلا غريبا : كان يجلس إلى أخواته يقص عليهن قصصا مخيفة مرعبة ، ويطوف في أهباء المنزل يحمل إناء مملوء بالسوائل المشتعلة ؛ أو يمضى إلى لقاء ساحر مخفي في مكان مجهول ؛ ويسعد أنه يعيش خائفا من الحية الرقطاء العجوز التي كانت تسكن الحديقة . وكان في مدرسة ايتون ، بعد أن يقرأ أورايد ساحرات (ماكبث) يشعل السكبريت ، ويقرب منه مولدات كهربائية ، يحاول أن يستحضر الشيطان . كان يهتم بحكايات استحضار الأرواح ، ويكثر من قراءة الروايات المرعبة وأقاصيص اللصوص والعصابات . وبذلك كان ينسى استهزاء رفقائه منه ، إذ كانوا يسخرون من أبازيمه الذهبية ، وعينيه الزرقاوين ، وصوته الأثوى . وحين دخل جامعة أكسفورد تمتع هنالك بكثير من الحرية ، وأسرف

في هذا التمتع، وكان معجبا جدا بالثورة الفرنسية، وكتب كتيباً بعنوان « ضرورة الإلحاد »، لم يستقر في واجهات المكاتب أكثر من عشرين دقيقة، لأن السلطات الجامعية أمرت حالاً بمصادرته؛ وطرد من الجامعة وهو في الثامنة عشرة والنصف من عمره، فوجد نفسه يحمياً في لندن شريداً، ويتعيش من دراهم أخواته اللواتي كن يقتطعنها من مصروفهن اليومي. وكان لأخواته صديقة اسمها هاريت ويستبروك أظهرت إعجاباً شديداً جداً بشخص شيللي، وبآرائه، فكتبت إليه، وشاء سوء حظها أن تقع رسالتها في يد الناظرة، فطردت من المدرسة. إلا أن شيللي كان جريئاً، فلم يتردد بل انتشل هاريت، ومضى بها إلى إيقوسيا، حيث الزواج سهل، وتزوجها في ادنبرج. ولم يكن مجموع سني العروسين يتجاوز خمسة وثلاثين عاماً...

وفي عام ١٨١٢ سافر العروسان إلى دبلن، ثم لم يلبثا أن عادا إلى لندن واستقرا فيها. ولكن على قدر ما كانت هاريت تغور في عالم المادة كان شيللي يعلو ويغيب في السحاب. وتبدد الحب. فانفصلت هاريت عن زوجها. ولم تكتف بذلك، بل عقدت صلات مع غيره، وبذلك جعلت التفاهم مستحيلاً.

وفي أثناء ذلك كان شيللي يزداد افتتاناً الفتاة الصغيرة ماري، ابنة الفيلسوف جودون وفي عام ١٨١٤ مضى بها في رحلة قصيرة إلى سويسرا. وبعد ذلك بقليل نشر قصيدته الكبيرة الأولى «آلا شور»، ولم يكذب يلفت إليها أحد من الناس.

وفي عام ١٨١٦ قام برحلة أخرى إلى جنيف، وكانت رفيقته في هذه الرحلة أخت زوجته، كلارا كلير مونت التي كانت تريد للحاق بعشيقها بيارون. وفي أثناء هذه المدة التي أقامها شيللي في سويسرا، إنما شعر حقاً بتيقظ عبقريته. ولما عاد إلى لندن علم بانتحار هاريت على أثر حمل. وحاول أن يسترد أولاده، ولكن القضاة، نظروا إلى سوء سمعته، حرموه من رؤيتهم إلى الأبد.

وستطاع أن يوطد صلته بماري، واستقر في مارلو على التاميز. وسامت صحته، فنصحها الأطباء أن يكثر من التعرض للشمس، فسافر إلى إيطاليا، ولم ير انجلترا بعد ذلك أبداً.

وفي إيطاليا إنما تفتحت عبقريته تفتحها النهائي فكان عام ١٨١٩ هو العام الذي كتب فيه «بروميثيوس طليقاً»، وفي عام ١٨٢٠ كتب أناشيده الكبرى. وقد خلق من حوله ندوة فذة

من أشرف إيطاليا واليونان . وكانت فرحته بالشعر تخفف
بعض ألمه لفقد عدة أبناء من أبنائه .

وفي ذات صباح عاصف من يولية عام ١٨٢٢ ، سافر
على باخرته (L'ariel) في رحلة بحرية . ولسنا ندرى
بما الذى حدث على وجه الدقة . هل غرق؟ هل ألتحر؟ هل
قتل؟ لا يدري أحد . ومازال السر غامضا إلى الآن . فقد
طال انتظار صحبه له إلى آخر الليلة العاصفة دون أن يعود ؛
وفي ذات صباح مشمس شوهد جثمانه على الساحل الرملى .
وقرر الصبح حرق الجثة والاحتفاظ برمادها . وحضر بايرون
الاحتفال المريع ، فلم يلاحظ عليه أحد شيئا من علامات
التأثر ، بل كان هادئا كل الهدوء ، ثم شرب خمرأ وأنطلق يضرب
في الغابات يصيح ويغنى ويعربد . وقد انتزعوا قلب شيلي من
اللب ، وأسلموه إلى مسز شيلي .

لقد خلف هذا الشاب الذى مات فى الثلاثين من عمره
أثارا ضخمة لم يكتب مثلها شاعر غنائى انجليزى قط . ليس
بين هذه الآثار التى خلفها أثر واحد لا يؤثر فيك . ولكنها
تبلغ من شدة اللمعان لتعدد أضوائها أن عينيك تعشى
فى بعض الأحيان عن رؤيتها . لقد كان لشيللى عيانا قادران

على تفريق الشعاع الضوئى ، وكان له أذنان تسمعان حفيف
أجنحة الأرواح ، وكان له شم يبلغ من فرط الرهاقة انه
يكشف وجود زهرة بنفسج بين عيدان القصب . لم بصور
ألوانا بل حركات قوس قزح والنور الداخلى للسحب
والأمواج . لم يسجل أصواتا وكلاما بل ألحان الصوت
الإنسانى الذى يشبه بالريح بين الأشجار ، بالريح فوق الأزهار ،
بالريح فوق الماء ، وبالريح بين الخرائب والأطلال . كان
يتنسم وهو فى نشوة تمتعة رائحة الأزهار التى تحملها عند الظهيرة ،
على الأجنحة ، رياح الصيف الرطبة .

لقد أحب قلب السماء ، أحب خيالات السحاب ، أحب
شعاع القمر ، أحب الضوء السريع ، تداخل النور بالظل ،
انكسار الأشياء فى الماء . أحب صوت الصدى المتغير ، وهو
يبتعد ، ويضعف ، ليموت هناك ، فى بلد الأحلام .

أحب كذلك الإنسان ، وفاض قلبه رحمة على المتألمين .
حتى لقد ألهمه موت كيتس مرثاة نغمة رائعة . كان يكره
الظالمين . لقد وضع إحساسه الجمالى المرهف فى خدمة جبه
العنيف لأقرانه البشر .

إن صعوبة لغته الشعرية تقلل عدد قراء آثاره الطويلة ،

مثل «الاستور» و«ثورة الإسلام» و«جوليان ومادالو».. إلخ
وتعد «الاستور» أكثر قصائده رومانطيقية ، وفيها يصور
العبقرية منعزلة في هذا العالم تنتقل بين المناظر الرائعة باحثة
عبثا عن رفيق تكون روحه في مستوى روحها . ومن آثاره
درامة «آل سنسى» ، وقد مثلت وأصاب نجاحا عظيما ،
وهي تحدثنا عن ييا تريس سنسى كيف قتلت أباه العجوز المجرم
الذى تجاسر على عفافها . ومن أجل آثار شيللى تلك القصائد
القصيرة التى ليس هنالك انجليزى مثقف إلا قرأها وفتن بجمالها ،
مثل «المستحية» ، «الجلب الأبيض» ، «القبرة» ، «السحابة» ،
ثم «نشيد ربح الغرب» ، وأخيراً فإن من يحبون الشعر المعقد
لن يجدوا أجل مبنى ولا أرفع معنى من قصيدة شيللى
(Epipsychidion) التى يروى فيها غرامه بصيغة إيطالية فاتنة .

٢ - انطلاق بروميثيوس

هذه المسرحيات التى سبق ذكرها كفيلة بأن تنزل شيللى
المنزلة الأولى بين الشعراء الغنائيين . ولكن شيللى قد ارتفع
على هذه المنزلة أيضا بكتابه «انطلاق بروميثيوس» أو
« بروميثيوس طليقا » .

في عام ١٨١٦ قرأ كتاب أشيل « اعتقال بروميثيوس » ،
وأعجب بعظمته البدائية إعجابا عظيما . ومنذ ذلك الحين قرر
أن يكتب الدراما المفقودة عن « انطلاق بروميثيوس » ،
وظلت فكرة هذا الموضوع ملازمة له أثناء رحلاته في إيطاليا
إلى أن انصرم صيف عام ١٨١٨ فبدأ بتنفيذ هذا المشروع ،
وكتب الفصل الأول منه ، وهو أكثر الفصول إغريقية أما
الفصلان الآخران فقد كتبهما في خرائب كارا كالا بروما في
عنفوان الربيع ، وهما شخصيان إلى أبعد الحدود وأما الفصل
الرابع وهو آخر ألحان هذه السمفونية الرائعة ، فقد أضيف
متأخرا في ديسمبر عام ١٨١٩ وكتب بفلورنسا .

يطلع الفجر على منحدر متجمد في القوقاز ، حيث
بروميثيوس معتقل ، وفي أسفل المنحدر تجثم امرأتان مجنحتان
هما يانثيا وابونية ، تحاولان أن تواسيا بروميثيوس وتخففا
من آلامه . ولكن بروميثيوس يتحمل الألم لا يبالي ، ذلك
أنه يعلم أن الساعة التي سيهوى فيها الطاغية جوبتر في الفضاء
اللانهاى آتية لا ريب فيها . ويود لو يسمع من جديد عبارات
اللعة التي لا يزال جوبتر يرتجف لها . ولكن أصوات الجبال ،
والينابيع ، والهواء ، والعواصف ، والأرض نفسها ، لا تجرؤ

أن تسكرر ذلك الكلام الفظيع . وعندئذ يستحضر برومبيوس
شبح چوبتر : وتدوى فى السماء مرة أخرى تلك الكلمات التى
تقضى الطاغية ، الكلمات التى تبشر بسقوط چوبتر على أثر عمل
لا يعرف سره أحد غير برومبيوس . ويضطرب الطاغية :
ويرسل المريح يطلب السر ثمناً للحريه ولكن برومبيوس
يفضل أن يظل يتألم ، فتنقض عليه الهات العذاب بين اصطفاق
الاجنحة ، وتطوف أمامه رؤى : رؤيه رجل مصلوب ، ورؤى
سجون ومذابح . ثم ينتشر الهدوء من جديد . هاهى
الارواح تغنى ، وتنشر ابتساماتها مضئيه كنار النجوم . وتمضى
پانثيا نحو غابة الهند ، حيث تمكث آسيا منفيه بانتظار حينها
برومبيوس .

ومرة أخرى يطلع الفجر على الغابة حيث تلتقى پانثيا
بآسيا . وتقرأ آسيا فى عينى پانثيا رساله پرومبيوس . وكانت پانثيا
قد تراءى لها قبل ذلك حلم أزعجها . فإذا بالحلم يتجسد الآن ،
وإذا به يصبح « روحا » ترتدى غلالة رمادية . وتدوى فى
فى القضاء كلمه ترددها الأصداء من بكل الجهات « ورائى ورائى » ،
وتمضى آسيا وبانثيا فى إثر الصوت الذى يبتعد . إنهما تمران
بغابة مظلمة يغنى فيها الهزار ، فى رابعة النهار ، وقد اسكرته

رائحة الأزهار . ثم تصلان إلى الهوة التي يعيش فيها ديموجورون أي « الأبدية » أو « ناموس العالم » ، فتحملهما الأرواح إلى العرش الذي يستوى عليه ديموروجون ، وهو كتلة من الظلمات او هو شمس سوداء تصدر عنها اشعة قائمة . وتسال آسيا الكائن الرهيب عن الساعة التي سينهض فيها برومسيوس من مضجع العذاب الذي هو فيه . فيشير ديموجورون إشارة بيده تتباعد في اثرها الصخور وينكشف من ورائها الجانب الآخر من الأرض . وفي هذا الليل الارجواني تلع عربات الزمان فيركب ديموجورون إحداها ويغيب في الظلام ، وتركب آسيا وپانثيا العربة التي خلفها ويغيبان وراء ديموجورون .

وفي أثناء هذه الرحلة السرية ، تستحيل آسيا كائنا آخر : لأنها كائن من نور . وكأن روحها الآن زورق سحري يسبح فوق الامواج الفضية للألحان التي تغنيها الاصوات الهوائية . وفي أثناء هذا الوقت ، يعنى چوپتر . فقد اقترب الفعل الذي فيه هلاكه : لقد تزوج تيتسى . وتصل عندئذ عربة الزمان المحتومة ديموجورجون . لقد هوى الطاغية ، وشهد اوقيانوس وأبولون سقوطه المريع .

وينقذ هرقل بروميثوس ، ويتزوج بروميثوس آسيا .
وأمام ايونيه وبانثيا ، المفتوتين ، تغنى الأرواح زوال الموت
والفوضى والليل . وتفرح الارض لان الحب يشق طريقه عبر
السماء . و «القمر» يضيف إلى صوته الفخم ألحان فرحة القوية
ثم يسكت كل شيء لان صوتا يدوى : إن ديمو جورجون
يهب للوجود « القانون » .

إن هذه الدراماة الغنائية هي انجيل شيللى . إنها رسالة حب
وحرية . ولكنها تحتاج إلى تأويل ، شأنها شأن كل كتاب
مقدس . أما الرمزان اللذان يمثلهما چوبيتر (الإله الطاغية)
وبروميثوس (الإنسانية المعذبة) فواضحان لا يحتاجان إلى
شرح . وإنما الالتباس يقع في ثلوث آسيا وبانثيا وأيونية
بنات أوقيانوس . وقال بعضهم إنهن رموز إلى الحب والإيمان
والأمل . ولكن شيللى يرى أن ليس ثمت إلا قوة واحدة
تسود العالم : الحب . وليست الأجنوات الثلاث ، اللاتي يجهن
بروميثوس جميعا ، إلا تجسدا لمختلف أنواع الحب : أما
إيونية فهي الرغبة الفتية في الحب الغامض العذراوى . وأما
بانثيا ، وهي امرأة أخبر وأنضج ، فهي الحبيبة الأرضية ،
وهي انعكاس لآسيا . وأما آسيا فهي الحب المثالى . هي روح

الحب المحض . وإذن فليس سفر آسيا وبانثيا في إثر الصدى مجرد استطراد ريفي . إنه يمثل حياة الحب : منذ الرؤى الأولى وضروب الإخفاق الأولى ، حتى ذلك الوجد المسكر الذى يسوق النفس العاشقة إلى قلب الحياة الخفى المستتر .

صدق آرنولد حين قال : إن شيللى ملاك جميل كان عبثا يضرب الهوة بجناحيه . لقد أحس إحساسا قويا بالرغبة التى تحدو بالفراشة إلى بلوغ النجم . ولكنك كان شاعرا ، فعاش فى أحلامه أكثر مما عاش فى الواقع . لقد أحب الحب بعنف ويجب أن نغفر له كل شيء .

وقد أحسن القدر إذ قطع خيط حياته قبل أن تأتى سحب الكهولة فتظلم سماءه .

الفصل الثالث عشر

نثر العصر الرومانطيقى

١ - الروائيون

حين هدم ستيرن هيكل الرواية العاطفية نشأت الرواية
« القائمة » ، وأخذت تهز مشاعر الجماهير ، ولم يعد المؤلفون
يحاولون أن يستدروا الدموع ، ولا أن يستثيروا الضحك ،
بل يحاولون أن يخلقوا في القارئ رعشة القلق والغم . وكان
رائد هذا النوع هوراس والبول في رواية « قصر أتراتو » .
عام ١٧٦٤ . فنحن هنا في جو غريب : فهذا قصر جوتى ،
وهذه ممرات تحت الأرض ، وأبواب تفتح بصورة سرية
وقبور وأشباح . . كل ذلك في إطار الجو الإيطالى إبان
القرون الوسطى

وسيد هذا النوع أو قل سيدته مسز رادكليف (١٧٦٤ -
١٨٢٣) وأهم مؤلفاتها رواية « الغابة » و « أسرار أودلفو »
الخ . وقد برعت خاصة في تصوير حسناوات يعذبن في غرف
منعزلة من أديرة مهدمة تسمع فيها مصاريع الأبواب تضرب

بشدة، وترى الأبواب السرية تنفتح ، وتدوى من بعيد أصوات موسيقية .

وكان لمسز رادكليف عدة منافسين حاولوا أن يفوقوها ، نذكر منهم لويس في رواية « الراهب » (١٧٩٥)، وقد أضاف الى هذا النوع عنصر الشهوانية والنفور الجسدى . فيرينا في هذه الرواية حجرة لوثت ملاحظها بالدم ويرينا طيف راهبة دامية كانت بغيا وقاتلة . ويرينا مشهداً من السحر والرقية يدور في دائرة رسمت بالدم . وبعد ذلك رأينا مسز شيللى تؤلف روايتها «فرانكشتين» (١٨١٧) فتدخل في الرواية عنصر العجائب العلمية . إنها تتخيل إنسانا قادرا على خلق كائن حى . ولكن هذا الكائن الحى يبلغ من إدمامته المنفرة أن أولئك الذين كان يريد لهم الخير كانوا يتحاشونه مشمئزين حتى ضوى جسمه وأصبح شريراً لا يفكر إلا فى القتل .

وقد شهدنا بعد ذلك بقليل رد فعل قوى ضد الرواية القائمة . فرأينا بوجه خاص عددا من الروائيات الموهوبات يحاربن النزعة إلى إثارة الأعصاب ، ويفضeln التأثير فى العقل والقلب . نذكر منهن مسس إدچورث (١٧٦٧ - ١٨٤٩) وقد طواها الآن النسيان ، وليس لرواياتها التى تصف الأخلاق

الإيرلاندية ولا لحكاياتها الكثيرة من غاية إلا أن تستثير عاطفة الشفقة في القارىء .

ولا كذلك فرانسز برنى (١٧٥٢ - ١٨٤٠) ، فلا تزال آثارها تحمّظ بكثير من النضارة ، أو على الأقل روايتها الأولى «إيفلينا» ، وهى خير هذه الآثار .

وتمتاز برنى بحضور البديهة ، ولكنها ليست على جانب كبير من العمق . وقد سخرت من العامية البورجوازية ، جاهلة أن تلك «الإمعية» الأرستقراطية التى تمتدحها أدعى إلى الاحتقار . كانت تشعر شعوراً قوياً بالتفاوت الاجتماعى . ولكنها تنجو من الوقوع فى المضحكات بفضل حيويتها وخفتها وروحها المرحة . على أن الروايات التى كتبتها بعد «إيفلينا» لا تتوفر فيها هذه الروح المرحة ، وبذلك يعوزها العنصر الأساسى من جمالها .

ولاجدال فى أن جين أوستن (١٧٧٥ - ١٨١٧) أعمق من برنى ، وهى تمتاز بروح نضالية أقوى ، كما أنها أدنى إلى الواقعية . كانت تعيش حياة بورجوازية هادئة لاتعرف الهوى ، وكانت توزع وقتها بين القيام بواجباتها المسيحية وتأليف رواياتها . كانت حكيمة فلم تصف إلا الأشخاص الذين

كانت تستطيع أن تلاحظهم في ركنها الريفى . لم تتحدث عن الحب أو المصائب الفادحة، بل تناولت شئون الزواج وخصومات الناس ، وحاولت أن تضحكنا من ضعف الآخرين ومن صغاراتهم وتفاهاتهم، وهى فرحة بذلك فرح العانس العجوز (رغم أنها كانت ما تزال شابة حين كتبت «العاطفة والعاطفية» و «الكبرياء والهوى») . لقد كانت الحماقة الإنسانية موضوعها الاساسى . أحسن رواياتها «الكبرياء والهوى» وهى تصور طائفة من فتيان الريف يبحثون عن الزواج — وأما تصف للخاطبين ما يمتاز به ابتهاها من مزايا جسدية وروحية — وارسقراطيين يمنعمهم كبرياتهم الاجتماعى وتمنعمهم اعتبارات الثروة من الاقدام على زواج بورجوازى - وطائفة مضحكة من الامعات والاغبياء والمغرورين - وفرقة صغيرة من شباب شجعان. وقد برعت جين أوستن فى تصوير البنات، ولكنها لنقص تجربتها لم تدرك شيئاً من نفسية الرجل . ولم تعد روايات جين أوستن تقرأ بكثرة ، لان المجتمع الذى تصفه لنا قدماء ، وقيمة هذه الروايات الآن اقيمة تاريخية بالدرجة الاولى .

وبفضل والتر سكوت (١٧٧١ - ١٨٣٢) دخلت الرواية

التاريخية في الأدب . كان يجب التنقيب في زوايا التاريخ ،
واقثناء الكتب النادرة . وكان إطاره الشعري الأراضى
العالية والآثار الجميلة التى تشير إلى عادات الماضى واخلاقه
واكثر عهود التاريخ الانجليزى والتاريخ الإيقوسى خيالية .
وقد كرر نفس الموضوعات ، فتارة يتناولها منفردة ، وتارة
يمزجها فى مؤلف واحد . وهذه الموضوعات هى : الحب
(شاب عاشق وبطلة شقراء) الثورة ، (بطل قومى وشريكة
سمرام) ، النزاع بين أمرتين (على غرار روميو وموتاجيو
وچوليت كايولت) . وإلى جانب الأبطال الرئيسيين هناك
شخصيات ثانوية تكاد تكون هزلية كلها أو على الأقل أصبحت
هزلية بفضل هذه اللغة الإيقوسية اللطيفة

وتجرى الحوادث فى روايات سكوت ببطء فى أول
الأمر لأنه يطيل أولا فى وصف أخلاق ايقوسيا القديمة
وصفاديقا . ثم تتسارع بعد ذلك . أما أباطاله فإما متحمسون
يندفعون وراء قضايا خاسرة ، وإما أناس عاقلون يضلون
قبرة من الزمان ثم لا يلبثون أن يرتدوا فى الوقت المناسب
إلى الحزب الحكومى الظافر .

ورغم العيوب الكثيرة فى روايات والتر سكوت ،

وأهمها الطول ، فإنها جميعاً شائقة . أولى هذه الروايات « ويشرلى » ، وهى تتناول ثورة العاقبة الكبرى عام ١٧٤٥ ، وذلك المشروع الجنونى الذى استهدفه تشارلز إدوارد الطامع بالملك . وقد أصاب سكوت فى هذه الرواية نجاحاً كبيراً شجعه على تأليف روايات أخرى تتناول تاريخ وطنه الصغير . وأشهر هذه الروايات « شيخ القبور » وهى تصوير قائم للبيوريتانية الإيقوسية — و « الدير » وفيها يصور لنا أشياء خارقة للطبيعة ويحدثنا عن شقاء ماري ستوارت .



سير والتر سكوت ١٧٧١ — ١٨٣٢

وفي سلسلة أخرى من الروايات أحيا والتر سكوت تاريخ إنجلترا ، ففي « كينلورث » تظهر اليزابث ؛ وفي « ثروة ينجل » يصور لنا لندن في عهد جيمس الأول . وفي « ايقانوه » ، وهي لاشك خير روايات سكوت ، نرى الأمتزاج الصعب بين العناصر الساكسونية والنورماندية ونرى عودة ريتشارد قلب الأسد غير المتوقعة ونرى الأعمال الوطنية التي يقوم بها روبن هود الخارج على القانون ونرى بطولة ريبكا اليهودية .

وهناك سلسلة أخرى مؤلفة من ثلاث روايات تتناول تاريخ القارة الأوربية ، وهي في جملتها ضعيفة ، وأقلها ضعفا « كوتن ديروارد » ، وترجع شهرتها في فرنسا إلى أنها تصور لويس الحادي عشر الذي يعد من أغرب الملوك .

وإلى جانب هذه الروايات التاريخية تقف سلسلة كبيرة من الكتب هجر فيها والتر سكوت التاريخ وعمد إلى الحكاية القصيرة الخيالية إلى حد ما : نذكر منها « عروس لامرور » ، وهي مأساة مؤثرة على الطريقة القديمة .

وإذا عرفت أن هذه المؤلفات جميعها قد كتبت بسرعة للضرورة الملحة ، لما وسعك إلا أن تمتليء بإعجاباً بصاحبها (أبي على سكوت شرفه إلا أن يحكم على نفسه بالأشغال الشاقة

الأدبية ليسدد ديونه جميعها كاملة غير منقوصة) . ويمكن أن نقول إن أحسن آثار شبابه « أيبانوهو » ، كما أن أحسن آثار كهولته « عروس لامر مور » ، ولا يعوز هاتين الروايتين إلا شيء من التركيز حتى تكونا من عيون الآثار العالمية .

ولم يكن لو الترسكوت من خلف إلا « إينسورث » (جاك شيرد ، سان پول العجوز ، الخ) . وهناك ضابط بحار يدعى كابتن ماريات (١٧٩٢ - ١٨٤٨) ، أصاب شيئاً من الشهرة بفضل رواياته التي تصف مغامرات بحرية مثل (Peter Simple Midshipman Easy) .

٢ - الخيال يون ، المفكرون ، كتاب المقالة

إن قامه والتر سكوت الضخمة ألقت على عصرها ظلاً كبيراً بحيث لا نكاد نرى معاصره بيكوك (١٧٨٥ - ١٨٦٦) ، وهو روائي خيالي شاذ ، من أشهر مؤلفاته Night mare Abbey لم تكن تعنيه الدراسة النفسية كثيراً ، فكان يكتب برسم الملامح الأساسية والتصوير السكارى كانورى البرى . وكان ، من قبيل السخر ، يحشو عباراته بعالم كلاسيكية واستعمالات متكلفة .

إنه يسخر من نفسه ومن القارىء والناس جميعاً يضحكون
وما دمننا قد ضحكنا قليلاً فلتتقدم باحترام من سادتنا
الفلاسفة في هذا العصر : بنثام (١٧٤٨ — ١٨٣٢) صاحب
المذهب النفعي . ومالتوس (١٧٦٦ — ١٨٣٤) الذي يقدر
الانجليز اسمه في هذه الأيام . وكوبت (١٧٦٢ — ١٨٣٥)
الاختصاصي في المسائل الزراعية . وسيدنى سميث (١٧٧١ — ١٨٤٥)
القس الحر الذي كان من أبطال الدعوة الى التسامح .

إلا أن جميع العصور قد شهدت مفكرين كباراً من هذا
الطراز . وإنما الشيء الخاص الذي يتميز به العصر الرومانطيقى
هو صدور مجلات كبرى ، سياسية وأدبية معاً ، مثل : مجلة
ايدنبرج ، بلاكود ماجازين ، لندن ماجازين . الخ .. وكان
لا بد لهذه المجلات التي لم تلبث ان شفعت بصحف يومية من
كتاب ونقاد . وقد شهدنا في هذا العصر نظيراً للثنائى
أديسون — ستيل ، أعنى الثنائى لامب — هازلت .

لامب (١٧٧٥ — ١٨٣٤) : من أصل بورجوازى عاش
حياة بسيطة ، وعرف ألوانا من الشقاء . قتلت أخته ماري
أمه في أثناء نوبة جنونية . فظل بعد ذلك يسهر على صحة أخته
ويعنى بها حتى أنقذ عقلها . ولكن لئن عرف ألوانا من الشقاء

فقد كان مع ذلك يحس فنونا من الفرح : استطاع أن يقرأ .. وأن يقرأ كثيرا ، ولا سيما المؤلفين النادرين الشواذ ، وكان له أصدقاء ممتازون مثل كولييرج . يعرفه الجمهور خاصة بأنه مؤلف وحكايات مستمدة من شكسبير ، (١٨٠٧) التي كتبها بالاشتراك مع أخته ، والتي تجمع بين جمال الاقاصيص الخيالية وقوة التأليف الشيكسبيرى . وقد كتب في « لندن ما جازين » . مقالات كثيرة كان يجرها بامضاء « إلباء » ، وفيها تبدو سخريته التي تدغدغ ولا تجرح . ومن هذه المقالات اللطيفة نذكر « آراء مسز باتل في لعبة الورق ، (Whist) و « مقالة في شواء الخنزير » . ولكي يحس القارئ جمال هذه المقالات يجب أن يتقبلها بروح إيجابية وان ينساق معها ويستسيخ مفارقاتها ويتبع صاحبها في لفة ودورانه وقفزه ، وعندئذ لا بد ان يفتن بها .

ولكن لئن قدرنا لامب فن الصعب أن نجب هازلت (١٨٧٨) —

(١٨٣٠) ، على أن كلا الرجلين يشترك مع الآخر في آرائه التقدمية بل الثورية ، ولكن لامب أشبه بمن يحضر المؤامرة وهازلت أشبه بمن يلقى القبلة . إن هازلت رجل فظ يكره الشر . وقد عرف هو الآخر البؤس والشقاء . ولسكنه لم يستسلم بل ناضل وكافح حتى غلب على أمره ، فارتطم في هوة التشاؤم والحزن والمسكرات :

أخفق راعيا ، وأخفق رساما ، وأجهد نفسه أديباً ، وخاب صديقاً ، وخُدع مجبا ، وهزم مكافئاً ، ولم يعرف المسكين من ألوان الفرحة إلا ما يسببه له بعض النجاح العارض السريع الذي كان يناله محاضراً من حين الى حين .

إنه ناقد كبير مستقل تمام الاستقلال . إنه يصدر أحكامه فيما يحسه واضحة إلى أقصى حدود الوضوح . وأقول فيما يحسه لأن روحه القاسية لم تستطع أن تفهم غنائية شيللي الرقيقة ، في حين أنه أجاد الحكم على شخصيات شيكسبير ومؤلفي عصر النهضة وعصر الإصلاح ومدرسة بوب .

أما من حيث هو من كتاب المقالة فإنه يفوق سابقه في قوة شخصيته . أسلوبه قاس كروحه . وإذا قرأت له رأيت فكرته تتكون شيئاً فشيئاً بسلسلة من الإشارات المتعاقبة تؤدي إلى الصيغة النهائية ، وعندئذ تنبثق الصورة في كل روعتها انبثاقاً فجائياً . وأحسن مقالاته « السفر » وهي تتغنى بتلك الحرية التي يشعر بها من يهيم على وجه ينزل هنا وهناك ويحل في فنادق على عرض الطريق مجهولة . لو استطاع هازلت أن يقاوم حمى التطرف فلربما كان أكبر ناثر في انجلترا الحديثة .

وبين شخصيتي لامب وهالكت الكبيرتين انسحقت
شخصية لي هنت المغمورة (١٧٨٤ - ١٨٥٩) . وفي رأبي
أنه يستحق أكثر مما أصاب من شهرة . فإن جريدته
« الاجزامينر ، تحتوي على مقالات جميلة ، كما أن لكتابه عن
بايرون فضل تجريد هذا اللورد النبيل من مجده الفائق ،
وإضفاء هذا المجد على شيللي وكيثس . ويمتاز هنت خاصة بأنه
كان همزة وصل ، وكان في كثير من الأحيان مبعث حركة
واتعاش . إنه يتمتع بمواهب طبيعية كان يمكن أن تنهض به
إلى الصف الأول لو لم تضطره ضرورات الحياة إلى التشتت
والتبعثر .

ويمكن أن يقال مثل هذا عن دي كونسى (١٧٨٥ -
١٨٥٩) . كان كاتباً ملفقاً يطرق جميع فنون الكتابة . ومع
أعنى استغل معيناً جديداً استخراج منه كنوزاً كثيرة ،
ذلك هو وصفه لأحلام آكلى الأفيون في روايته « اعترافات
آكل أفيون » ، و « سيداتنا الحزينات » ، وخصوصاً « بنت
لبنان » . وقد كتب مؤلفات كثيرة ، إلا أنه لم يخلد منها إلا
رواية واحدة هي « اعترافات آكل أفيون » ، وفيها يروى
حياته المضطربة . إن تلك الصفحات التي تصف سنى شقائه في

لندن ، وتصور شخصية آن المؤثرة ، والبغى المحسنة التي تحتفى إلى الأبد في ظلام الليل لى صفحات لا يمكن أن تنسى .

وهناك كتاب صغير مغمور من مؤلفات دى كوينسى ، هو فى رأى أجمل أحلامه ، أعنى كتابه «عربة البريد الانجليزية» وهو حافل بالصور الرائعة ، والأخيلة الجميلة . على أن مما يؤسف له أن هذه الصفحات الرائعة لا يمكن أن تترجم فإن موهبة دى كوينسى تقوم فى الدرجة الأولى على أسلوبه . إنه هو خالق «النثر العنيف» الموقع كثر التوراة . إن الأصوات الصماء فيه تشعرك بشيء بعيد بعيد ، الأمر الذى يلائم رؤى الأفيون . ومثل هذا الأسلوب يصعب التزامه باستمرار . لذلك ترى دى كوينسى لا يخلو من الأنغام الشاذة . يضاف إلى ذلك فيما يتعلق بأسلوب دى كوينسى أن الرجل كثيراً ما تسكره موسيقى اللفظ فيهمل المعنى .

ونلاحظ هذه العناية باللفظ لدى لا ندور (١٧٧٥ - ١٨٦٤) . كان جمهورياً ، فطرد من جامعة أكسفورد . وقضى الشطر الأكبر من حياته فى إيطاليا . ولكن هنا ينتهى وجه الشبه بينه وبين شيللى . ومن أهم آثاره «محدثات خيالية» وهى تنتسب إلى نوع مزيف ، لكنها تمرينات مدرسية ممتازة

فما أجمل هذا الأسلوب الموقع باعتدال، الكلاسيكي الصافي .
قال لاندور يتحدث عن مجده المقبل في معرض الفخر
« سأتناول طعامي متأخراً، ولكن قاعة طعامي ستكون فسيحة
مضادة وسيكون المدعوون قلائل من حيث العدد لكنهم من
صفوة الناس قيمة ، . ولم تتحقق نبوءته .

الفصل التاسع

العصر الفكتورى

١ - المفكرون ، المؤرخون ، النقاد

طالما مجّد العصر الفكتورى ، وطالما حقر ، فقد أرادوا أن يشبهوه بالعصر الاليزابى وأن يجعلوا آثار العصرين فى مرتبة واحدة ، فكان لابد من رد فعل على هذه النظرة ، فرأينا الناس فى القرن العشرين يسخرون من ذلك العصر . ولا شك أن المرء يضيق ذرعاً بما فى الأدب الفكتورى من نفاق بورجوازى وعاطفية كاذبة . ولكن بما لا شك فيه أيضاً أنه يحتوى على آثار عظيمة سواء من ناحية الجمال الفنى ومن ناحية القوة الفكرية ، الأمر الذى أتاحه الرخاء والهدوء فى هذا العصر .

إن العصر الفكتورى خضم واسع ، إذا نظرت إلى سطحه رأيت هادئاً ، لكن فى أعماقه ثورات عنيفة لا يتصور وجودها الإنسان العادى .

ازدهرت الفلسفة في هذا العصر ازدهاراً منقطع النظير
فظهر جون ستيوارت مل (١٨٠٦ - ٧٣) هذا الولد الذابغة ،
المتهالك على العمل ، تليذ بنثام وكومنت ، وظهر إلى جانبه
ولكن في الميدان العلمي ، علماء كبار أمثال دارون (« أصل
الأنواع » ، ١٨٥٩) وسپنسر ، وتوماس هكسلي : وكان هذا
الآخير البطل الرئيسي للبهب اللاأدرى .

وقد شهدنا في هذا العصر قلعا دينياً تجلى في تطور عدد
من كبار المفكرين ، فرأينا نيومان ، القس الانجلكاني ،
يساهم في أول الأمر مساهمة فعالة في « حركة أكسفورد »
المحافظة ، وينادى بالعودة إلى روائع الصوفية في القرون
الوسطى ، ثم ينقلب إلى الكاثوليكية ، في عام ١٨٤٥ ،
ويكون لانقلابه هذا دوى كبير ويصبح الرجل أشبه بشخصية
من شخصيات الأساطير ؛ وكان نيومان هذا يمتاز بقدرة
عجيبة على الإغراء ، وكان أسلوبه في الكتابة أسلوباً
جزلاً فنياً .

ويشبهه في هذا الباب رسكن (١٨١٩ - ١٩٠٠) إلا
أن إنجيل رسكن لم يكن دينياً ، بل كان فنياً واجتماعياً . إنه
إنسان يعبد الجمال .. ويعتبره دليلاً على روح الله التي تشيع في

العالم (« المصورون المحدثون ، « أحجار البندقية » . . الخ)
لقد رأى القبح يسود من حوله فألى على نفسه ليشن حرباً
صليبية على أداة القبح ، أعنى الآلة ، وعلى خطيئة القبح ،
أعنى الكسل الرتيب . فأخذ ينادى بالعودة إلى حياة الصانع
المستقل ، العامل الفنان . ورغم الاجهاد في العمل ورغم
هجمات الحمى ونوبات الجنون ظل رسكن يدعو إلى رسالته
حتى لفظ أنفاسه . ولا تمتاز آثاره بأصالة الفكر فحسب ، بل
بروعة الأسلوب أيضاً ، فقد كان لأسلوبه نبرة خطابية آسرة ،
وكانت كتابة زاخرة بالاستعارات على طريقة التوراة . إلا
أن هذه الروعة في الأسلوب تجرى على غرار واحد ، كما أن
آراءه ورغم ما كان يعمد إليه من ترقيم معقد ، تفتقر إلى زيادة
في النظام وفضل من الترتيب .

وطالما وضع الناس كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١) في
منزلة رسكن أو قريباً منها ، وعدوه مفكراً كبيراً ، ولكني
أرى أن شهرته هذه شهرة مسلوبة ، فمعظم قيمته ترجع إلى
أنه صدى للفلاسفة الألمان . وكان يمثل دور النبي والدكاتاتور .
كان رجلاً مقاتلاً . كان لا يتكلم كلاماً ، بل يصرخ صراخاً .
وقد فرض نفسه بقوة شخصيته ، لا بقيمة آرائه .

كان يمجّد العمل، ويسخه الاله العادل. كان يحتمر القانون،
ويعبد الأبطال : وهؤلاء الأبطال هم : أودن ، محمد، داتى ،
شيكسبير، لوثر، نوكس، جونسون، روسو، بيرنز، كرومول،
نابليون (« الأبطال وعبادة الأبطال ») وقد كتب كذلك كتاباً
عن فريدريك الثاني .

وفي رأيه أن كتابه « تاريخ الثورة الفرنسية » يخوله الحق
في المجد والشهرة أكثر من كتابه الأساسى « Sartor Resartus »
هذه القرية المملوءة بالنظريات الجرمانية . فهو في كتابه عن
الثورة الفرنسية يروى حوادث هذه الثورة في كثير من الحماسة
والقوة ، كأنه أحد أنبياء بنى اسرائيل ، واثن كان يبيت في هذا
الكتاب ميولا خاصة ، ويخرج أحيانا عن الدقة التاريخية ،
فما يشفع له أنه مدفوع بسيل عرم من العاطفة الجارفة .
ونستطيع أن نقول بوجه عام : « إنه سيخلد كمتورخ على
هامش التاريخ » .

والى جانبه يقوم الكاتب الهادىء ما كولى (١٨٠٠-١٨٥٩)
الذى كان فى أول أمره قاضيا فى الهند، ثم شاعراً، ثم مؤرخاً
وناقداً . وأضخم مؤلفاته هو « تاريخ إنجلترا منذ تبوأ جاك
الثانى العرش ، وهو من عيون الآثار التى تكتب التاريخ بطريقة

التصوير ، فقد برع ما كولى الى أقصى حد فى تصوير الشخص
أو العصر الذى يتحدث عنه حتى لكأنه يخطر أمامك حيا ،
وذلك بفضل معرفته الكاملة بالأوساط الاجتماعية ، وقدرته
العجيبة على التصوير والتلوين . ولا شك أنه كان يقع فى أخطاء
تفصيلية ويتعد عن جادة الحقائق التاريخية الجزئية . ولكن
ليس لهذا من كبر قيمة ، فان الصورة التى رسمها لنا عن إنجلترا
فى عهد الإصلاح تقربنا من فهم الأمور والأشخاص أكثر من
أى كتاب تاريخى دقيق ، ولكننا لانستطيع الا أن نأخذ عليه
ميله الى الحكم على الأمور بمقياس الأخلاق ، واسرافه فى
تمجيد وطنه ، وزهوه به الى حد التبجح .

اما «بحوثه النقدية» (ملتون ، بيكون ، اديسون ،
جونسون ، الخ) فهى بحوث براءة ، لكنها سطحية . ولاشك
انها تشعب إذا وضعت الى جانب بحوث ماثيو آرنولد
(١٨٢٢ - ٨٨) . لقد حاول هذا الاستاذ إعادة النظر فى القيم
المقررة ، وكان يدعو الى الهيلينية (الحرية الفكرية) ضد العبرية
(الضغط الأخلاقى) ولكنه لم يجرؤ أن يمضى الى نهاية المطاف
من تفكيره . ثم لقد كان ضحية المهنة : فقد كان لا بد لبحوثه
ان تلقى محاضرات على الطلبة .

٢ - الرواية تحت لواء ديكنز

إن الرواية الفكتورية وليدة « قس ويكنيلد ، أكثر مما هي وليدة « توم جونز ، وهي كثيراً ما تضحى بالحقيقة في سبيل نوع من العاطفية الكاذبة

هناك عدد كبير من النساء كتبن قصصاً طويلة تدور حول السر العائلي الذي يحول بين الزواج وبين شخصين متحابين . وكثير من هذه القصص جدير بالتقدير ، ولا تستحق هذا الإهمال الذي تمنى به الآن كقصص مسز هنرى وود (١٨١٤ -٨٧) ، وقصص ويدا (١٨٤٠ -١٩٠٨)

ويعد تشارلز ديكنز (١٨١٢ -١٨٧٠) المستول الأكبر عن هذه المثالية العاطفية . لقد كان روائياً موهوباً ولكنه بدلا من أن يستخدم مواهبه في إرشاد الجماهير ، مضى يستخدمها في ممالأة أذواقهم ومجاراة أهوائهم . فكان يبيعهم البضاعة الأدبية يباعا . . وكان بارعا براعة هائلة في الكتابة السريعة للصحف . . .

كل شيء في حياته كان ينبغي أن يؤدي به إلى الثورة ، والتشاؤم . فقد عرف في طفولته كل أنواع الحرمان ، وعانى

ضرورة العمل لاكتساب الرزق ، وذاق الأمرين من وحشية
المعلمين ، وكانت بداياته في الصحافة شاقة متعبة ، وكانت
كروبه العاطفيه تتزايد يوما بعد يوم ، وكان في تآزم مالى
مستمر ، رغم رواج مؤلفاته ونجاح كتاباته في الجمهور . لم تكن
حياته حلوة ناعمة ، ومع ذلك لم يجرؤ قط أن ينظر إليها وجها
لوجه ويحاهر بكل دمامتها . ذلك أنه كان يصبو دائما إلى مثل
أعلى بورجوازي . فما كاد يستطيع أن يصل إلى ذلك حتى
رأيته بورجوازيا يشفق على الفقراء والمساكين شفقة سيدة
القصر التي تطل عليهم من فوق .

لا يزال كتابه الأول « بكويك » أكثر كتبه احتفاظا
بالقراء ، وهو يصور لنا إنجلترا القديمة ، ذات الفنادق
والعربات ، تصويراً حيا ناطقا . ومستر « بكويك » الشخصية
الرتيبة في هذه الرواية هو شخص متحلل منحط أشبه بكرة
القدم التي تركز بالجزمة هنا وهناك ، بدون أن يفقد كرويته
الجسمية ولا مزاجه المرح . إنه تجسد هزلى لشخصية دون
كيشوت ، مع فارق واحد ، هو أن دون كيشوت يسعى وراء
المغامرات في حين أن صاحبنا تسعى المغامرات وراءه .
والرواية الثانية من روايات ديكنز هي « أوليفر تويست »

وهي تحتوي على أوصاف قوية لحياة الطبقات المنحلة . .
وليس بين آثار ديكنز أثر لا يحتوي على صفحات رائعة
من الطراز الأول، وعنصر الترجمة الذاتية في «ديفيد كورفيلد»،
يضمن على هذه الرواية مسحة قوية من الصدق والاختلاص
تنفذ الى القلب وتؤثر في النفس تأثيراً عميقاً. وقل أن تقع على
هذه النغمة الصادقة في غير «ديفيد كورفيلد»، ولديكنز أقاصيص
كتبها اختفاً بعيد الميلاد وهي حكايات جميلة تستحق ما أصابته
من شهرة ذائعة. فأقصوصة «أغنية عيد الميلاد»، حكاية مذهشة،
ولكن شريطة ألا تقرأها على أنها حكاية أخلاقية كتبت
للأطفال، بل على أنها وصف واقعي لحلم مضطرب بعد سوء
هضم؛ وتحتوي أقصوصة «قرع الأجراس»، على أوصاف
رائعة لهبوب الريح، كما تحتوي أقصوصة «صرصور المدخنة»،
على صفحات جميلة في وصف النار وتحضير الشاي. ثم لقد
يرع ديكنز في وصف الاحتضار إلى أعظم حد، فما أكثر
ما أسال موت بول دومبي (في «دومبي وابنه») وموت نل
الصغيرة (في «مخزن العاديات») من دموع سخان. وسيظل
ديكنز في نظر كثير من قرائه أكبر الروائيين الذين وصفوا
الطفولة البائسة.

ولكنه متى خرج عن نطاق الوصف الحى الملون ، وأراد أن يتناول موضوعا تاريخياً أو اجتماعياً أصبح لا يطاق . فكتابه ، قصة مدينتين ، الذى كتبه بتأثير كارليل هو صورة مشوهة للثورة الفرنسية يمكن يتسلى بقراءتها البوابون .

وقد امتدح بعضهم فيه روح النكته والحماسة للإصلاح الاجتماعى ، وفى رأى أن النكته عنده كانت فظة عامية بقدر ما كانت عند اديسون لطيفة مرهفة . أما فيما يتصل بآرائه الاجتماعيه فقد كان محافظا إلى حد بعيد ، فتراه لا يخفى عدم اطمئنانه إلى الديمقراطية . ولئن وصف البؤس فقد كان مؤمنا بالإحسان الفردى ، فلم يفكر فى القضاء على البؤس قضا حاسماً .

والحق أنه بانصرافه إلى كتابة الروايات العاطفية كان يسير فى غير الطريق التى خلق لها . وكان يعرف هو نفسه ذلك ، فإن عبقريته ، وحياته ، وكل شىء ، كانت تُحدوه إلى كتابة مسرحيات .

وكان من شأن الصيت الذائع الذى أصابه والمجد العظيم الذى حصله أن أقل نجم منافسيه بجانب نجمة .

أما دزرائيلى (١٨٠٤ - ٨١) فإنه مدين بمنزلته عند

الأجيال التالية إلى قوة شخصيته، وعظمة شأنه السياسي، أكثر مما هو مدين بها إلى قيمة مؤلفاته . وقد عرض إنجيل حزب إنجلترا الفتاة (التضامن ، قوة السلطة المركزية ، التطلع إلى الشرق) في ثلاث روايات هي : « كنجزي ، و « سيل ، « وتانكر د . وفي رأي أن دزرائيلي يشبه ديكنز في أن كليهما يمتاز بروح نسوية . أما الرجل من هذه الطائفة من الروائيين فهو تشارلز كنجز لي (١٨١٩ - ٨٥) وهو اشتراكي مسيحي تعاوني ظل يصرخ طوال حياته « العقل السليم في الجسم السليم ، كان يدعو إلى « المسيحية العنيفة ، وكان يسمى عند رعيته « بالقس المناضل ، . وكان فكره من الاضطراب وكلامه من السهولة وعاطفته من القوة بحيث لا يستطيع أن يكتب آثاراً فنية باقية . إلا أن بين رواياته أربعاً على الأقل تستحق الاحترام : « ألتون لوك ، وهي صرخة ضد الظلم الاجتماعي والتفاؤل السعيد الذي ركن إليه البورجوازيون الفكتوريون - ثم « هياسيا ، وهي تاريخ للاسكندرية تحت سيطرة سان سيريل واستتكار للمسيحية الحربية عند الاساقفة الأول - ثم « هيا إلى الغرب ، وهي تصوير حي لكبار المغامرين الإليزابثيين - وأخيراً « أطفال المياه ،

وهي قصة للأطفال ، أشبه بجم مضطرب من أحلام أستاذ للأخلاق ، نام بعد عشاء ثقيل وأخذ يجم بالماء .. بكثير من الماء . . .

وبين الروايات أيضاً ، هناك من يمتزج بروح نسوية وهناك من يمتزج بروح رجولية ، أما مسز جاسكل فهي امرأة إلى أبعد حد . هي زوجة قس من مانشستر ، توفرت على ملاحظة مبأس العمال في المدينة السوداء ، فوصفتها وصفا رائعا في رواية أولى بعنوان «مارى بارتون» . ولكنها برعت بوجه خاص في روايات الحياة الريفية والحياة العائلية . وأعظم مؤلفاتها رواية «كرانفورد» وفيها تصف آلاف العواطف والاضطرابات السخيفة في المدينة الصغيرة .

وهناك أخوات ثلاث ، هن الأخوات بروتي ، يعدظهورهن أجموبة من العجائب ، والكبريان منهما أنبع من الثالثة إذ ليست الثالثة إلا صورة شاحبة عن الآخرين . وقد نشأن في وسط تلك الأراضى البور في يوركشير ، من أب تافه ، كان قسا ، وترمل ، ثم أصيب بعمى البصر ، بعد أن أصيب بعمى البصيرة . لم يفهم يوما أن العبقريه كانت تحمل على جناحها أبناءه . على أنه أدرك أن ابنه پاتريك يحمل بعض لمواهب التى تؤهله

لأن يكون رساما، فأرسله لدراسة الرسم إلى الأكاديمية الملكية. وإنك لتحس في هذه الصور الخرقاء البدائية التي خلفها باتريك. أنك أمام شخص من أصحاب الرؤى العظيمة . إلا أن حياة الفحش والدعارة قد أستولت عليه ، فأدمن على تعاطي الخمر ، ثم على تعاطي الحشيش ، وأختل عقله ، فعاش عند أهله سنين محومة ، كانت أخواته خلالها يسهرن على راحته ويعنين بصحته : كن ينتظرنه إلى ساعة متأخرة من الليل ، حتى إذا أقبل جمل يقص لهن حكايات حبه وكرهه . وبدخوله كانت تدخل إلى بيت القس الشياطين التي تلبست أخواته .

أما شارلوت بروتي (١٨١٦ - ٥٥) فهي أقواهن وأكثرهن توازنا ، وأنبغهن في ميدان الأدب ، وهي وحدها، التي أصابت نجاحاً عظيماً . وقد قصت في رواياتها تاريخ سنوات طفولتها الفظيعة التي قضتها في مدرسة خيرية يديرها البرد والجوع - ودراستها الثانوية في بروكسل حيث اطلعت على الأوساط الأوربية ولاحظت حياتها ساخرة - وحبها لأستاذها م . هيجر ، الذي كتبت إليه رسائل حزينة باكية فكان يستعمل هذه الرسائل في كتابة عناوين الحذائين . وقد قصت كذلك تاريخ النزاعات الصناعية وثورات يوركشير (جين إير ، المدينة الصغيرة ، الأستاذ ، شيرلي) ولا شك أن

عنصر الترجمة الذاتية في رواياتها قد بلغ الأوج في بابه .



سارلوب بروني ١٨١٦—١٨٥٥

وأحسن كتبها هو كتابا الأول «جين إير» ، وهو أقرب رواياتها إلى شخصها : وفي رأبي أن ثلثيه الأولين حيث تحدثنا عن مدرسة لوود وبدايات المعلمة الشابة ، يوازي بل يفوق ديكنز ، ولكن تأثير قراءاتها للروايات القائمة يظهر في الثلث الباقي ظهوراً واضحاً ، فتحدثنا عن حريق يحدث في الوقت المناسب ليصلح كل شيء ، ثم تنتهي الأمور على

أحسن حال ، خلافاً لما يقتضيه سياق المعقول ، (فتزوج
المعلمة أستاذها الذي تحبه والذي أصيب بالعمى) .

والكتاب الوحيد الذي ألفته إيميلي برونتي (١٨١٨ -
١٨٤٨) هو « مرتفعات وذرنج » ، وهي رواية عنيفة مثيرة
نستشف من ورائها شخصية مؤلفتها الغريبة ، العذراء
المتوحشة ، التي كانت تشعر نحو الأرض والحياة
بعاطفة حيوانية ؛ لقد كانت أكبر داعية إلى ديانة وثنية



إيميلي برونتي ١٨١٨-١٧٤٨

تقدس القوى الطبيعية البدائية . وقد قالت في إحدى قصائدها
« حاشا أن تكون روحى روحاً جبانة ، . وبدلاً من أن
تموت ميتة مسيحية فقد قاومت الموت مقاومة الوحوش ،
وأبت أن تلزم فراشها وهى مريضة . ولم تستطع القوة
الطبيعية الغاشمة أن تحصل على فريستها إلا بعد ساعات طويلة
من الكفاح والنضال .

بطل هذه الرواية يسمى هتكليف ، وهو أكثر يرونية
من أبطال يرون . طفل لقيط يسيئون معاملته ، ويقع في
حب كاترين ابنة حاميه ، والفتاة عنيفة وحشية كصاحبنا ،
فتبادلها حباً بحب ، ولكنها تشعر باستحالة زواجهما فترضى
بالزواج من ابن ملاك مجاور وعندئذ يختفى هتكليف في
غياهب العاصفة والليل

وحين يعود من لجج الجحيم ، غنيا ، قويا ، يوالى على
نفسه ليحطمن ويعذب كل من أبعدا عنه كاترين . فيصبح
صاحب الأرض التي كان خادماً فيها . وتهب عاصفة الموت ،
ساخطة ، غاضبة ، تأتي على الأخضر واليابس ، وحتى كاترين
تموت وهى تلد ولكنه ذكرها في الرواية لا ينقطع بموتها ،

بل يزداد، فان شبحها لا يفارق خيال هشكليف ، وإن لم يحوله
عن فكرة الانتقام .

إن هذه الرواية الغريبة ، التي تعمل فيها الوحشية إلى أقصى
وأقصى حدودها ، فيحطم القوى الضعيف دون ما شفقة أو
رحمة ، إن هذه الرواية هي رغم كل شيء من تأليف امرأة . لم
يدر بخلد هشكليف في أية لحظة من الحظات ، أن يعمد إلى
الإغراء أو الخطف . إن هذا الانسان الشيطان يحرم رغم كل
شيء ذلك النظام المقدس الزواج ، إنها رواية حب جنوني
ليس فيه أثر للجنس . ولكن هذا الانفعال القوي الذي تحسه
أثناء القراءة ينسيك فقدان الخبرة لدى المؤلفة ، وينسيك
غموض الفصول الأولى ، وغيوب التسلسل القصصي . إن
هشكليف وكأترين يقولان كلاما مستحيلا ولكنك تسمع في
هذا الكلام صراخ القلب .

وليس هناك فقرة واحدة موقوفة على الوصف لكنك
ترى المشهد الذي تدور فيه الحوادث أظهر ما يكون وأوضح
ما يكون . ليس في العالم كتاب تسلط عليه الشيطان كما تسلط
على هذا الكتاب .

٣ - الرواية تحت لواء تاكرى

أما طائفة الروائيين الذين يمثلهم تاكرى فإنهم يشورون على الرواية العاطفية الخيالية ، ويهدفون الى تصوير المجتمع والحياة تصويراً دقيقاً بدون سابق خطة وبدون رغبة في هز المشاعر ،



تاكرى ١٨١١ - ١٨٦٣

ثم هم لا يريدون ان يصطدموا وجهاً لوجه بالأحكام السابقة السائدة فى الجمهور الفسكورى ، ولا أن يخرجوا عما ألفه من ضروب العفة والحياء .

لم يحظ ثا كرى يوما بما بجمهور من القراء يعادل جمهور ديكنز. ولن يحظى بذلك قط. فانه لم يكتب للعامة بل للادباء. وما يؤسف له أن ضرورات حياته الشاقة كرسام، وصحافي، ومحاضر، وكاريكاتورى، اضطرته الى أن يشتت جهوده ويبعثر قواه وينشر أشياء كثيرة جداً.

وأحسن مؤلفاته كناقذ كتابه « الفكاهيون الانجليز فى القرن الثامن عشر »، أما كتاب مقالات فأقل بمجموعاته سوءاً. هو كتاب « الإمعات »، وهو فكاهى تارة جاد تارة اخرى، ولكن لا يجمعه وحدة معينة، لأن المؤلف يصل أخيراً إلى أن يشمل بكامة الإمعية كل العيوب الانسانية. أما من حيث هو روائى فقيمه عظيمة بلاجدال، ولكن الآراء فى رواياته على اختلاف، وأهم رواياته « بندنيس »، وهى دراسة جميلة ولكن طويلة جداً لشاب ساذج، - ثم « سوق الغرور »، وأجل ما فيها شخصية بيكى شارپ وهى تمثل الطمع النسوى الذى لا يردعه شيء : مغامرة ذكية نادرة لو أتيج لها خلق أقوم لارتفعت إلى أعلى طبقات السلم الاجتماعى، - ثم « آل نيوكم » وهى تدل على رقة قلب ثا كرى، فان وصفه لموت السكولونيل نيوكم ليستدر بيساطته من العبرات أكثر مما تفعل أوصاف ديكنز لاحتضارات أبطاله الطويلة.

ولكن المؤسف أن ثكري قد انساق مع الذوق
الفيكتوري ، فجزا الأختيار خيراً والأشرا شرأ ، على نحو قد
لا يتفق مع سياق الممكن ولا نجد له نظيراً في الواقع . كما أنه
لا يمتضى الى غايته قدما ، بل يتوقف في الطريق ليبدى بعض
الآراء الأخلاقية ويندفع في استطرادات طويلة لا داعي لها .
غير أنه يدل في كتبه على أنه خير بنفس المرأة ، قادر على سبر
أعماقها ، اللهم الا حين يحاول أن يصف مخلوقات فاضلة ، فشخصياته
عندئذ أشبه بلعب وردية شقر ، (كشخصية إميليا في رواية
« سوق الغرور ») .

واحدة فقط من رواياته هي في رأي من الماس النقي الصرف
أعنى « هنرى إزموند » . إنها صورة جامعة كاملة للغة القرن الثامن
عشر ، بل انها انبعاث كامل لعصر الملكة آن . إن ثكري
يجب الألوان المتوسطة التي ليست بالواضحة ولا بالقائمة ، وما
من إطار تاريخي كان يمكن أن يلائمه أكثر من هذا العصر .
والأهمية السيكولوجية في الكتاب هي ذلك التطور البطيء الذي
عائته ليدى كاسلوود . إنها تشعر أولاً بالعطف والشفقة نحو
ابن عمها اليتيم الصغير هنرى إزموند ، ثم ترمل . فاذا هي تنشد
فيه عونا لها وحاميا ، ثم هي تجبه وتصبح منافسا لا بنتها بياتريس

المتكبرة الباردة... ثم ينتهي بها الأمر أن تزوج هنرى ،
فتوفر له الهدوء ، وتمحضه حب الزوجة وحنان الأم . ما أظن
أحداً من الكتاك استطاع ان يرسم لنا صورة للحبيبة الأم
تضارع هذه الصورة .



جورج إليوت ١٨١٩ - ١٨٨٠

وقريبا من شكرى تقف جورج إليوت (مارى آن ليفنز)
وهى مفكرة حرة معجبة بدارون ، وقد شاع فى الرأى العام
أنها اتخذت من الصحافى لويس الذى هجر امرأته خليلا ، وقد
ساعدها لويس هذا على الاضطلاع برسالتها الروائية ، وكفاها

مشوثة الاهتمام بالجانب التجارى من الموضوع .
ولقد قضت أيام طفولتها وشبابها فيما حول كوئنترى فأتاح
لها ذلك أن تفكر طويلا فى مبائس الحياة الريفية وتفاهاتها .
وأول كتاب ألفته هو مشاهد من حياة الاكليروس ، وهو مجموعة
لوحات قصيرة ، تمتاز بالواقعية القاسية ، ولا تزال تفرى
بقراءاتها كثيراً من الناس ، ولا سيما أولئك الذين لا يخشون
مشاهد الموت والمآتم . وأول كتاب طويل كتبه هو « آدم بيد »
والحق أن فيه فصولا رائعة تتسم ذروة الأدب ، مثل إغواء
الشاب الفنى للفتاة الجميلة الرائعة هتى ؛ ثم سفر الفتاة البائسة
فى غير جدوى ، للحاق بحبيبها ، ثم قتلها لابنها ، ثم محاكمتها
والحكم عليها ، ثم تدخل الواعظة الشابة ديننا التى تعد الحاططة
البائسة للموت . غير أنى أتساءل لماذا عمدت جورج إليوت
إلى مراعاة الذوق السكتورى ، بإدخالها فى آخر لحظة عنصراً
ميلودرامياً سر تخفيف العقاب بمساعى الشاب الذى أغواها
وأخذ يحطم الندم ؟ ولماذا تحرص كل هذا الحرص على أن
تكون هتى جميلة جداً ؟ لماذا تعنى قبل كل شىء لشخصيات
من الرجال فى حين أنها بعيدة كل البعد عن عقلية الرجال ؟
ثم لماذا تريد أن تعظ ؟ ولست أدعى أن وعظها الأخلاقى

ليس وعظاريها : انها تبين ان الألم وحده هو الذى يسمو
بالنفس الانسانية وأن الخطيئة التى يرتكبها فرد تقع على كاهل
عدة أفراد أبرياء . ولكنى أرى أن عيها الأكبر هو أنها
تعرض رأيها بصراحة بدلا من ان تدعه يتسلل إلى القارىء
على مهل ، بدون ان يحس . . .

ولا شك ان أعظم مؤلفاتها روايتها « الطاحونة على الفلس ،
او القسم الأول من هذه الرواية على الأقل ، حيث تحدثنا عن
طفولتها فى شخصية ماجى تلتفر . فإنه لمن النادر أن تجد
دراسات سيكولوجية عن طفولة البنات تضارع هذه الدراسة
عمقا وجمالا . ومن رواياتها « سيلاس مارز » وهى تحتوى على
صفحات جميلة تصور حب الطفل .

وهناك عدد كبير من المؤلفين ممن هم دون جورج إليوت
قيمة ، وان كانت اتجاهاتهم واقعية هم أيضا ، نذكر منهم ترولوب
(١٨١٥ - ٨٢) ، وهو موظف ، منظم ، مبالغ فى التدقيق ،
كان عاقلا فاقصر على وصف الأشياء التى يعرفها معرفة تامة .
وقيمته فى نظر الناس تزداد يوما بعد يوم . وهناك أشخاص
آخرون لا يستحقون الابقاء جزئيا . فنحن لا نقرأ الآن من
مؤلفات « بلور ليتون » (١٨٠٣ - ٧٣) إلا « أيام يومئذى

الآخيرة، وذلك لموضوعها لا لشيء آخر، أما سائر رواياته فقد طواها النسيان. وكذلك كان مصير تشارلز ريد، فقد أصبح الناس لا يذكرون له الا كتابا وحيداً، هو رواية تاريخية بعنوان «الدير والمنزل». وأخيراً لا بد ان تذكر بالخير صديق ديكنز، ويلكى كولنز (١٨٢٤ - ١٨٩) الذي كتب أول رواية بوليسية جديدة بهذا الاسم، وفي رأيه انه لم يكتب أحد بعدها رواية أبرع منها، وان كتبوا روايات أقصر وأدنى الى الایجاز

٤ - الشعر الثكتورى

سيدا الشعر الثكتورى هما تينسون، وبراونج. ويختلف كل منهما عن الآخر أشد ما يمكن ان يكون الاختلاف بين شاعرين، في الطبع، والميول، والآثار.

أما تينسون (١٨٠٩ - ٩٢) فهو رومانطيقي معتدل، حاول ألا يجرح أحداً قط. وله من شعوره الموسيقى ما يجعله أهلاً للخلود. فأسلوبه كامل لا يمكن ان يؤخذ عليه نوع من انواع النقص. بل إنه لمسرف في الجمال. ورغم ان شعره لا يهز قلبك فإنك تصفقه. فكذلك الحال في أحسن قصائد شبابه أعني «آكلة اللوتوس»: أغنية ماتزال تضوى وتروق. ثم تضوى

وترق ، في أفواه أناس أكلوا زهرة اللوتوس فأصبحوا
لايصون الى غير الراحة .

أما فكر شاعرنا فهو فكر سطحي . إنه بريطاني بأضيق
معاني هذه الكلمة ، سواء حين يمضى واعظا داعيا الى العمل
في قصيدته « يوليس » ، وإلى الطهارة في « قصائد الملك » ، أو
حين يتغنى بالنبل الانساني في قصيدته « إنوك آردن » ، وهي
اكتيب وأبلد قصائده القصصية . اما حين يدع هذه النعمة فانه
يذبح : شيقا ولايخلو من فراهة وخبث ، كما هو الحال في قصيدته
« الأميرة » ، وهي ملحمة لطيفة يتخللها تحامل على المرأة لاذع .
على ان شاعرنا يعنى بالموسيقى والاوزان عناية عظيمة تكاد
تخفي سطحيته ، واذا قرأنا قصيدته « مود » ، وهي ترديد طويل
لافكار إنسان نصف مجنون يصرخ تارة صرخات الالم ،
ويرق تارة أخرى لذكري غراميات ماضية ، اقول اذا قرأنا
هذه القصيدة رأينا فقرات بلغت ذروة الجمال الموسيقي إلى جانب
فقرات طويلة مملّة تضرب على وتر التوبة والدين . ملي انه
لايخلو من العمق من حين الى حين ، لكننا نراه في هذه الحالة
رتيبا مضطربا ، كما هو الحال في قصيدته « في الذكري » ، وهي
نجوى طويلة تصف لنا الازمة التي احدثها في نفسه موت صديقه

هلام ، فتتعب القارىء بتفكك صواتها وبعودة مترددة إلى
تناوب الشك واليأس . . . ولكنه يعرف كيف ينحت الشعر
وكيف يصقله .

وتعد «قصائد الملك» أضخم آثاره ، وقد نظمها على مهل ،
وهي مجموعة أساطير أرثورية يبدوها شاعرنا بالتغنى بجمال
الجسد . فأحب أبطاله إلى نفسه هنا هي جنيفر التي شفاهها من
نور ، ولانسيلوت التي تجر ذبول ثيابها الزاهية من بين سنابل
القمح . ولكن الاعتبارات الاخلاقية ما تلبث أن تجتاحه .
وهو يظل يخلق في ذرى الشعر الحق مادام يقص رؤيا القديس
جرال ، حتى إذا أخذ يمجّد فكرة الصفوة التي يقودها زعيم
يمتاز بقيمة أخلاقية رفيعة ، هبط وأسف ، ولم يدرك
حق الإدراك ما في حكايات «المائدة المستديرة» من قيمة
انسانية مؤثرة

سيظل تنيسون الشاعر المفضل عند من يحبون الشعر
السهل والموسيقى السهلة . وله مقطوعات قصيرة (مثل
«الساقية» وغيرها) ، إذا ضممتها إلى بعض المختارات المستخرجة
من «القصائد» ومن قصيدة «في الذكري» ، أمكنك ان تؤلف
منها ديواناً مثالياً يقرؤه الرجل الانجليزي المتوسط .

ولا كذلك روبرت براوننج (١٨١٢ - ٩٨) فهو بطل طائفة محدودة من المعجبين.

هو من عائلة بورجوازية ميسورة الحال ، لم يعرف هموم المال ، واستطاع أن يعيش مستقلا ، وأن يقف وقته وجهده على الدراسة والشعر. وقد سافر كثيرا. حتى لقد كانت إيطاليا وطنا ثانيا له

والحادث العاطفي الوحيد في حياته هو زواجه بالشاعرة الذائعة الصيت اليزابث باريت (١٨٠٦ - ٦٠) وكانت صحتها مرهفة جدا، فعاشت معتكفة. وقد استحقت الخلود بقصيدة فلسفية طويلة بعنوان « الفجر » وبعض القصائد الغنائية التي تحيي جو القرون الوسطى. هذا إلى سلسلة رائعة من الأناشيد الغرامية وبعض مقطوعات المناسبات التي تحس فيها روح الاستياء. فن هذه المقطوعات مقطوعة بعنوان « صراخ الاطفال » تستنكر تشغيل الصبية وترجع أصداء القصيدة المشهورة « أغنية القميص » لتوماس هود (١٧٩٠ - ١٨٤٥) وعلى أن شاعرنا براوننج كان سعيدا في حياته ، سعيدا في حبه ، فقد ظلت نفسه قلقة معذبة. ويظهر ان نظم قصائده كان عنده مهمة شاقة صعبة. لقد اراد أن يكون تركيياً

في لغة تحليلية ، أراد أن يكتب الانجليزية كأنها اللاتينية .
ومن هنا نشأ الغموض الذي يلاحظ في قصائده . ولكن
الجدد كان خليقاً بأن ينجح ، فاستطاع براوننج في لحظاته السعيدة
ان يخلق لغة خاصة به ، وبرهن على أصالة عظيمة في التعبير
عن أفكار فلسفية أو دينية ليست بحد ذاتها أصيلة ولا عميقة .
كثيرا ما يعوزه الوحي والإلهام الشغرى . ولولعه بالدقة
وحبه للتفاصيل الصغيرة المألوفة يسوء قريضه ، حتى ليصبح
أشبه بالنثر . أما النكتة عنده فهي فظة غليظة ، وأنى لمثله أن
يضحك أو يبتسم ! . . إنه دائم التوتر والضيق والبرم . وهو
لا يوفق إلى شيء من وثبات شيللى الصوفية إلا حين يتحدث
عن الحب والموسيقى .

ويجب أن نقسم آثاره إلى أقسام : بحوث مفككة لا تكاد
تقرأ ؛ - ثم مجموعات أقرب إلى النفس مثل « رجال
ونساء » ، و « أشخاص الدراما » ، ولا سيما تلك المحاورات
الداخلية الدرامية التي تصور لنا شخصا يخرج من أعماق
التاريخ ليعرض لنا نوع حياته وماضيه وآماله ؛ - ثم آثاره
الحالدة التي تصور بعض أحلام اليقظة ، وهي تتميز بنوع من
الرمزية الغامضة ، ولكنها توحى بصور حية مثل « الطفل

رولاند يأتي إلى البرج المظلم ، . وهناك أخيراً مقاطع من
« بيا ، و « فيفيني ، هي من الشعر الحق الذي يأسر النفس وينهض
بها إلى سماء عالية .

تحت هاتين القمتين ، الضاحكة أو لاهما والقائمة ثانيتهما ،
هناك سلسلة من الهضاب نذكر منها الرومانطيين المتأخرين
بيلز (١٨٠٣ - ٤٩) وهو شاعر متشرد نشر درامة مقاربة
على طريقه وبستر ، مشوبة بشيء من السخرية على طريقة
مفتوفيلس ، والثاني دارلي ، وهو شاعر مريض بأعصابه
نشر قصائد تبلغ فيها الحماسة حد الجنون . وهناك أيضاً شاعر
يدعى فترزجيرالد اقتبس رباعيات عمر الخيام (١٨٥٩)
واستطاع أن ينقل إلينا ذلك الجو اللذيذ من التشاؤم الشرقي
حتى أصبحت ترجمته أو قل اقتباسه كلاسيكياً

ولنذكر كذلك الشاعر الصوفي كوفتري پاتمور (١٨٢٣ -
٩٦) الذي كان لارتداده إلى الكاثوليكية دوى كبير ، وقد
تغنى بماطفة الحب الزوجي على الطريقة المسيحية . ولا بد أن
نذكر أيضاً ماثيو آرنولد الذي كان شاعراً وناقداً ، ولشعره
ونقده كليهما قيمة عظيمة . وكان متأثراً بكيتس ، فكان يجب
الجمال القديم ، إلا أن العفة الفكتورية قضت عليه بأن

يكبت نزواته ويضبط ميوله . وما أكثر ماترى فى آثاره من
تزمت أكاديمى . إلا أنك تحس وراء هذه الصفحة الهادئة
من شخصيته المتأنقة وجود روح قلقة معذبة ، وهذا ما يتجلى
خاصة فى « إضراب دوغر » وهو أحسن آثاره ويمكن أن
يتخذ آرنوله مثالا مؤثرا للشاعر الذى حاول أن يكبت
طبيعته الشعرية .

وأخيراً ، إلى جانب هذه السلسلة الرئيسية من الجبال ،
هناك كتلة مستقلة ذات جمال خاص ، تتألف من طائفة الشعراء
الذين يدنون بمذهب « ماقبل رافائيل » . إنهم مصورون
أرادوا أن يعودوا إلى البداية الطليان ليستأنفوا واقعيتهم
الدقيقة التى تهمل المجموع فى سبيل دقة التفاصيل . إنهم
مصورون فى الشعر كما فى التصوير . زعيم هذه المدرسة هو
داتى جبريل روزيتى (١٨٢٨ - ٨٢) وهو ابن إيطالى
مبعد أقام فى إنجلترا وظل يحن حيننا قوياً إلى بلد أهله .
وهو تليذ كيتس ، وقد كتب عنه دراسة عميقة مطولة .
وآثاره الأساسية بمجموعة من السونيتات نشرها فى كتاب
بعنوان « منزل الحياة » ، وفيها يتغنى بالحب الشوانى والصوفى
ويعجد لذة الجسد والروح . ولكن قراءة هذه الأناشيد
ليست بالأمر السهل ، لأن التعبير غامض والموسيقى أخاذة

إلى درجة أن كل سونينة أشبه بنشيد سحرى لا ينكشف
معناه إلا باتباه وتدقيق .

وقد عاش روزبى فى أذهان الناس بمقطوعاته القصيرة
الرائعة التى تحاول أن تعبر عما لا يعبر عنه . إن استخدامه
الموفق للترديد فى قصيدته « الأخت هيلين ، يجعلك تستشعر
القلق وتحس توقع الشر المستطير والموت المحوم ، كما أن هذه
البساطة المقصودة وما يعمد إليه الشاعر من تقطيع الأوزان
فى قصيدته « الأنسة المقربة ، يجعل من هذه القصيدة رؤيا
حقيقية للجنة : فكانك «السعيدة» وقد مالت إلى الحاجز السماوى
الذهبى ، وعلى ذراعيها ثلاث نبات ، وفى شعرها سبع نجوم ،
وهى تسكب الدموع فى الفضاء بينما الملائكة يعبرون الهواء
الساكن . إن روزبى رجل من عباد الجمال يعيش فى العصر
البورجوازى . إنه شهوانى من سكان الجنوب ينفى إلى الشمال
حيث البرد والصقيع .

أما أخته كريستيلنا روزبى (١٨٣٠ — ٩٤) فروحها
روح دينية ، وقد آثرت حياة الزهد على سعادة الأرض ،
وبالغت فى عقل وثباتها العاطفية ، فوجدت الحب الإلهى على
حساب الحب الإنسانى . إلا أنها نظمت حكاية خيالية رائعة

على أوزان متنوعة سريعة بعنوان «سوق المسكرة» ، وهي من الخيال الذي يذكرنا بآرييل .

والانجليزى الوحيد من أبناء هذه المدرسة هو وليم موريس (١٨٣٤ - ٩٦) ، وهو رجل فن وعمل ، وقد فاز بإعجاب الجماهير وجها بفضل قصيدة بعنوان « أخبار من لا مكان ، ، وفيها ينادى بالعودة إلى عهد الصناعة اليدوية الخلاقة للجمال .

غير أن قراء شعره أقل من قراء شعر روزيتى . وهو يسرف فى هذا الجو الخريفى وتلك السكآبة الفنية الغامضة ، وتلك النظرات التى تحاول أن ترى ما وراء العالم . ومن آثاره « الفردوس الاخضر ، وهو عبارة عن أربع وعشرين أسطورة مقتبسة عن العصر القديم والقرون الوسطى . إلا أن خير آثاره سلسلة القصائد الارثورية (الدفاع عن چنيشفر ، فبر الملك آرثر . الخ) وفيها حاول أن يرسم لنا صورة حية لوجه چنيشفر المؤثر .

جديدة بعنوان « اركشوس » وسلاسل أخرى من القصائد
والسونينات أقل حدة من سلسلته الاولى ، وأكثر موسيقية
منها ، وكتب كذلك أناشيد في تحرير إيطاليا وقصائد أثرية
(تريستان اللاؤفي) « وحكاية بالن » وفيها نرى الحب يحترق
احتراق شعلة ملتهبة : وكان يكتب بسرعة عجيبة فلما نعى إليه
بودلير (كذبا) كتب على الفور قصيدة رثائية رائعة بعنوان
« تحية ووداعا » .

وقد اعتدل مع السنين ، واستقر قريبا من لندن ، واعد
شاعر زمانه ، واكتفى بعد ذلك بالتغنى بقوى الطبيعة ولا سيما
البحر .

كان سوينبرن في السياسة أرسقراطيا ثوريا ، وفي الفلسفة
من عباد الجمال الحر ، وفي الشعر صورة عن شيلى ، ولسكنها
صورة دنيا . إنه آخر رومانطى كبير . وهو يدين بشهرته
لما توفر له من ثروة لفظية وموسيقية عظيمة . ولكن لهذه
المزايا نفسها عيوبها . فهو يتعب القارىء إذ يلقى به فى غمرة
من الموسيقى الصاخبة تفقد الالفاظ معناها ، حتى ليصبح شعره
فى بعض الاحيان أصدااء صوتية لا أكثر .

بين كافة آثاره الطويلة هناك أثر واحد فقط ، كامل فى

نوعه ، أعنى « آتلانت » الذى تسمع فيه ألحان الصيد الراقصة ،
وأصوات احتضار ملياجر المضناة . وله إلى جانب ذلك ، حين
يستطيع أن يحد نفسه ويستسلم لإلهام اللحظة ، آثار باقيات
مثل « ايتلوس » ، ونشيد بلد الأحلام ، و« حديقة مهجورة » ،
و« الأشعة القوس قرحية » . ولئن كانت جرأته الجنسية تبدو
لنا الآن باهتة فإن أوصافه (ولا سيما أوصاف البحر) ،
وكذلك موسيقاه الراقصة تحتفظ إلى الآن بكامل قيمتها .

لقد كان سونبرن الشاعر الأخير الذى فاز بالإعجاب
الشعبي و آثار حماسة الجماهير ، وبعده أفل نجم الشعر وراء
الرواية وأصبح ترفا تنعم به الخاصة .

جيمس تومسون (١٨٣٤-١٨٢) : هو شاعر التشاؤم ، ترغرع
فى مؤسسة خيرية ، وفقد خطيبته وهى صبية ، وسرعان ما
ركبه موت حبيبته فى صورة من المس المرضى . وظل طول
حياته ، فى كل قصائده ، يعنى الموت ، ويعنى أخاه الحب . فما
قصيدته المنتشرة « سيدة الألم » ، أو قصيدته التصويرية « سيدات
الألم » ، أو قصيدته الحافلة بالخيالات والأشباح « أرق » ، إلا
ترديد لكلمة : موت ، موت ، موت . ونرى هذا الباعث
يعود فى قصيدة له ، رمزية طويلة ، تذكرنا بدانتى ، أعنى « مدينة

الليل الرهيب ، : نحن هاهنا في مدينة من الظلمات يطوف فيها أشباح وأحياء يتألمون لفقدان أو هامهم ويعبرون عن بأسهم ببسمات ساخرة أو بآهات ودموع ، فأما الذين سيكون فيدهم الشاعر على نهر الانتحار حيث يلقون الموت ليناً الهيباً ، وأما الذين يتمردون فيدهم الشاعر على تمثال الكآبة الضخم الذى يسيطر على المدينة ، ويعلمهم ديانة الصبر والاذعان والاستسلام . ليس هناك ، حتى في الأدب الالمانى ، حلم يفوق بفضاعته حلم مدينة الليل .

وهناك شاعر آخر يكاد يكون سميًا لشاعرنا هذا هو فرنسيس تومپسون (١٨٥٩ - ١٩٠٧) : هو أكبر شاعر كاثوليكي في الأدب الأنجليزى . عاش حياة بؤس وشقاء في شوارع لندن ، يتسول وينام على الارصفة وفوق الجسور ، ويحاول أن ينسى آلامه بتعاطى الأفيون . وقد أتاحت له تضحية مسز اليس ماينل (١٨٥٠ - ١٩٢٣) هذه الشاعره المرهفة التى غنت ايجاد ، الخلود أن يعرف شيئاً من الراحة والهدوء خلال بضع سنين . وأكبر آثاره قصيدة « مطاردة السماء » وهى تصف نفسها خاطئة يطاردها اللطف الإلهى وهى تعدو أمامه مذعورة إلى أن يدركها أخيراً ، فترتد إلى الإيمان . ويصل

الشاعر في بعض أجزاء القصيدة إلى حد الجلال فوق الجمال .
وحتى حين تكون الايات مثقلة بالزخرفة ، فإن تومپسون
يعرف كيف يجد الإيقاع الذي ينقل إليك ، إذا أنت
استسلمت له ، رعشة الصلاة الصوفية .

وانا لنجد هذه الصوفية نفسها بعد ذلك عند كبار شعراء
النهضة الإيرانية .

وزعيم هذه الطائفة من كبار الشعراء و . ب . بيتس (ولد



عام ١٨٦٥) . ورت القصائد الإيرلاندية التي تصور تلك المقاطعات البعيدة التي تجرى فيها السواقي على سرر من مرمر وفيروز ، وتكسى أطيارها ريشا من ذهب . إن قراءته لبلاك وشيلي قد أيقظت في روحه السلتية رؤى الأجداد : رؤى الجنيات ترقص على العشب الأخضر ، رؤى الأشباح البيضاء تتسلل ، أيام الشتاء ، على صمت ، في الغصون الجرداء ، رؤى الحيوانات التي أوبارها من أشعة الشمس وخيوط القمر تقتاد الصياد إلى قصور مسحورة ، رؤى عذارى البحر وبنات البحيرات ، اللاتي يغنين جمال قصورهن البلورية أو يغنين حينهن إلى الأرض .

وعندئذ تغني بيتس برجال بلده الأصلي ومناظره ، غنى سوق سليجو ، وجزر بحيرة إنيسفري ، والبجمات الوحشية في لوكول . وحسبك أن تقرأ له هذه الأبيات حتى تحس بغلبة العنصر الإيرلندي في شعره :

حين تصبحين عجوزا هزيلة شائبة
فتميلين برأسك إلى النار تستدفنين ، افنحي هذا الكتاب
واقترني ببطء . . وارخي لخيالك العنان . . وتذكرى
تذكرى النظرة الحلوة التي كانت لعينيك

وتذكرى ظلالها العميقة . . .

ما أكثر الرجال الذين أحبوا لحظات رشاقته المرحة
ما أكثر الرجال الذين أحبوا جمالك ، كذبا أو صدقا

إن واحداً فقط أحب فيك روحك المغتربة

واحد فقط أحب أحزان وجهك المتغير

وكان يتيسر يجب أن يوظف في الروح الإيرلاندية تعشق

الجمال الماضي ، فكتب درامات غنائية للتشيل ، يظرفها تأثير
مترلك بوضوح ، منها « الكوتيس كائلين » ، وهي تصور

فلاحة إيرلاندية جلست وحيدة في كوخها تدير طاحونة
يدوية . والسكون يشمل الغرفة . وأشباح الأشجار تظهر وراء

البلور المصفر ، والنار تحترق بهدوء حزين . وكل شيء يدل على
أن مكروها سيقع . ويقع المكروه . إنهم يدخلون من

الشباك متخفين في زى تجار من الشرق أرسلهم سيدهم لشراء
نفوس الفلاحات البائسات الجائعات . وتستسلم الكوتيس

كائلين ، وتبيع بنفسها ، تبيعها غالية ، لأنها نفس بيضاء نقية ..
وبالثن يستطيع الشعب أن ينتظر انتهاء المجاعة

وفي درامة « على شاطئ بيل » ، يخرج يتيس على المسرح

البطل الاسطوري للبلحمة الإيرلاندية ، كوتشولان الذي

لاينلب ، ذا المعطف الذى نسجته من خيوط البحر سبع نسوة من « بلاد ماتحت الموج » . كان ينبغي أن يكون هذا البطل سعيداً ، إلا أن ألماً خفياً كان يحز في نفسه هو أنه ليس له ابن . وتختار إيرلاندة بطلها لمحاربة الغزاة . فيقتل في أثناء المعركة شاباً فارحاً القامة تحدها ، ثم يعلم أن ضحيته هي ابن له أنجبه من امرأة إيقوسية . فتنتابه نوبة من الجنون الصاحب ، فيندفع نحو أمواج البحر وقد استل لها سيفه ، ولأول مرة يجد البطل ما هو أقوى منه .

وأما « دايدر » ، فهي حكاية بسيطة مستمدة من الاساطير الشعبية القومية ، تروى ما كان من أمر الملكة دايدر حين تركت عروسها الشيخ ، الملك كونشوبار ، في يوم الزفاف ، ولأذت بالفرار لتلحق بحبيبها الشاب نيزى . ويمضى على فرارهما سبع سنوات ، يعودان بعدها إلى البلد لايساورها شيء من ارتياب . ولكن كونشولار لم ينس الفضيحة ولاغفرها . وينصب شركه ، فيقعان فيه . فيقتل نيزى شر قتله وتنتحر دايدر فوق جثمان حبيبها .

وقد كان لشاعرنا مدرسة . وليس بين تلاميذه من يمكن إهماله . وأبرز هؤلاء التلاميذ جورج رسل (١٨٦٧) ، وهو

لا يدانيه في الموسيقى الشعرية ولكن يفوقه عمقا . وأشعاره
مذاقة ، على الرغم من بساطتها الظاهرة . ثم إنه متأثر
بكتب الهند المقدسة . وهذا يجعل آثاره تفوز برضى
المفكرين أكثر مما تفوز برضى جمهرة القراء . وهناك عدد
كبير من شعراء الجيل الجديد أقرب منه إلى الفهم ، نذكر منهم
سوماس أو سليفان (١٩١٢) ، وهو وثى صوفي يخلق لنفسه
فردوسا خاصا ينحبس في حدوده ، ويسوده . إنه « ملك
الاحلام ، يعشق الشفق ويهيم بجو الشتاء - ثم أوستان
كلارك (ولد عام ١٨٩١) . وهو مؤلف ملحمة بنسوان
« انتقام فن » ، يتناول فيها ذلك الموضوع الخالد ، موضوع
المرأة التي لا تريد أن تهرم - وأخيرا جيمس ستيفنس
(ولد عام ١٨٨٢) ، وهو شاعر ناثر بل قل مستسلم ،
يصب على الآلهة أفزع الشتائم وأمرها وأوقحها ثم يتحدث
عن الجنيات حديثا مدهشاً في غير أدب . أول ديوان له هو
« معضيات » ، وهو يحتوي على مقطوعات « بذبة » رائعة
منها قصيدة تصور الله ، وقد كل من أعمال اللطف ، ينحني
من فوق السماء ليرى من أين تأتي تلك الصرخة الأليمة التي
وصلت إلى أذنه .

« فوجد في حفرة ، بالقرب من مدينة — امرأة بأعمال ، جامعة ، جائية إلى جانب طفل ميت : لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً — ما تم فقد تم ، وعاد الله حزناً إلى سمائه التي من ذهب وعاج . وفيما هو يجلس — صعد إليه فجأة — من القاع الذي كانت تنتحب فيه المرأة — صوت الشيطان العميق يقول « يالك من إله مسكين ! »

بعد هذ الصوفية السلطية تقفز فجأة الى نزعة مادية سكسونية ، يحمل لواءها كلنج . (ولد عام ١٨٦٥) . إن كلنج رسول النزعة الاستعمارية . ولد في بومباي من أبوين انجليزيين ، وقضى طفولته في الهند ، ودرس في المتروبول ، وعاد إلى الهند صحافياً . وهو أول شاعر كبير من المستعمرات . يتغنى في قصائده بالسلالة الانجليزية ، هذه السلالة القوية ، المصطفاة ، المتفوقة ، التي يجب عليها ان تحضر الشعوب الخاضعة لها بالرغم منها . ثم لا حقوق فردية . فقوانين الجماعة يجب أن تسحق الفرد . والنظام عسكري أخلاقي ديني . إن كلنج طبعة أخرى من كارليل مزيدة منقحة .

إن شعره يهز العضلات والأعصاب أكثر ما يمس القلب أو الفكر . إنه يؤثر كما يؤثر اوركستر نحاسي قوى . انه يتناول موضوعات أرضية مسفة ، ويعالجها بلغة من لغات السوق . ولكن ، من هذه العامية نفسها يخرج نوع من الجلال المدهش

ففي « أغاني الجند » نقرأ مقطوعات تهز الخيال، وتستثير الحماسة. على أن هذه الحماسة وقتية، فسرعان ما يحتاج العقل. والأغاني التي نقرأها في « البحار السبعة » و« الأمم الخمس » أرفع من تلك، ولا سيما البلاد الشعبية والأوصاف البحرية. ويضعف كبلنج في بعض الأحيان فما يسمعك إلا ألفاظا فارغة مجلجلة. ويمكن أن نقول بوجه العموم انه ليس لأنار كبلنج الشعرية قيمة إنسانية، وقد يلي أكثرها لهذا السبب خاصة. إن كبلنج أشبه بشاعر انجلوساكسوني لم يعرف الغزو النورماندي. وقد كتب في الأيام الأخيرة قصائد لا تخلو من نبرة إنسانية. ولكن شعره اذا تخلص من وحشيته وسوقيته فقد ما يمتاز به من وثب. انه يحمل طابع « العهد القديم »، وقد ظلت روح « العهد الحديث » غريبة عنه. أما شهرته العالمية فهي تستند الى آثاره الروائية أكثر من استنادها الى دواوينه الشعرية.

ومثل هذا يقال عن توماس هاردى (١٨٤٠ - ١٩٢٨) الذي اشتهر في أواخر حياته من الرواية فنظم بعض القصائد الغنائية، وتمتاز هذه القصائد بأنها مصقولة الى درجة الكمال، وفيها عرض تشاؤمه المر. فهو يرى أن الانسان عاجز طريق، طريق كبير مظلم، يمشي الإنسان فيه وييده مصباح، لكن النور ضئيل والظلمات كثيفة.

وبعد فالتحدث قليلا عن شعراء الرعيل الأخير .
روبرت بروك : (١٨٨٧ - ١٩١٥) أكسبه موته البطولي في



توماس هاردي ١٨٤٠ - ١٩٢٨

الدردنيل شهرة عظيمة لعل قضائه البارعة لانكفي
لتحصيلها ، - لاسيل أبركرومي (ولد عام ١٨٨١) وريث
دون ، وسونبرن ، يمتاز بقوة لفظية رائعة - ادموند بلوندن
(ولد ١٨٩٦) : مثقف جدا ، قرأ كثيرا من الآثار النادرة
حتى يصعب عليه أن ينساها دائما في شعره ، ولكنه أقام

في اليابان مدة طويلة ، فأوحى اليه ذلك بكثير من الصور الفكرية الجديدة ، وفي رأي أن القصائد التي ختم بها كتابه « أصوات الحرب الخافتة ، تساهم ببساطتها في جعل هذا الكتاب أجمل كتاب انجليزي في الحرب .

ومن ينتسبون إلى مدرسة كيلنج :

الفريد نويس (ولد عام ١٨٨٠) : شعره بسيط ، يستطيع أن يتذوقه الجمهور . وقد تغنى بالمغامرة ، وأشاد بالمغامرين - جون مانسفيلد (ولد عام ١٨٧٤) لا يقل عن زعيمه قوة في تصويره للبحر . ويفوقه شعوراً بالسر والالاهية . وعبقريته متنوعة جداً . حتى يمكن أن تعد قصيدته « رينارد الثعلب » ملحمة للريف الانجليزي جدية بتشوسر .

وبين شعراء الأناشيد والأحلام يلمع والتردي لامار . وهو أكبر شعراء الطفولة على الإطلاق ، يعرف كيف يمتلئ دهنشاً ، وكيف يقرب العالم الواقعي إلى عالم من الجن والخيال . فتأتيك حكايته من غياهب الالاهية المظلمة .

وقريباً منه يقيم جون فريمان (١٨٨٠-١٩٢٩) وقد بزغ في تصوير الشفق والاشجار والأزهار ، واستحضار ضروب القلق والرعب المفاجيء الذي يسببه اقتراب العاصفة

أو اقتراب الليل . ويذكرنا شعره العارى الموسيقى بسونبرن
أكثر مما يذكرنا بشيلي .

وبين الشعراء الرقاق ورسل الدعوة إلى الفن للفن
يبرز روبرت بروجز (٨٤٤ - ١٩٤٠) : شاعر نضر يذكرنا
بتشوسر ، فما أروع حين يصنئ إلى الأصوات الخفية التي
تولدها شمس الصيف بين أوراق الأشجار ، - ثم ولفرد
جيسون (ولد عام ١٨٧٨) وهو حين يدع الإنسان ويصف
الطبيعة يزداد توفيقه زيادة عظيمة .

وأخيراً نستطيع أن نذكر بين شعراء الانحطاط ،
و« نظرية المستقبل ، ستول (الإخوة والأخت) الذين يقرؤهم
كثير ويفهمهم قليل . ثم هربرت ريد (ديوان شعر) : لكأنى
به يفكر نثراً . وهو يعبر عن فكره باستعارات غامضة
تتلاحق في أبيات حرة إلى أقصى حدود الحرية - وأخيراً
ت . س . إليوت (قصائد ، ١٩٠٩ - ١٩٢٥) : أمريكي الأصل
يحاول أن يظهر التناقض الدائم بين المثل الأعلى والواقع ،
ويتهى في الغالب إلى صور غريبة : « إن القمر يسطح
فوق مسز پورتر وابتها - إنهما تغسلان أقدامهما في الماء
الغازي . »

٢ - البعث المسرحي

كان العصر الفكتورى فقيراً غاية الفقر فى التأليف الدرامى ، ذلك أن المسرح من شأنه أن يعالج موضوعات جريئة ، فى حين أن الحشمة كانت جائمة على كاهل العصر الفكتورى . وقد حصل رد فعل لهذا فى أواخر القرن التاسع عشر ، فرأينا الدراما تزدهر ازدهاراً رائعاً ، إن لم يصح قياسه بالازدهار الدرامى فى عصر اليزابث ، فهو يذكر بازدهار عهد الإصلاح وعهد الملكة آن .

واشهر مؤلفى الدراما فى هذه الفترة أوسكار وايلد (١٨٥١-١٩٠٠) وهو خير مثال للأديب المستهتر الفاجر الذى يدعو إلى التحلل من الاخلاق . إلا أن شيئين يشفعان له : أنه فنان من الطراز الاول فى النثر والشعر على السواء وأنه كفر عن آثامه بالآلام قاسية . فقد أدت به أخلاقه المنافية للطبيعة أن يحكم عليه حكماً لا رحمة فيه بالسجن والاشغال الشاقة مدة سنتين . وحتى آخر حياته ظل فى رأى المتشدين بالفضيلة من أهل جزيرته الكائن المرذول الذى لا يجوز أن يلفظ اسمه . وقد فقد فى السجن ما تبقى له من

أخلاق . فلما خرج منه غرق في حمأة الفسق والفجور .
ومعاقرة الخنزيرة حتى ذقنه ، وراح يضرب في شوارع باريس
على غير هدى ، مستخدماً ما تبقى له من ذكاء في « النصب »
على أصدقائه واستلاب بعض المال الذي سرعان ما كان
يبدده .

وقد خلف لنا حكايات خيالية ، على أعظم جانب من فنته
الأسلوب وكال الفن ؛ — وفصيحة فيها بساطة مقصودة ، أعنى
« بالاد سجن القراءة » ، وهي متكلفة من ناحية الشكل ولكنها
صرخات من أعماق القلب — ؛ ثم مرافعة طويلة بعنوان « من
الأعماق » ، في تفكيكها نفسه ما يهز القارىء ويحرك مشاعره .
— وروايتين خالدين « جريمة لورد آرثر سفيل » و « صورة
دوريان جراى » ، التي تعبر عن نزعة الجمالية ورغبته في التمتع
والتلذذ ؛ — ثم عدة ملاء ذات نضارة وفتوة لا تضارع .

وبفضل مسرحياته إنما فرض وايلد نفسه على الجماهير .
وبفضل مسرحياته إنما تزداد شهرته وستزداد مع تعاقب الحقب .
من مسرحياته درامة رمزية غريبة بعنوان « سالومى » تحاول
أن تنقل الينار عثة شهوانية فظيعة ، ثم مسرحيات خفيفة تمتاز
بالمفارقة وتصفف بالبعد عن المعقول ، وفيها سخر مر ،

ولسكن لئن أعوزها الغنى النفسى فان صياغتها الفنية قد بلغت حد الكمال ، كما أن حوارها يجرى جريانا لينا هينا لا بد أن يقع المشاهد في إسهاره مهما يبلغ من الخيطة. وأكثر هذه المسرحيات هزلية بالمعنى الرفيع للكلمة مسرحية « مروحة اللادى وندرمير ، وهى لا تخلو من عنصر خيالى مؤثر (تقوم بأجل أدوارها امرأة مغامرة أو على الأقل تعتبر كذلك) كما أن أكثر هذه المسرحيات هزلية بأحط معانى الهزل مسرحية ، أهمية أن تكون جادا ، وهى أقرب الى المسخرة منها الى الملهاة أو المهزلة. ولكنها مسرحية موفقة جدا تدل على مدى معرفة وايلد بضرورات المسرح .

لقد جدد وايلد الملهاة الانجليزية ، ولم يرد أن يجعلها سبيلا الى النظريات الفلسفية والتأملات الاجتماعية ، وإنما أراد قبل كل شىء أن يضحك وأن يفتن .

والى جانب وايلد يجب أن نتحدث عن مواطنه برناردشو (ولد عام ١٨٥٦) الذى يظهر بمظهر المفكر المحطم للأصنام . وقد دأب على الهزء بجمهوره ، وتقبل هذا الجمهور هزأه به وسخره منه بدون أن يشعر أن الرجل انما يهدف إلى ماله قبل كل شىء .

قال عن نفسه « لقد خلقت مہرجا ، وكان في وسعه أن يضيف إلى ذلك : « لقد خلقت متمرداً ، ومهما يقل عن نفسه إنه اشتراكى فهو في حقيقته فوضوى .

ولد في دبلن ، وعاش طفولة كامدة ، وترك المدرسة في الرابعة عشرة من عمره ، واشتغل كاتباً صغيراً في مكتب وكيل قضايا ، ثم لحق بأمه في لندن ، وثقف نفسه في المكتبات العامة ، وقرأ كارل ماركس ، وأصبح له اسم بين الأحزاب .

وفي هذه اللحظة كان يكسب قوته بعناء من كتابة النقد الفنى ، وكان يكتب روايات يقدمها للناسرين فما تلتقى منهم إلا الإعراض بدون رحمة . وكانت قراءته لابسن كشفها مفاجئاً له ، ففهم أن المسرح خير داع للآراء الجديدة . ولكي يحصل على النجاح بالقوة ويستميل اليه الجمهور ، لم يخالجه شك في ضرورة الشعبذة ، فأقبل عليها غير متردد . حتى لقد اعترف هو نفسه في صراحة مسكته « بأنه كان يقضى نصف وقته في خداع الشعب الإنجليزى بالإشادة بذكائه وخفة دمه وعمق تفكيره ، حتى صدقه الشعب الإنجليزى لسكثرة ما رددوه ذلك . ويمتاز شو بحضور البديهة إلى درجة خارقة للطبيعة ، ويمتاز إلى ذلك بأنه لا شيء يخرججه عن طوره ، لذلك يستطيع أن

يستمر على القيام بدور الطفل المرعب دون أن يلقي عقابا .
يهاجم شكسبير فيقول : لقد جعلتموه إلهًا وهو الذي
سرق فلسفته من موتى ، وتاريخه من بلوتارك ، وموضوعاته
من پانديللو . أنا أستطيع ان أكتب خيرا منه . وحين خرج
شو بكتابه « قيصر وكليوباترة » إلى الناس قذف به قائلا : خذوا .
إنه لأقوى من شكسبير . . . ولا « تفلقونا » بعد الآن بهذه
المجموعة من الحكايات التي تسمونها التاريخ . إن المخالفة للتاريخ
غير موجودة . ليس قيصر أكثر من جفروش^(١) هرم مبغض
للنساء . وليست كليوباترة إلا فتاة فاسقة ، وليس بطليموس
إلا فتى متوحش . ولنأت إلى القرون الوسطى . من هم أبطال
القرون الوسطى ؟ جان دارك فتاة طيبة تفيض عافية ، شهيدة
بروتستانتية ، امرأة عنيدة . ولنتقل إلى العصور الحديثة ! من ؟
بونابرت ؟ « ضابط قدر نهم » ، إنسان ساحر ، سبر حماقة النفس
الإنسانية ، فلم يعرف إلا غريزة عامة هي غريزة الخوف . أما

(١) من شخصيات كتاب «البؤساء» لفكتور هوغو . هو صبي يباريس
خفيف الظل ، حاضر النكتة ، ساحر ، لكنه شهيم كريم . وقد دخل سنة
في اللغة الفرنسية .

في الوقت الحاضر فإننا لا نتحدث عن الأبطال بل عن
العواطف العظيمة والمذاهب الكبرى . فلننظر قليلا .. الحب؟
كذب : لا تردد كانديدا في التخير بين زوجها الذي يمثل
هدوء الحياة اليومية ، وبين مارتشباتكس الجميل محب اللذة ،
الذي يمثل الشباب والمغامرة - ثم المجد الحربي؟ كذبة
أخرى : ها هو البطل الذي يجد نفسه على رأس الحملة يسدد
إلى فم حصانه حتى لا يقتل قبل الآخرين - الملك؟ أنظر إلى
شارل الخامس .. جبان .. ضعيف .. فظ .. ناكر
للجميل . - الدين؟ أنظر إلى القس الراعي جاردنز السكير
الاص ، أنظر إلى كاهن كنيسة ستوجنبر الغبي ، بل انظر إلى
بلانكو بوسنت ، القديس ، النبي ، الذي يسرق حصانا
ويتهم به غيره . العلم؟ ها هو الدكتور ريدجن الذي يستلطف
مسز دوبدت يقضى بالموت على المصور دوبدت ، إذ يعهد
به إلى زميل نصف مجنون .

وتنقسم الأصنام التي يحاول شو أن يحطمها في هذه المذبحة إلى
ثلاثة أقسام : Cant (ادعاء الفضيلة) و Shsam (الحشمة
المنافقة) و Snobism (الحماقة) . فهو يستأنف بعد قرنين ،
على طريقته الخاصة ، موضوعات « تارتوف » ، « ومريض

الوهم « والنساء المتفقيها ،^١ أما فلسفته فيمكن أن تلخص في عبارة واحدة : إن الطبيعة تتغلب دائما ، مع طول الوقت ، على المواضع الاجتماعية أو الدينية . وليس في مسرحه شيء من مرض . ولهذا كان بقاءه مضمونا رغم افراطاته وأخطائه الذوقية التي تلاحظ حتى في أحسن آثاره ، أعني « كانديدا » . وفي رأى أن هذه الافراطات والأخطاء مردها إلى أن شو يخشى ، ككثير من البريطانيين ، أن يكون مخدوعا ، فهو يقدم الينا مسرحا عقليا ، خاليا من كل عاطفة ، لأنه يخشى العاطفة . والواقع أنه لا يخشى العاطفة إلا لأنه في أعماقه عاطفي . وهو أحيانا يستسلم لبعض الاندفاعات العاطفية التي تدفق من شخصيته الحقيقية . ولكن سرعان ما يتوقف ويحمر وجهه خجلا ، ويخيل إليه أنه يسمع قهقهات ساخرة ، وعندئذ يقذف بسخرية لاذعة ، ليبرهن للناس على أنه لم يفقد رقابة على نفسه Self Controe : يقف قيصر أمام أبي الهول متأملا ، يبحث عن مفتاح اللغز ، ويتصور فكرة الأبدية . إن روحه لترتفع ، وإن عاطفته لتشتد . ولكن شو يخشى أن تنفجر شفتا أحد من الناس عن ابتسامة ساخرة ، فيسبقه إلى السخر ، فيجرى على لسان كليبواترة الصغيرة :

« هيه أيها السيد العجوز . . لا تهرب ، . وبذلك يضمن أن يكون الضاحكون له لا عليه . ولكن لعل وراء هذا الوجه المكشور ، إنسانا يتألم ويتعذب . .

وبعد فقد ساد الخيال الأيرلاندى وسادت السخرية الأيرلاندية على يد وايلد وشو اللذين هما من أنصاف الأيرلانديين . والآن ، على يد سنج (١٨٧١ - ١٩٠٩) الأيرلاندى الصريف ، يسود الشعر السلتي الصريف والواقعية السلتية الوحشية . وقد أثار سنج استنكار الجمهور البريطانى بدعوته إلى الحب الحر فى « ظل الوادى » وتزويته راهبا فى « عرس المبيض » ، وبامتناعه عن استنكار جريمة قتل الأب فى « بهلوان العالم الغربى » . وهو ساخر بوجه عام ، إلا أنه يصور فى الغالب قسوة القدر . فى « عودة شطر البحر » يسمعنا سنج أنات المرأة التى استلب البحر ابنها الأخير بعد أن ابتلع جده وأباه واخوته الخمسة . وفى « نبع القديسين » يحدثنا عن كفيفين يستردان البصر بفضل أحد القديسين فلما تم لها ذلك أحسا بشعور الخيبة ، إذ لاحظا أن رؤاهم مع العمى ، كانت أجمل من هذا الواقع البليد . ومن هنا يخرج الرمز : لا بأس أن ترى الواقع على نحو ما هو عليه ، ولكن يجب

أن نعرف كيف نهرب منه ، ونخلق في عالم الأحلام .
بعد سنج شهد المسرح الإيرلاندى فترة انحطاط . ولكن
عددا من الدراميين استأنفوا حمل الشعلة بعد الحرب العالمية
الأولى نذكر منهم سين أكازى ، وهو أشد واقعية من سنج ،
وقد عرض على المسرح مأسى الحياة الدبلنية إبان الازهاب
الانجليزى والحرب الأهلية . ومسرحياته الرئيسيتان هما ، ظل
حامل بندقية ، (١٩٢٣) و دجونون والطاوس ، (١٩٢٤) ،
وهما من عيون الآثار الأدبية بلا جدال ، وقل أن تجد مشاهد
تضاهى مشهد جونون الأم المتأللة وهى تيمم شطر ابنها الميت
وابنتها التى أضاعت شرفها وتستغيث برحمة الله ؛ ثم مشهد الزوج ،
العاطل عن العمل ، يدخل فور ذلك إلى المسرح ومعه صديقه
چوكر ، وهما يتأرجحان من السكر ويعربدان ، ثم يسدل
الستار عليهما وهما يهذيان .

وتشهد إيقوسيا اليوم ، بعد إيرلاندا ، حركة بعث مسرحى
قوية ، وهى حركة ماتزال فنية ، وليست بالأصيلة كل الأصالة .
إلا ان الأمل كبير فى جورج بلاك ، وهو أجرؤ الدراميين
المحدثين ، وأهم مسرحياته ، الأم ، (١٩٢١)
ولا تظنن مما قلنا أن انجلترا تقصر عن ايقوسيا أو عن

ايرلندة في هذا المضمار . فان فيها لطائفة كبيرة من المؤلفين تستطيع أن تزهو بهم أيا زهو . إلا انه ليس بين هؤلاء المؤلفين من اختص بالدرامة دون غيرها ، فقد قل الاختصاص عما كان عليه في السابق ، فرى سومرست موم (ولد عام ١٨٧٤) يستخرج أهم مسرحياته من رواياته وقصصه كما فعل بصدد دراميته القويتين « المطر » و « الرسالة » وهما تصوران الطبيعة القاسية التي كتب لها الظفر على الانسان . وحين يكتب موم للمسرح مباشرة فانه يظالعنا بملاه لا تقل جمالا وعمقا عن ملاهى أوسكار وايلد . كما أن له من تمسكنه من صناعته ، وعمق إحساسه بالوقائع وقوته وواقعيته ، ما يجعله واحداً من أكبر كتاب المأساة المشهورين الذين عرفتهم إنجلترا .

والى جانبهم نجد ج - م بارى (ولد عام ١٨٦٠) ومؤلفاته استمراراً للمهارة الخفيفة التقليدية العاطفية الفكاهية في آن واحد . ومن مسرحياته « پيتر بان » وقد استخرجها من إحدى رواياته وهى مسرحية خيالية أصابت قبولا حسناً ، رغم انها لا تهدف إلى أى غرض رمزى . وانما كل غايتها أن تثير عواطف الأطفال وتضحك الرجال .

أما الدراماة التاريخية فقد وجدت من استأنفها من أمثال

چون در نسکووتر (ولد عام ١٨٨٢) ولكن لم يستطع أحد أن ينجح في هذا النوع نجاحاً يذكر حتى لثري مؤلفاً بعينه يخفق في هذا النوع وينجح في غيره أياً نجاح . فمدرسية كليمنس دين المعنونة « ولیم شيكسبير » لم تصب نجاحاً كبيراً في حين أن مدرسية أخرى له ، قد أصابت النجاح العظيم الذي تستحقه أعنى مدرسية « قانون في الطلاق » ،

ولعل أعمق درامى من أبناء الجيل المهزوم هو جالسورثى (١٨٦٧ - ١٩٣٣) ويعد من تلاميذ إبسن والمؤلفين الروس ، وهو يقابل الفرد بالمجتمع (فى « العدالة » و « الاستقامة ») ويظفر فى إهاجة العاطفة ، واستثارة الرحمة بدون أن يلجأ الى الحالات النادرة . ولعل جالسورثى الدرامى سيعد فى المستقبل أعظم من جالسورثى الروائى ، لا لشيء الا لأن المسرح يقتضيه أن يركز فكره ويلتزم الإيجاز .

إن شعباً عنده شو وموم وبارى وجالسورثى ويتيس وأكازى هو شعب محظوظ إلى أبعد حد . وليس فى العالم بلد يتردد الناس فيه الى المسرح تردد البريطانيين .

الفصل السادس عشر

الرواية المعاصرة

١ - المهدون والأقطاب

لقد احتلت الرواية المكان الأول في الأدب ، سواء في إنجلترا وفي غيرها من البلدان . وبلغ عدد الروائيين الموهوبين في إنجلترا مبلغاً كبيراً . ومن الصعب علينا أن نختار بعضهم ونندع الآخرين ، لاسيما وأن الانجلوسا كسوني لا يهتم بشئون الشكل والفن اهتمام اللاتني بذلك .

وأعظم رواد الرواية المعاصرة كاتبان مثاليان يتمردان على واقعية جورج اليوت وعاطفية ديكنز في آن واحد . أما الأول فهو ميريديث ، وقد امتدحوه وأعلوا من شأنه إلى أعظم حد . وأما الثاني فهو بتلر وقد جهله مواطنوه جهلاً كثيراً . وأصبح من الممكن الآن أن نعيد التوازن .

ولد جورج ميريديث عام ١٨٢٨ من أبوين جالين . وقد رحل في شبابه إلى المانيا وتأثر بها تأثراً عظيماً . إلا أن ذلك لم يمنعه في عام ١٨٧٠ من الاعتراض على بسمارك ،

وكتابة تشيد، لفرنسا . وكان يحب المفارقة والاستقلال ،
ففي ذلك العصر الذي كان الناس فيه يعدون من لا يذهبون
إلى الكنيسة أشبه بلصوص في قارعة الطريق ، كان ميريديث
لا يخفى كرهه لكل الأديان ، وكان يتقبل نظريات
دارون بفرح عظيم ، وفي العصر الذي كان يسوده النفاق
كان ميريديث في طبيعة من يؤيدون التربية الجنسية .

أول رواياته هي « حلق لحية شاجبات » ، وقد أزعجت
حضرات البرجوازيين الذين كانوا يومئذ يطيلون الحام : هي
ملحمة بطل جرى اسمه باجاراج يكره الشعر ، ويقسم
ليحلقن لحية الطاغية شاجبات . وقد خيل إلى النقاد أن هذا
الكتاب رمزي ، فلفتوا إليه الأنظار ، وما هو في حقيقته
إلا تقليد فكاهي « لآلف ليلة وليلة » ، ومع ذلك لم يفرض
ميريديث نفسه على الجمهور إلا بعد سنين طويلة . وأعظم
فترات حياته عام ١٨٧٦ . ففي هذا العام نشر « حياة بوشان »
وفرغ من كتابه « الأنانى » . أما الكتاب الأول فهو يتناول
بسخرية لاذعة موضوعا جديرا بهولبير هو موضوع الفارس
الذي ينتقل إلى عصرنا الصناعي ، وهذا الفارس التقي نيقل بوشان
يجمع في نفسه تأجج دون كيشوت وصفاء فارس الصليب

الأحمر الذي حدثنا عنه سبنسر. وعييه الوحيد هو كثرة حركته ورغبته في الايتوقف لحظة واحدة. ولايستطيع أحد أن يطامن من هذه الحركة حتى ولا رينيه، الحسناء الفرنسية. إن رينيه أحلى بطله فرنسية عرفتها الرواية الانجليزية. وحين خلق ميريدث هذه البطله الحية، الرشيقه، الخفيفه، المنطلقة، المحبوبة حتى في عيوبها، إنما أراد أن يقابل هذا النموذج النسوى الذى يحبه بالمرأة الانجليزية الباردة التى لاتحس جمال الفن. وأما، الأنانى، فهى رواية عميقة، وخير ما فيها شخصيتها الرئيسية أعنى الأنانى نفسه سير ولجى وهى شخصية حية، ولكنها تصبح رتيبة لكثرة ما تتشابه استجاباتها. وهذه الرواية تفوق الرواية السابقة من الناحية الفنية ولكنها أقل منها أسرا لأنها أقل منها إنسانية.

أضف إلى ذلك أن قراءتها صعبة، فيريدث ليس بالكاتب الواضح، ويظهر أنه فعل كل ما يمكنه حتى يؤيد اشتهاره بالغموض. قال مارسل شوب: «إن ميريدث لا يفكر لا بالانجليزية ولا بأية لغة معروفة بل يفكر بلغة خاصة بميريدث». ولكي نقدر ميريدث حق قدره يجب إذن أن نتعلم لغة جديدة، وفي رأى أن آثاره تستحق مثل هذا العناء

إلا أن كثيرا ممن سيدلون هذا الجهد ستحولون عنه، لأن هذه السخرية، اليانسة التي تفض بها آثاره ستبدو لهم شيئا متفرا . إن روايات ميريدث من النوع الذى لا يمكن أن يدعك حياديا . فإما أن تعجب به وإما أن تنفر منه .

لذلك ترى أن من يخلصونها حقها لا يقولون عمن يتحمسون لها .

أما صموئيل بتلر (١٨٣٥ - ١٩٠٢) فهو رجل مناضل . كان أبوه قسا . أراد أن يدخله فى سلك القسس فأبى ، وآثر أن يشتغل مربى خراف فى نيوزيلانده ، فلما عاد بعد أن جمع بعض الثروة أصر على أن يؤلف كتابا لم يجد من يقرأها . وكتابه الأساسى عبارة عن رحلة فى مدينة خيالية . وقد سماه « إرون » أى بلد لا مكان له . وفيه ينتقد الكنيسة وعقائدها ورجالها انتقادا لا ذعا لكنه قوى وعميق ، وكذلك انتقاده للمحاكم والجامعات ولكن الكتاب مضطرب للأسف والهجاء فيه يجرى على وتيرة واحدة من المرارة . وثانى كتب بتلر هو « طريق كل البشر » ، وهو ترجمة ذاتية يحدثنا فيها المؤلف عن الترية الدينية التى تلقاها فى عائلته ، ويبلغ من القسوة فى تصوير هذه العائلة أن هذا الكتاب لم يمكن نشره إلا بعد موته .

وإن القارئ الذى يعرف ميلاد هذه الحكاية المبكية لينزعج من شيئين معا : من تلك الوحشية ومن هذا الجبن ، أعنى الانتقام بعد الموت. هذا وإن أجزاء الرواية متفاوتة فى قيمتها : وأحسن ما فيها تصوير الأشياء التفصيلية ، فبتلر كاتب يستطيع أن يرى الأشياء رؤية حادة ، وأفكاره قوية ولكن تعوزه الأداة الرفيعة ، فأسلوبه باهت ، وتراكيبه ركيكة ، وليس فى عباراته تدفق حياة . ولعله خلق ليكون من كتاب «المقالة» بالدرجة الأولى .

وفى هذا المستوى الذى يقف فيه الرائدان العظيمان ، يقف كذلك توماس هاردى ، وهو سيد الواقعية المظلمة ، القاسية ، على طريقة الروائيين الروس .

على أنه لم يغرق فى هذه الظلمات من أول أمره . فقد حاول فى أول حياته ، حين كان مهندسا يطوف فى مقاطعات الجنوب ، أن يتسم للطبيعة وأن يتسم للناس ، فسكتب سلسلة من الروايات عن الحياة الريفية ، (« تحت الشجرة الخضراء » ، « بعيدا عن الجمهور المحموم » ، « عمدة كاستربرج » ، « العودة إلى البلد » الخ) تعد صدى لـ جورج صاند . وقد برع فى تصوير الأشخاص الحفاة وسط مناظر كئيبة جليلة ،

ولكن كلما تقدم هاردى فى حياته رأيت أبطاله يولدون على التعاسة ثم تعذبهم شهواتهم الجنسية أو البغضاء والرغبة فى الامتلاك والظماً الى التحكم . وقد سخر هاردى من آمال الإنسان الميئافيزيائية كما هزىء بهذه اللعبة التى يسميها الناس بالحب . وخير آثاره كتابان هما : « تس دربرفيل و « جود الغامض » . ولعل هذين الكتائين أظلم ما عرفت الإنسانية من كتب . فانك لتخرج من قراءتهما وأنت تحس بغم ثقيل ، وقلق ممض ، أشبه بالقلق الذى تشعر به بعد اقراراف إنهم لذلك رأينا الجمهور الانجلىزى يشور . . ثم رأينا هاردى الذى يعتبر الكتابة أشبه برسالة دينية ، يعتزل الرواية بعد اصدار « جود » لينصرف إلى الشعر .

لقد خلق هاردى ثلاث نسوة لا تنسين : تس الساذجة النقية التى يهزأ منها القدر ويضئها ، ثم آرابللا البدائية التى تجهل الشقاء لأنها تجهل العاطفة ، وأخيراً ، وخاصة ، سو ، خليفة جود — إنها تستسلم لجود فى المساء الذى خافت فيه أن يعود إلى آرابللا . ولكن كبرياتها قد جرحت من ذلك . وبعدئذ تزوج رجلا آخر . وتتألم من هذا الزواج ، كل ذلك كما تقول جود وتعذبه . إنه ليلاند لها أن تضحي بنفسها فى سبيل تعذيب

ذلك الشخص الذى ما زالت تحبه ، ولكن تنقم عليه أنه استولى عليها بسهولة . . إنها لتشعر بلذة ، وهي تسكب دموعا سخانا على جود وعلى نفسها .

ليس يكفى أن يعبت القدر بالآلام الإنسانية. إن الإنسان أيضا يحلو له أن يضطهد الإنسان . وليس ثمت من مصم من هذه الآلام إلا العدم . لا سبيل الى الهدوء إلا بالموت . وأفظع مشاهد جود الغامض ، هو مشهد شق الأطفال بيدي أخميم . وهنا نضع يدنا على مفتاح فلسفة هاردى : علام نعيش مادامت الحياة لا تعد إلا بالآلام ؟

وهناك روايتان آخران ، واقعيان كهاردى ولكنهما دونه قيمة ، هما : جسنج (١٨٥٧ - ١٩٠٣) وهوايت (١٨٣٠ - ١٩١٣) . أما هوايت فهو صاحب كتابين فقط يروى فيهما حياته ويصور القلق الذى تعانیه النفس حين تفقد الإيمان وتطفق باحثة عن الهدوء والإطمئنان : وهذان الكتابان هما : سيرة مارك ريثرفورد بقلبه ، و : خلاص مارك ريثرفورد ، وأما جسنج فقد ترك لنا مجموعة كبيرة من المؤلفات . وحاول أن يستمد من حياة الحرمان والآلم والشقاء مادة لعدد من الروايات صور فيها الطبقات الدنيا فى لندن (ديموس ، ، د العالم الأدنى) ،

أو أوساط الكتاب الجائعين (شارع جرب الجديد) . لقد أراد جسنج أن يكون مثل ديكنز ، ولكن شخوصه تفتقر إلى تىء من الحرارة ، وأوصافه متشابهة جامدة . .

وتجاه الرواية النشأؤمية هناك الرواية التي تهرب من الواقع ، وتسير بنا في الزمان والمكان ، لتنسينا بشاعة الحياة الحاضرة ، مثل رواية « لورنا دون » (١٨٦٩) من تأليف بلاك مور وهي تصور ديشنشير المتوحش في عصر الإصلاح ، ورواية « چون انجلزانت » (١٨٨١) من تأليف جوزيف شورذوس وهي صورة للمنازعات الدينية في القرن السابع عشر وقد فنت هاتان الروايتان أجيالا من القراء . ومثل ذلك روايات سورتز (١٨٠٢ - ٦٤) التي تسمح للخيال بالعدو وراه طيوف الأرستقراطيين الرياضيين والصيادين الجريئين ، وقد أصابت نجاحا كبيرا كالنجاح الذي يلاقه الآن الكتاب الذي ظهر أخيراً لسيجفريد سازون (ولد ١٨٨٦) بعنوان « مذكرات صياد ثعالب » . وهناك أخيراً ، وخاصة مولفات بورو (١٨٠٢ - ١٨٨١) ، وتكاد تكون جميعها عبارة عن ترجمات ذاتية ، وهي تمجد حياة البوهيميين المتشردة وحياة البائعين المتجولين في الأرياف ، داعية بذلك

إلى محبة الاستقلال والحرية (« لافنجر وه ») ولا يفوتنا أن نذكر أيضاً مؤلفات كنجليك (١٨٠٩ - ٩١) التي تصف روعة الشرق في كثير من الإغراء . وكذلك لا يفوتنا أن نذكر ريدير هاجارد (١٨٥٧ - ١٩٢٥) الذي أصابت مؤلفاته رواجاً كبيراً ، وهى عبارة عن سلسلة من روايات المغامرات عن أفريقيا العجيبة وملوكها وسحرتها .

وفي نهاية القرن التاسع عشر نرى الإغتراب هو الذى يسود أدب الهروب على يد ثلاثة أقطاب عظام ، أولهم ر . ل . ستفنسون (١٨٥٠ - ٩٤) ، وهو أعظم منشىء عرفته إنجلترا ، لا يضارعه فى أسلوبه أى كاتب انجليزى آخر . ولد فى أديمجورج ، وقضى شبابه فى إيقوسيا ، وقضى خير سنى نضجه فى فرنسا وكاليفورنيا ، وأجمل لحظات حياته المشردة فى أوقيانوسيا . ومات فى صاموا حيث كان قد أنشأ شبه مملكة . وكان السكان الأصليون فيها يلقبونه Tusitala أو القصة صاص . والحق أنه كان قصاصا لا نظير له حتى لتنسبك براعته القصصية أنه كان شاعراً عظيماً ، وأنه كان ألطف كتاب المقالة فى زمانه . وتتماز رواياته برهافة نادرة ، إلا أن رهاقتها لا تنال من قوتها ، هذا إلى عنصر مرضى واضح يزيد بها فتنة وجمالا

(كان ستيفنسون يعاني داء السل) ومع ذلك يشعر القارئ أن ستيفنسون لم يعظ كل ما عنده، ولعل أمر أنه الأمريكية المولعة بالمواضعات الاجتماعية قد أجمت خياله الفنى إلى حد كبير، ولعله لو ترك له العنان أن يصور لنا بلاداً خيالية غير التي صور وأحسن كتبه قصة رمزية طويلة بعنوان «الدكتور جيكل ومستر هايد»، يعالج فيها موضوعاً أصبح بعد الفرويدية من الموضوعات الشائعة المألوفة: روحان تسكنان جسم الدكتور، إحداهما جميلة مستقيمة والأخرى قبيحة شريرة: وحين تغلب الأخرى على الأولى تشوه ملامح وجهه تشويهاً مروعاً.

والرواية التي ضمنّت نجاح ستيفنسون نهائياً هي «الجزيرة ذات الكنز»، وما زالت تعد خير روايات المغامرات، فيها نجد فرحة الإرتياد وفرحة الإكتشاف، ونجد عنصر الفرع في شخصية جون سلفرو عنصر السر في السطو على الفندق حيث ينصت الطفل مرتعداً إلى اقتراب خطوات السارق الأعمى. وفي نفس هذا الإتجاه كتب ستيفنسون رواية «المفرق»، وفيها، بعد أن يستفيد من ذكرياته عن باريس وسان فرانسيسكو، يمضى بنا إلى المحيط الباسيفيكي. إن ستيفنسون

أول من مهد لذلك الأدب الضخم الذى يتناول الجزر البوليزية ،
« أرض المداعبات والكسل . وكثيرا ما حول جوالبا سيفك
الخامد إلى جوه ألف ليله و ليلة » السحرى فى « بحار الجنوب »
وسهرات الجزر ، الخ) ومع ذلك فإنه فى روايته الأخيرة
« جزر البحر » قد آذن بمؤلفات موم إذ أظهر تدهور البيض
فى المناخ الأوقيانوسى .

وقد كتب هذا الروائى ، المغترب فى الجزر ، سلسلة من
الروايات عن إيقوسيا البعيدة (وخير هذه الروايات « معلم
باللتزى ») ، وأتاح له بعده عن إيقوسيا أن يصفى عليها حلة
من الشعر والأحلام . . . والحق أنه كان فنا ناقبل كل
شئ ، فكان يبدل الواقع ، وينسجه من الخيال على هواه ،
ويدب فى مخلوقاته كثيرا من قلبه ، حتى يجيبها إلى قلوبنا .

أما لافكاديو هيرن (١٨٥٠ - ١٩٠٤) فلم يكن له
وطن كذلك ، مثل ستيفنسون بل أكثر ، ولم يستقر إلا فى
الأمكنة التى يسودها الجمال . هو سليل إيرلانديين . ولد فى
الجزر الأيونية ، وطوف فى العالم ، وعاش بعض الوقت فى
جزر الآنتيل الفرنسية ، ثم عين أستاذا للأدب الانجليزى فى
جامعة طوكيو ، وتزوج من يابانية ، وأصبح يابانيا أكثر من
أبناء اليابانيين الذين يقلدون الغرب . أما كتبه فأحرى بها أن

تسمى ريبورتاجات روائية لا روايات بمعنى الكلمة . وأشهر هذه الروايات هي التي تتحدث إلى الانجليز المشدوهين عن يابان البطولة والفروسية (« كورورو » ، « كويدان » الخ) . على أن هذه الروايات الممتازة يجب ألا ننسينا تلك الصفحات الرائعة التي كتبها هيرن عن جزيرة المارتينيك « ذات التلال الملقعة بخضرة لامعة تحت أشعة الشمس الذهبية » ، « هذه القصيدة الكبيرة الصامتة المتألفة من ألوان وأضواء » .

أما رديارد كبلنج فإن حالته لتحير حقا . نعم إن كتاباته النظرية أبقى على الزمن من أشعاره ، ولسكن رواياته وأقاصيصه عن الحياة العسكرية في الهند ليست أخلد من قصائده الاستعمارية التي استلهم فيها حرب ١٩١٤ (اللهم إلا بعض المستثنيات كأقاصيص الحيوانات التي كانت موفقة دائما) . على أن كبلنج الذي تخلص شيئا فشيئا من الضباط ، استطاع أن يصور لنا ثلاثة نماذج شائقة جداً من الجنود : هم ثلاث رجال يجب بعضهم بعضا حبا عظيما لم يستطع أحد ، رجلا كان أو امرأة ، أن يفصلهم بعضهم عن بعض ، أولهم مولفاني وهو الرياضي المفكر فيهم ، والثاني أورثيريس ، وهو نموذج لندي أنيق ، بارع الحيلة ، والثالث جوك ليرويد وهو عملاق طيب من

« يوركشير » ، (« ثلاثة جنود » ، « أقاصيص بسيطة من المستعمرات ، الخ) . وهؤلاء « الفرسان الثلاثة » من فيض الخيال ، وحتى عيوبهم لا تجد لها نظيراً في الواقع ، غير أن سلوكهم العجيب وروحهم المرحة ، وثرثرتهم اللطيفة ، قد أمتعت أجيالاً كثيرة من القراء .

ومؤلفات السكحولة تحتتمل هي الأخرى الأخذ والرد ، إلا إذا اعتبرناها مجرد حكايات للشبية ، فيجد ثنائي « ضباط شجمان » عن ابن مليونير يضطر لتعلم هذه الحرفة الشاقة ، حرفة الصبي البحار ، أما كتابه الطويل « كم » فهو دراسة صادقة للعقيلة الهندية ، لولا أنه طويل جداً . وكتابه « ستالكي وشركاه » قصة طويلة تصور شقاوات التلامذة الانجليز .

ولاشك أن أحسن مؤلفات كبلنج هي « كتب الغابات » و « حكايات » . والموضوع المركزي في « كتب الغابات » موضوع مبتدل ، هو موضوع الطفل الذي تربيته الذئاب . إلا أن كبلنج قد جدد هذا الموضوع باختياره إطاراً اغترابياً وبخلفه أساطير عن الحيوانات استقاها أو تأثر فيها بالأديان الهندية . وإنك لتستخلص من حكايات ماو جلي رمزاً غامضاً يرمي إلى أن الشخص الانجليزى يطبع قانون شعبه

فهو أعلى من القرد الفرنسي الذى يثرثر ويتحرك فى الفراغ. أما كتاب «حكايات» فإنه ينسج على غرار «مغامرات أليس» الخالدة للرياضى . ل . ودجون أعنى على غرار الحكاية الفكاهية التى تخدع الصغار وتسلى الكبار فيحدثنا كبلنج عن الحوت كيف تحصل على رقبتها وعن الجمل كيف يحصل عن سنامه وعن الفيل كيف يحصل عن خرطومه . إن صغار القراء ليفتحون أعينهم مندهشين ، ولكن سرعان ما ينتابهم قلق غامض ، لأنهم يشعرون شعورا مبهما بأن المؤلف بسبيل أن يسخر منهم .

وإذا أضفنا إلى مجلدى «كتب الغابات» ومجلد «حكايات» مجموعة من خيرة الأقاويص المنثورة هنا وهناك فى كتب أخرى لسكبلنج (مثل «عين الله» و«الخلية») كنا أمام مجموعة من الآثار خليقة بأن تقاوم بلى العصور .

والآن نصل إلى الحديث عن ولز (ولد عام ١٨٦٦):
جمع ولز بين رواية الهروب وممكنات العلم . كان فى أول أمره عالما يقضى أوقاته بين التجارب فى المعامل ، وله كتاب فى «البيولوجيا» ، وكان اختصاصيا فى التشريح المقارن والبايوتولوجيا والفلك . فروى لنا فى سلسلة من الأقاويص

طائفة من خيالات رجل العلم : حدثنا عن نبتة غريبة من النباتات
الأوشيدية . وعن كائنات نصف انسانية ونصف حيوانية
يوجد لها جراح ، وعن صاعقة تقترب من الأرض وتسكاد
تحطمها (« الجرثومة المسروقة ، « جزيرة الدكتور مورو ، » الخ)
وقد أطلقت بعض الاكتشافات خيال ولز ، فحدثنا في سلسلة
من الروايات عن الرجل الخفي الذي يطوف في الظلام ، وعن
العالمة الذين يهددون النوع الإنساني ، وعن المستكشفين
الذين يحبون مغاور القمر ، وعن سكان المريخ الذين يبيدون
الإنسانية بألسنة من نار (« طعام الآلة ، و « حرب العوالم ،
الخ) .

وكان ولز اشتراكيا ، وكان عضوا في الجمعية الفابية ، وتتجلى
شخصيته الاشتراكية في طائفة من « روايات الاستباق ،
(وأجمل هذه الروايات رواية « يقظة النائم ») حيث يصور
لنا البشر في القرن الثلاثين وقد انقلبوا بتأثير الآلة إلى آلات
محمومة ، أو بصورهم وقد سيطرت عليهم اوليغارشية عاطلة ؛
وتظهر شخصيته الاشتراكية أيضا في سلسلة من الروايات
الاجتماعية (كس ، و « تونوبنجاي ، » الخ) وقد صور لنا
الحياة التي تدبل من قلة الهواء والنور ، صور الحياة التي تدبل

في الدكان (كبس ، پول) و حياة الطلبة الفقراء (لويشام ،
ولام هل) و قد سيطرت عليهم جميعا لعنة الجنس . و في الوقت
نفسه كتب روايات ذات أطروحة ، عاج فيها بصراحة
المسائل الجنسية و تناول موضوع المرأة المتحررة (« زواج » ،
« آن فيرونيكا ») .

وقد أراد أخيرا أن ينتقل من حيز النظر إلى حيز العمل .
فشرع في دعوة ضد الحرب ، فأبان عدم فائدة الحرب في
كتابه « الحرب في الهواء » . وكان في أول أمره يشتعل كرها
لكيزر كروب ، ثم أصبح بعد ذلك انهزاميا ، فأبدى قرفه ،
وكلاله ، في إحدى رواياته ، وهي الرواية الوحيدة التي تفيض
بالانفعال وعنوانها « مستر برتلنج يغوص إلى أعماق الأشياء »
واخترع إليها لا يحس بوجوده غيره (« الإله الملك الخفي »)
ووضع لنفسه ديانة هي نوع من النزعة العقلية الغامضة . ثم
تحول إلى مرب ، فرسم خططا خيالية للتعليم ، وخصص تاريخ
العالم ، ثم عاد إلى موضوع طالما عالجته قبل ذلك . فصور لنا
فردوسا ولزيا (« مدينة فاضلة حديثة » « بشر كآلآة » الخ)
ولعله ، لو اضطر أن يجيأ في هذا الفردوس ، أن يكون أول
الهاربين منه .

أما أين يمضى الآن فيبدو أنه لا يدري في أى اتجاه يسير .
إن كتابه «عالم ولیم کلیسلوگ» ، (١٩٢٨) هو أشبه بوصية
أدبية يلخص فيها نظراته إلى الوجود ، وكتابه «مستر بلتسورثى
فى جزيرة رامبول» ، (١٩٢٩) هو مزيج من الأنواع التى
سبق له أن برع فيها ، وبطله شخص يخدعه الحب ، فيبحر إلى
أمريكا ، وتضل به السفينة فى عرض البحر ، وهو وحيد ،
فيجن عقله ، ويعيش مدى خمسة أعوام ، وهو يحلم فى جزيرة
رامبول ، التى تسكنها كائنات بليدة متوحشة ثم لا يثوب إليه
رشده إلا ليرى الحرب . . لقد كانت جزيرة رامبول إذن هى
الواقع . .

ومن الملاحظ أن ولز يبذل جهدا عظيما لتجديد نفسه ،
وهو جهد ضرورى ، لأن المجتمع يتطور بسرعة بسرعة
عظيمة ، إلى حد أن رواياته الاجتماعية وبطلاته المتحررات
أصبحت منذ الآن من الأمور القديمة البالية . وليست رواياته
الفلسفية إلا خليطا من النظريات المعروفة ، ولا يبقى له بعد
ذلك إلا الروايات العلمية .

على أن هذا لا يمنع أن ولز قطب أدبى عظيم وأنه قد
أنعش الحركة الأدبية على نطاق واسع ، وقل من الروائيين من

كان له مقلدون مثل ما كان لولز . وإن له تخيالا خصبا ، وقدرة
عجيبه على استحضار الصور ، لعله ينفرد بها من دون سائر
الأدباء فى العالم بأسره .

وآخر عظيم من الممهدين للأجيال الجديدة هو والتر براز
(١٨٣٩ - ٩٤) وقد أخرجته حديثاً من ظلمات النسيان
عشاق الجمال واللذة . كان أستاذاً لأوسكار وايلد ومكلا
لرسكن ولكنه أحل عبادة اللذة محل عبادة الجمال . فكان
يقول بمذهب اللذة ويذهب إلى أن متع الجسد ومتع الفسك
تستويان .

وقد كتب قليلا فلم يخلف لنا فيما عدا كتبه النقدية عن
عصر النهضة وعن أفلاطون ، وفيما عدا كتاب بعنوان « صور
خيالية » . إلا رواية واحدة بعنوان « ماريوس الأبيقورى »
وقراءة هذه الرواية على جانب عظيم من الصعوبة . وكان
وقته متسعا للانصراف إلى عمله . وجاءت كتبه مثقلة
بالأفكار معتنى بها إلى حد الإفراط .

٢ - الاتجاهات الحالية

لعل من الخروج على قواعد الدقة أن نقول إن هؤلاء

الأقطاب العظيم ، ميريدث ، بتلر ، هاردي ، ستشمسون ،
كلنج ، ولز ، باتر ، هم زعماء مدارس . فإن الفردية في هذا
العصر ، وهذا القلق الحديث والرغبة في خلق جديد بأى ثمن ،
كل ذلك جعل من لغو الكلام أن يتحدث عن « مدرسة »
و « تليذ » في الاتجاهات الحالية . وكل ما نستطيعه على أكثر
تقدير هو أن نقسم المؤلفين إلى طوائف كل طائفة منها يجمعها
مثل أعلى واحد .

أولا : الطائفة الكاثوليكية ، وقوامها كاتبان من الطبقة
الأولى هما تشسترتون وبلوك . هي أقلية في بلد بروتستانتى
تظاهر بالشاب والنشاط والاستقلال . تعارض البيوريتانية
فتؤكد حقوق الفرح ، والخيال . والفكاهة ، ولد تشسترتون
عام ١٨٧٤ ، وهو من كتاب المقالة البارعين قبل كل شيء .
ثم هو صحافى مفارق وفكاهى هجاء . وعندى أن مقالاته
وهى أملاً بالأفكار التى ستبقى ذكراه أكثر من
رواياته (« أورثوذكسية ») وقد خلق كذلك شخصية
طريفة لكاهن هو الأب براون . وولد بلوك عام ١٨٧٠ ،
وهو لا يقل عن صاحبه مفارقة ، إلا أنه يتجه إلى النخبة
المختارة أكثر مما يتجه إلى الجماهير ، وهو أهدى أندر

وأرجه وعندى أيضا أن مقالاته الجميلة في مثل مجموعته « عن
لا شيء » سيحفظها تاريخ الأدب أكثر من رواياته .

وثانيا ، الطائفة الإيرلاندية : وهى أهم من الأولى
وسيدها جورج مور (ولد عام ١٨٥٢) ، وقد تبنته
پاريس واحتضنته وحسب نفسه فى أول الأمر مصورا ،
ثم روائياً طبعياً ، وكتب روايات عن عالم المسرح ودنيا
السباق . وقاده بورجيه بعد ذلك إلى القيام بدراسات فى
سيكولوجيا التصوف . ثم التقى بييتسى ، وعندئذ قرر أن يعود
إلى مسقط رأسه ، وهناك كتب خير مؤلفاته . من هذه المؤلفات
« البحيرة » ، وهى تصف النزاع الذى يقوم فى نفس كاهن
إيرلاندى بين الواجب الدينى والواجب الإنسانى . وأخيراً
اكتشف مور نفسه وصرح بأن شخصيته هى الموضوع
الوحيد الذى يستحق أن يكتب فيه (تحية ووداعا) . وتلاحظ
فى آثاره أنك يازاء منشئ عظيم . وإنما يعوزه عنصر أساسى ،
حتى فى الجزء الشخصى من آثاره . أعنى الألفة الجميمة بينه
وبين القارىء .

وثالثى هذه الطائفة الإيرلاندية جيمس ستفنس وهو
روائى عظيم وشاعر كبير فى آن واحد ، أحيا أفايص الجن

الإيرلاندية ، بل الحب هو نفسه أنه وصحة على هذا العرار ،
سماها « جرة الذهب » حدثنا فيها عن يان الكبير وهو يصطدم
بأنجوس أوج إله الحب والفرح عند السلت وعن جيش الجنيات
وهي تحارب الرجال المسلحين وعن الفلاسفة وهم يضطرون
بالحيلة مع العفاريث التي تعيش تحت الأرض تحرس جرة مملوءة
بالذهب . خيال رائع ، ولكن لعله محشود كثيراً ، ولعل كثيراً
من الناس يفضلون على هذه القصة قصة ماري سبلانت حيث
نرى الجنية فوق الأرض ونرى الأمير الفاتن شرطياً هاتلاً ،
ونرى الغادة الجميلة بنت امرأة خادم ، ونرى العصى السحرية
عبارة عن إرث من أمريكا .

جيمس چويس : ولد عام ١٨٨٢ . كاتب مجدد . كان
ولا يزال له تأثير يعده البعض حسناً ويعدّه البعض الآخر سيئاً .
حاول في عدة كتب أهمها مجموعة قصص بعنوان « دبلنيون » ،
ورواية بعنوان « يوليس » أن يتخذ اللابقيين مثلاً أعلى ، وأن
يحطم كل خطة وكل تصور إنشائي للعالم . لم يتحاش دائماً
الأمر المبتدلة (المنشرد العبقري ، السكير العظيم) إلا أنه
برع براعة فائقة في التحليل الدقيق للإحساسات الأولية وفي
إظهار الرغبات المكبوتة .

بجمع روايته «يو ليس» بين عدة نماذج معروفة من التخيل (الرواية البيوجرافية، الرواية النفسية، الرواية الرمزية)، لأنها حوار داخلي طويل، بل اجترار طويل لأفكار لا يربط بينها إلا قانون تداعي الأفكار، بل هو سلسلة من الاشارات السريعة تمثل المجرى الطبيعي للفكر ويسيطر عليها الاهتمام بالشئون الجنسية. أما الأسلوب فن النثر المتقطع المحطم إلى معارضات للأسلوب الخطاب والأسلوب الأنيق. . . وله في بعض الأحيان قفزات غريبة حتى يختلط الشعر بالعبارات الجريئة المكشوفة اختلاطاً غريباً. وجويس لا يجد آثاره في المسكان، بل يجدها حداً ضيقاً في الزمان، ويناضل الرقاص، نضال اليائس. إن «يوليس» تجرى في عام ١٩٠٤، بدبلن خلال ٢٤ ساعة. إنها «مغامرة الفكر عبر الوجود». إنها تاريخ يوم من أيام مستر بلوم والناس الذين يتزهون في المدينة في نفس اليوم. وينتهي كل شيء إلى ليلة فحش قدر. قالت مسز ولف «إن «يوليس» فضيحة خالدة، إنها جرأة عملاق، ونسكة هائلة».

ليام أوفلرني: ولد عام (١٨٩٧). هو الممثل الحديث للحملة الايرلاندية. ورواياته الواقعية المظلة تنهض بسرعة

الى أفق المظمة الملحمية . ولد في جزر آران ، وسط الصيادين الجفافة الذين يعيشون دائماً مع فكرة الموت ، وحارب في فرنسا ، ثم في ايرلاندة ، وطوف في الأمريكيتين وفي الشرق الأدنى . وقد أتى الى الأدب متأثراً بنظرية فرويد ، فأحب أن يحلل الاندفاعات المتناقضة التي تتحرك جسم الانسان البهيم ، (المواشى) ، أو عقلية الغبي الغامضة (مسترجيولوى) ، كما حاول في سلسلة من القصص (فندق الجبل) أن يستحضر جو ايرلاندة الغريب الذي يسوده الحزن وتملكه قوى شريرة خفية وخير آثاره كتابه « الراشى » ، وهو رواية بطلها العملاق جيو الغبي يبيع للبوليس الانجليزى زعيم الثائرين صديقه ماك فيليب ، ويصبح الرمز الحى للخيانة ، يصبح يهودا آخر . وتحكم عليه محكمة الثوار السرية ، فيهرب ، ويحاول غثاً أن يصل الى الجبال التي أُلجأت طفولته البريئة ، ثم يخرق الكنيسة وقدامتلاً جسده رصاصاً

وهناك طائفة الكتاب الذين أحيوا الرواية التاريخية ، نستطيع أن نذكر منهم موريس هيولت (١٨٦١ — ١٩٢٣) ، وأجمل آثاره كتاب حلو بعنوان « عشاق الغابة » ، يحيى عهد انجلترا التورماتيدية . — ستانلى ويغان (١٨٥٥ — ١٩٢٧) ومن

طيشه أنه أراد أن يناقش السكندر دوماس في كتب تاريخ فرنسا روايات (بيت الدثيب ١٨٩٠) . - وأخير أ هيو والبول (ولد عام ١٨٨٤) وهو كاتب موهوب كبير ، بل هو ثاكري جديد ، وقد برع في كل الأنواع : سواء في رواية التليذ ، (إلا أن « جرمي » موضع أخذ ورد لأنها تذهب إلى القول بتلك «الموضة» القديمة في التربية الرياضية) وفي الرواية النفسية (« وترز مون » دراسة للتزاع بين العقلية الشكستورية والعقلية المعاصرة) ، وفي الرواية الخالية (« فوق الميدان المظلم »). على أن خير آثاره هو ولاشك رواية تاريخية بعنوان « روج هيرز » حيث وفق المؤلف إلى استحضار القرن الثامن عشر بفناده ، وطرقه ، وساحراته .

وهناك طائفة الرواية النفسية ، وأهم ممثليها د. ه. لورنس . (١٨٨٧ - ١٩٣٠) وهو ابن عامل مناجم . وقد تليذ على فرويد . وكان عدوا لأدعياء الفضيلة . وأروع مؤلفاته « الآباء والأبناء » ثم - ماى سنكلير (١٨٦٨) وهي فنانة مرهفة الحس ، برعت في دراسة المسائل اللاهوتية . - موريس بارنج (١٨٧٤) ، وقد أصاب نجاحا عظيما بفضل كتابه « دافني آدين » وهو من أطف الدراسات النفسية التي عرفها التاريخ الأدبي .

وهناك طائفة كتاب الميلودراما ، وأهم ممثلها هال كين (١٨٥٣) ، وماريون كوريل (١٨٦٤ - ١٩٢٤) ومن أشهر مؤلفاته «السيد المسيحي» وهو يمتاز بقوة الانفعال . وكونان دويل (١٨٥٩ - ١٩٣٠) وهو الذى أثار الرواية البوليسية بفضل «شارلوك هولمز» (١٨٩١) . وهناك الرواية الفكاهية، ومثلوها و. و. جاكوبز (١٨٦٣) وقد اقتص بحكايات البحارة ، وجيروم ك. جيروم (١٨٥٩ - ١٩٢٧) وأحسن آثاره «ثلاثة رجال فى مركب» ولشد ما أضحكت بسطاء النفوس -- دروز ماكاولى ومن مؤلفاتها «أعمار خطيرة» ، (١٩٢١) «الاحتفاظ بالمظاهر» ، (١٩٢٨) . الخ، وهى مولعة بالإضحاك عن طريق إحداث المواقف غير المتوقعة ، وأخيراً فإن أبعد هؤلاء الروائيين خيالاً هو دافيد جارنيت (ولد ١٨٩٢) ومن مؤلفاته «المرأة التى انقلبت ثعلباً» ، «يجب عليها أن تسافر» .. الخ. وتجمع أفاصيصة إلى الهزليات غير المعقولة إحساساً لطيفاً بالرمزية والشعر .

وهناك طائفة الروائيين الاغترابين ، وعددهم كبير ، وقيمتهم عظيمة . وأول من يخطر منهم على البال جوزيف كونرد (١٨٥٦ - ١٩٢٤) لأن آثاره تتصف بوحدة نادرة

في هذا العصر . إنه نموذج غريب لبحار بولوني ، يفكر بالفرنسية ، ويكتب بالإنجليزية . وهو متمكن من صناعته ، كما أن تحليله النفسي عميق بوجه العموم ، إلا أنه لا يعرف دائماً كيف يحد نفسه . ولعل خير آثاره هو هذه القصة الطويلة « تاي فون » ، التي تحدثنا عن الكابتن ماك وير ، وهو رجل غني عنيد ، بطل بدون أن يشعر ، يظفر بفضل دمه البارد وشعوره بالواجب على تلك الغريزة الغامضة السيئة التي تثير غضب الماء والسماء . وقد برع كوزاد في الأوصاف البحرية وأجاد تصوير تلك الساعات التي يشعر فيها المرء إبان العاصفة بأن في زئير الرياح نية وحشية وإلحاحاً غاضباً (لورد جم) وعرف كيف يصور الموجة الكبيرة المزبدة وهي ترتفع في الضباب كأنها في اندفاعها مجنون شرير بيده خنجر (« الزنجي الزجاجي » ، ثم هو يرتفع إلى الرمز بلا عناء : إن كفاح الإنسان الصغير الضعيف على الحيوان هو ظفر القوى الروحية الأخلاقية على القوى المادية .

وقد وفق كوزاد توفيقاً كبيراً في دراساته للعقلية التي يشبهها بعقلية السلحفاة عند الهجاء والسكان الأصليين في هذه البلاد الواطئة

أما سومرت موم فهو موهوب في الرواية والمسرح جميعاً ، ولم يصبح من أدباء الاغتراب إلا متأخراً . كان طالباً للطلب . وقد درس حياة الطبقات الدنيا في لندن ، ولم يكن قد تجاوز العشرين من عمره حين كتب رواية « ليزادى لامبت » ، وهي أروع تصوير لحياة الأكوخ . وقد درس حالة امرأة ذكبة مرهفة تزوجت من فلاح فكاتب لنا رواية « الاستعباد البشري » التي تعد من أعظم الكتب التي ظهرت في هذا القرن ، وهي رواية ضخمة ، جزء منها عبارة عن ترجمة ذاتية تنتقل بنا من كنت إلى موبارناس إلى لندن ، ويصور امرأتين لاتنسيان : ملدرد الموظفة الصغيرة في أحد المطاعم ، العامية ، المتظرفة في حركاتها الشرهة إلى اقتناص المال واستلاب راحة الآخرين ، وسالى الفتاة القوية السليمة هذا الحيوان الرائع المهمل في كروم كنت .

ولما نشبت الحرب اشتغل موم بالتجسس لبلده في سويسرا وروسيا . ثم كتب وهو مريض كتاباً كان يحلم به منذ زمان بعيد ، وهو عبارة عن سيرة روائية لجوجين أسماها القمر والست بنات ، وبعد ذلك أصبح يحب الأسفار كثيراً ينشد الشمس ويسعى إلى البلاد المجهولة ودرس

ما تحدته الأقاليم الاستوائية في البيض المنعزلين من تأثير
سوى ، فكان أن أدخل الواقعية في الرواية الاغترابية ، وجعل
تأهتي وجزر الباسيفيكي مسرحاً لأقاصيصه « اهتزاز غصن » .
ومن أجل هذه الأقاصيص « مطر » ، « وسقوط ادوار بارفار »
كما أن بعض أقاصيصه الأخرى مثل (الساحر الماليزي)
تنتقل بنا إلى ماليزيا . أما رواية « الحجاب المنقوش » ، وهي
أكمل رواياته وأكثرها توازناً فهي تدور في هونج كونج
والصين . ومن رواياته الأخيرة « كعك وخمر » ، وهي مزيج
من ذكريات الطفولة وهجاء العادات الأدبية هجاء لاذعاً .
ولكن هيات أن يكون قد أعطى إلى الآن كل ما عنده .
وعلى الطرف المناقض لموم ، يجب أن نذكر ديشير
ستا كبول (ولد عام ١٨٦٥) ولو أنه هو الآخر من روائي
الأغتراب . هو سيد ما يسمى بالرومانس أي قصة المغامرات
في بلاد بعيدة . وتمتاز هذه القصة بأنه ليس للواقعية من نصيب
فيها ، كما أن العنصر الغنائي فيها ذو شأن كبير . وقد نهض
ستا كبول بهذا النوع إلى الذروة في قصته اللطيفة « البركة
الزرقاء » . وما يؤسف له أن نجاح ستا كبول في هذا النوع من
القصة قد حبسه في إطارها ، وعبئها الأساس هو إرثها في

الحوائم الحسنة . ويتمتع ستا كبول بموهبة عظيمة ، وتدل روايه « سوق العفاريت » التي تصور لنا عذاب رجل كهل مع عاهرة صغيرة من لندن على أنه كان من الممكن أن ينجح في الرواية الاجتماعية نجاحا عظيما .

وهناك الرواية الاقليمية ، أخت الرواية الاغترابية ، وقد نالت استحسان الجمهور منذ النجاح الذي أصابه توماس هاردى ، فلا تكاد تجد منطقة انجليزية إلا لها قصصها . وأوفر هذه الأقاليم حظا أقاليم أيقوسيا .

وقد حصل آرنولد بينت على الشهرة (١٨٦٧ - ١٩٣١) دفعة واحدة إذ صور في رواياته الأولى مسقط رأسه ، ستافوردشير ومدنها الخمس ، هذا البلد المظلم الدميم الذي يبلغ من السعة والتحطيم أن دمامته تنقلب إلى جلال ، هذا البلد الذي يمتزج فيه احمرار الشفق بنار الأفران وينعكس اللهب على صفحات القنوات الرهيبية السود ، هذا البلد الحزين الذي لا تعرف أرضه الحضرة ، وتعيش فوقه بورجوازية رتيبة صارمه بخيلة تمامة . إن روايات المدن الخمس (ولاسيا قصة « الزوجات العجائز ») مصطبغة جميعا بلون رمادى قاتم ولكنها لماديتها تؤثر في النفس . إنه ليشق عليك أن تأتي

على آخرها، ولكنك لا تنساها مدى حياتك .
وهناك محاولة شائقة حاولها أخيراً ج. ب. پرستلي (ولد
عام ١٧٩٤) (الأصحاب الطيبون) لإصلاح هذه الرتبة
الكامدة ، فزج الرواية الاقليمية برواية التشرذ التي كان قد
أوجدها بورو .

وهناك الرواية الاجتماعية أو رواية الأخلاق والعادات
في وسط معين . وقد احتلت هذه الرواية بعد الحرب مكانة
هامة جداً . ويبدو أنها الآن بسبيل اقتقاد هذه المكاتة .
ومن أهم كتاب هذه الرواية اسرائيل زانجويل (١٨٦٤ -
١٩٢٦) : وصف حياة اليهود في « أحياء لندن ، ووصفا
حيا ملونا ، - جون جولسويرثي . فرض الإعجاب به على
الأدباء بسلسلة من اللوحات الوصفية الضخمة ، تصور
تطور البورجوازية الفكتورية والإدوارديه والچورچية
(١٨٧٥ - ١٩٢٥) ، وكتابه الأساسي و « قصة فورست ،
وهي ملحمة تصور روح التملك في قصة مالك يدعى سومز
نورست يبنى بيتا ويحبس فيه امرأته إيرين ، وعبثا تحاول المرأة أن
تقاوم : إن الحب ، والزواج ، والعائلة ، والوطن ، والفضيلة
والدين ، والسعادة كل ذلك يتلخص في نظر البورجوازي

الكبير وبكلمة واحدة : التملك . وإن ملحمة حرب البوير
لهي القمة التي بلغت هذه الروح .

تغير العقلية بدخول القرن الجديد ويستيقظ سومز
بجأة وسط الانقراض ، في عالم مجهول ، كأنه إنسان نام مائة سنة
أو يزيد ، فالبيت العظيم الذي كان ينبغي أن يكون قصرأ
إقطاعياً يعرض للإيجار - . . . وتهرب إيرين العروس . . .
ولا يبقى إلا رجل يحتضر .

إن المجتمع الانجائزي يتغير بسرعة عظيمة فلا يستطيع
جولسورثي أن يقاوم رغبته في إحياء أبناء وأحفاد فورست
المختلفين عن أسلافهم جدا الاختلاف فيكتب قصة ثانية («القرد
الأبيض» ، «معلقة الفضة» ، «غناء البجعة») ، بطلتها
المركزية هي فلور بنت سومز وهي امرأة طماعة متحذقة
متحررة ، وصفها جولسورثي وصفاً دقيقاً . وعلى كل حال فقد
قام جولسورثي بعمل تاريخي ، فترك لنا وثائق إنسانية هامة .
وما كان يعوزه حتى يكون كبلزك إلا قليل من قوة البناء .
ويزداد توفيقه عندما يكتب روايات قصيرة مثل «أخوة» .
ويظهر أنه كان يجيء في أعماقه شخصية شاعر : فما أروع تلك
الصفحات التي يصف فيها ضوء القمر فيشبهه انبثاقه المفاجيء .

بؤيبة سرب من الحمام الأبيض ، أو تلك الصفحات التي تصور
البوم وهو ينعب لا تذا بجهى الظل .

وهناك طائفة الروائيين الذين اشتهروا بالصعوبة ، وهؤلاء
عددهم كبير ، وهم من عشاق الجمال والمفكرين ومن يسهبون
أغوار الاشعور ويعرضون الدقائق النفسية . نذكر منهم
دوروتى ريتشاردسون («سقوف مسننة» ، ١٩١٦) وفرانك
سويتزن (ولد عام ١٨٨٤) وكلمانس دين وقد كانت في
أول أمرء أدبى إلى السهولة والكلاسيكية . وأهم آثاره
«الأسطورة» ، (١٩٢٠) - وأخيرا وخاصة فرجينيا
وولف وألدس هيكسلى . وهؤلاء الكتاب جميعاً يتأثرون
بستيرن وچويس وبكتاب الطليعة الفرنسيين أمثال پروست
وجيروودو وغيرهما .

أما مـز وولف فكانها لا تؤمن بتقسيم للحياة غير تقسيم
دقات الساعة . أبرز كتبها رواية «مسز دالواى» (١٩٢٥) تدور
حوادثها فى وستمنستر بين الساعة العاشرة صباحا والساعة
الثالثة من صباح اليوم التالى ، وساعات بيجن وسان مارجارت
هى التى تدق مختلف مراحل الرواية . أضف إلى ذلك أن
الرابطه الوحيدة التى يمكن أن تجدها بين الاستطرادات هى
رابطه زمنية صارمة ، كما أن أشخاصها الذين يعيشون قريبا

بعضهم من بعض في الزمان والمكان تتشابه حياتهم في الواقع رغم اختلافها في الظاهر فإنهم جميعا يعيشون حياة عقيمة فارغة. وأخيرا فإن الرواية تجرى في أدمغة أبطالها ومن هنا نرى إسرافا في الحوار الداخلى يؤدي إلى إسراف في الملاحظات الرجعية .

وقد ارتفعت مسز وولف في روايتها إلى أفق الرمز، وهي ترسم في هذه الرواية تاريخ بيت على شاطئ البحر ، وتاريخ الأسرة التي تسكن هذا البيت في الصيف ، فتصور الطفل وهو يحلم ببلوغ المنارة التي تضيء من بعيد على الجانب الآخر من الخليج . ثم يصبح الطفل رجلا ويحقق حلمه فإذا هو يتبين أن هذا المنبع الضوئى ليس إلا برجاً عالياً فوق صخرة عقيمة . أما ألدس هكسلى (ولد عام ١٨٩٤) فهو سليل هكسلى البيولوجى العظيم . . وهو ناقد موسيقى موهوب ، وقد كتب عدة روايات ، غير أن قراءة هذه الروايات أمر شاق ، فهو يبحث عن موضوعه طويلا قبل أن يجده : يتناول بعض الشخصيات فيدرسها ثم يطرحها ثم يتناول غيرها وهكذا دواليك . ومؤلفه الرئيسى هو رواية « المعزوفة » ، وهى فاشلة كرواية لكنها كتاب ضخم بلا جدال . فيها هجاء وحشى للطبقة الاجتماعية العالية العاطلة عن العمل . ويظهر أن هكسلى إذا اقتصر

على الأقاليم الطويلة مثل (بعد النار المصطنعة) لا بد أن يتحفنا بمؤلفات من عيون الآثار .

ونذكر في الختام روائيا يحقق التوازن بين الاتجاهات

الرئيسية المعاصرة ، وهو ج - د برسفورد (ولد عام ١٨٧٣) :

إن هذا المهندس القديم يعرف كيف يبنى روايات متماسكة ،

على الطريقة الفرنسية ، وهو يمتاز إلى جانب قدرته على البناء

بشغف قوى بالأسلوب ، حتى ليتمكن أن نقول إنه قل بين

الكتاب الأحياء من أتيج له ما أتيج لبرسفورد من مواهب .

لقد أوجد شخصية جديدة : شخصية الانجليزى الحساس ،

الخبول الذى يكاد يكون امرأة فى طباعه وفرط حساسيته

ورهافته ، ولكنه عنيد إلى حد البلادة ، قادر على القيام بأعمال

بطولية حتى يجرح حس العدالة عنده (« جاكوب ستال ») .

وفى مقابل هذه الشخصية خلق برسفورد شخصية أخرى هى

شخصية الانجليزية المترجلة العنيفة المنطلقة المتحللة من كل

ما تواضع عليه الناس .

وقد ألف برسفورد روايات ينافس فيها ولزم مثل رواية

« Goslings » ، وهى قصة وباء يجتاح العالم ويفنى جنس الذكور ،

ومثل رواية « أعجوبة هاميدنشير » ، وهى قصة شخص غريب

مصاب بالهيدروبيسيا ، عبقرى ، يتقدم الإنسانية بعشرون

إلى الأمام ، وكان يمكن أن يقلب العالم لولا أن الطفل الوحيد الذى لم يسكن يخاف منه ، وهو طفل فقير معتوه . دفعه وهو يلعب ، إلى تدبير عميق .

وتظهر عبقرية برسفورد في صورة أوضح حين يكون روائياً نفسياً ورواقياً ، فيدرس ، حالة مريض العطش (فى « بيت ديمتريوس رود ») وحالة رجل ذى غرائز جنسية منحرفة ترده إحدى البغايا إلى الحب السوى ، وحالة رجل مليونير ترعبه مسؤوليات الثروة وتعميدات الحياة الاجتماعية (كل شيء أو لا شيء) . وهو يبرع فى وصف الرجل الذى يتعب من المواضع ومن الطرق المعبدة فيحاول أن يشق طريقاً جديداً وان يقلب حياته رأساً على عقب . هذا ولا يقل برسفورد أصالة حين يأخذ بالتحليل النفسى المحض ، فيصف لنا فى كتابه « رفاق المنزل » علاقات جماعة يسكنون فى منزل مؤثث . ولا شك أن رواية « وهم الحب » أجل تحليل عرفناه لحب المراهقين

هنا تقف مهمة المؤرخ . ولكن ما من يوم ينقضى إلا ويطالع علينا أدباء انجلترا بكتب جديدة تبرهن على حيوية العبقرية البريطانية . لم يكف بريطانيا أن حازت نصب السبق فى الشعر والدرامة فهى تحاول اليوم أن تفرق تفوقها فى حلبة فن الرواية .

فهرس الأعلام

- ٢٣٤ : Aberc
١١٥ : Otway
١٧٨ : Edger
١٢٧—١٢٤ : Addis
١٢٤ : Arbut
١١ : Aelfri
٢٣٦ : Eliot
٢١٢- ٢١٠ : Eliot
٢٢٥ : O'Ca
١٢ : Orm
١٧١ : Auster
٢٣١ : O'Sull
٢٦٩ : O'Fla
٣٠ : Occle
١١٦ : Ethere
١٠٨ : Evelin

- ٢٦٥ : Pater
٢١٨ : Patm
٢٢٦ : Bari
٣١ : Barcl
٢٧١ : Barin
١٦٢—١٥٩ : Byrol
٩٥ : Brow
٤٩ : Brow

٢١٨—٢١٦	: Browning	براوننج
١٢١	: Prior	پراير
٢٣٦	: Bridges	بردجز
٢٨٢—٢٨١	: Beresford	برسفورد
١٠٨	: Burnet	برنت
١٧٩	: Burney	برني
٢٣٤	: Broke	بروك
٢٠٤—٢٠٢	: Brontë	بروني (ش)
٢٠٦—٢٠٤	: Brontë	بروني (ا)
١٢٣	: Butler	طالر (ح)
١٦٠	: Butler	طالر (القرن ١٧)
٢٥٢—٢٥١	: Butler	طالر (القرن ١٩)
٢٤٥	: Blake	بلاك (جورج)
٢٥٥	: Blackmore	بلاك مور
٢٦٦	: Belloc	بلوك
٢٣٤	: Blunden	بلوندين
١٥٢	: Blake	بليك (وليم)
١٨٥	: Bentham	بنثام
٩٦	: Bunyan	بيان
٢٧٦	: Bennett	بنيت
٣٥٥	: Borrow	بورو
١٢٤	: Bolingbroke	بولبروك
٢١٨	: Beddoes	بيدز
١٤٣	: Burke	بيرك
١٠٨	: Pepys	پپر
١٥١	: Burns	بيرنز
٦٠	: Peele	پيل
١٤٥	: Bickerstaff	بيركستاف
١٨٤	: Peacock	پيكوك

۵۲ : Bacon	بکون
۷ : Beowulf	ولف

(ت)

۲۶۶ : Chesterton	نشسترتون
۲۱۲ : Trollope	ترولوب
۱۴۴ : Chesterfield	سسترفیلد
۳۰—۲۰ : Chaucer	شوسر
۳۵ : Tindale	سدال
۲۱۵—۲۱۳ : Tennyson	تیسون
۷۰ : Tourneur	تورنر
۲۲۵ : Thompson	نومپسون
۱۴۷ : Thomson (القرن ۱۸)	تومسون (القرن ۱۸)
۲۲۵ : Thomson (القرن ۱۹)	تومسون (القرن ۱۹)

(ث)

۲۱۰—۲۰۷ : Thackeray	ٹاکری
---------------------	-------

(ج)

۲۷۲ : Garnett	جاریت
۲۰۱ : Gaskell	جاسکل
۳۲ : Jacques st.	جاک الأول
۲۷۲ : Jakobs	جاکوبز
۳۲ : Gawin	جاون
۱۲۱ : Gay	جای
۲۳۶ : Gibson	جیسون
۱۴۸ : Gray	جرای
۵۰ : Greene	جرین
۲۵۴ : Gissing	جسنج

۱۸۴—۱۸۰، ۱۵۸	: Scott	سکوت (والز)
۱۳۸	: Smolett	سمولت
۱۸۵	: Smith	سمیث (سیدنی)
۱۴۴	: Smith	سمیث (آدم)
۲۴۴	: Synge	سنج
۲۷۱	: Sinclair	سینکلر
۱۰	: Cynewulf	سنولف
۱۵۵	: Surters	سورترز
۱۳۲—۱۳۰	: Swift	سویفت
۲۷۹	: Swinnerton	سوینرتون
۲۲۵—۲۲۲	: Swinburn	سویبنرن
۴۱—۳۸	: Sidney	سیدنی

(ش)

۶۴	: Chapman	شاپمان
۱۱۷	: Shadwell	شادل
۱۴۵	: Sheridan	شریدان
۹۴—۷۶، ۴۶	: Shakespeare	شکسپیر
۲۴۴—۲۳۹	: Shaw	شو (برنارد)
۲۵۵	: Shorthouse	شورڈوس
۷۴	: Shirley	شیری
۱۷۶—۱۶۵	: Shelley	شیلی

(ع)

۲۱۸	:	عمر الحیام
-----	---	------------

(ف)

۱۱۸	: Farquhar	رکار
-----	------------	------

۱۱۸ : Vanbrugh	قابرو
۲۳۵ : Freeman	فرعان
۴۹ : Feltcher	فلتشر
۷۳ : Feltcher	فلتشر (ح)
۹۸ : Vaughan	فوجین
۷۲ : Ford	فورد
۱۳۷—۱۳۶ : Fielding	فیلڈنگ

(ك)

۱۹۴—۱۹۳ : Carlyle	کارلیل
۹۹ : Carew	کارو
۱۰۹ : Campbell	کامبل
۴۸ : Champion	کامپیون
۲۳۳—۲۳۲ : Kipling	کیپلنگ
۲۵۶ : Kipling	کیپلنگ
۹—۸ : Caedmon	کدمون
۳۵ : Cranmer	کرامر
۹۰ : Crashaw	کروشو
۳۳ : Caxton	کاکستون
۲۳۱ : Clarke	کلارک
۱۰۸ : Clarendon	کلارندن
۲۰۰ : Kingsley	کینجلی
۲۵۶ : Kinglake	کینجلیک
۱۸۵ : Cobbett	کوبت
۱۵۱ : Couper	کوپر
۲۷۲ : Corelli	کوریل
۳۵ : Coverdale	کوفرڈیل
۱۴۵ : Colman	کولمان
۲۱۳ : Collins	کولنز (دیلسی)
۱۳۸ : Collins	کولنز (ولیم)

۱۰۸—۱۰۶ : Coleridge	کولورج
۱۰۰ : Cowley	کول
۱۱۹ : Collier	کولیر
۱۱۸ : Congreve	کوخریف
۲۷۲ : Courad	کوراد
۱۶۴—۱۶۲ : Keats	کیتس
۶۰ : Kyd	کید
۲۷۲ : Caine	کین

(ل)

۳۵ : Latimer	لانمر
۱۸۷—۱۸۵ : Lamb	لامب
۱۷ : Langland	لانگلاند
۱۸۹ : Landor	لاندور
۳۰ : Lydgate	لیدجیت
۹۹ : Lovelace	لویس
۵۰ : Lodge	لودج
۲۷۱ : Lawrence	لورنس (د . د .)
۱۰۸ : Locke	لوک
۱۱۵ : Lee	لی
۲۱۲ : Lytten	لیتون
۳۸—۳۶ : Lyly	لیلی

(م)

۶۷ : Marston	مارستون
۹۹ : Marvell	مارفل
۶۴—۶۱، ۴۷ : Marlowe	مارلو
۲۳۵ : Masfield	ماسفیلد
۷۹ : Massinger	ماسنجر
۲۷۲ : Macaulay	ماکولی (روز)

۱۲۹ :	Macpherson	دا کفرسون
۱۹۵ — ۱۹۴ :	Macaulay	ماکاولی (ا.د.)
۲۲ :	Malory	مالوری
۱۲۴ :	Mandville	ماندویل
۲۲۶ :	Meynell	مانیل (مسیر)
۶۸ :	Middleton	مڈلتون
۱۰۶ — ۱۰۱ :	Milton	ملتون
۳۵ :	More	مور
۲۶۷ :	Moore	مور (ح)
۲۲۱ :	Morris	موریس (ولم)
۲۷۵ — ۲۷۲ . ۲۲۶ :	Maughan	موم
۱۴۴ :	Montagu	مونتاجیو (مسن)
۱۲۵ :	Montague	مونتاجیو (لادی)
۲۵۱ — ۲۴۸ :	Mercedith	میردیت
۱۹۳ :	Mille	میل (ستوارت)

(ن)

۵۰ :	Nashe	ناش
۳۵ :	North	نورث
۵۶ :	Norton	نورٹون
۳۵ :	Nox	نوکس
۲۳۵ :	Noys	نویس

(۵)

۲۰۶ :	Haggard	هاگارد
۲۵۴ — ۲۵۲ . ۲۲۴ — ۲۲۲ :	Hardy	ہارڈی (نوماس)
۱۸۷ — ۱۸۵ :	Hazlitt	ہازلٹ
۵۵ :	Heywood	ہاویوڈ (-)
۶۱ :	Heywood	ہاویوڈ (ب)
۹۸ :	Herbert	ہربرٹ (-)
۱۹۲ :	Huxley	ہکلی (نوماس)

۲۸۱ — ۲۷۹	: Huxley	هكسلى (آلمس)	كاولو
۳۵۴	: White	هوايت	كولا
۱۸۸	: Hunt	هنت	كوا
۱۰۸	: Hobbes	هوبز	كوتو
۵۴	: Hooker	هوكر	كوتو
۲۵۸	: Hearn	هيرن	كيتد
۹۸	: Herrick	هيريك	كيد
۱۵۹	: Himans	هيمانس (مسر)	كيتنه
۲۷۰	: Hewlett	هيولت	
۱۴۴	: Hume	هيوم	

(و)

۴۴	: Warner	وارر	لايتد
۱۴۴	: Walpole	والپول	لاندا
۲۷۱	: Walpole	والپول	للاج
۹۵	: Walton	والتون	اماي
۱۰۰	: Waller	والر	موند
۲۳۹ — ۲۳۷	: Wilde	وايلد	لور
۷۰	: Wechester	واستر	لوك
۱۵۶ — ۱۵۳	: Wordsworth	وردسورث	ل
۲۶۵ — ۲۶۲	: Wells	ولز	لنو
۱۹۶	: Wood	وود (هنرى)	نيل
۲۷۹	: Woolf	وولف (مسز)	
۱۱۷	: Wycherley	ويشترلى	
۱۹۶	: Ouida	ويدا	مار
۴۸	: Wither	ويذر	مار
۱۴۲	: Wesley	ويتزلى	مار
۱۴	: Wace	ويس	مار
۱۷	: Wyclif	ويكلف	مار
۲۷۰	: Weyman	ويغان	مار

(۷)

۳۶ : Wyatt	نات
۵۶ : Udall	یودول
۱۴۹ : Young	یونج
۲۳۰ — ۲۲۷ : Yeats	ییتس

شارع القصر الدي بالقاهرة دار الفكر العربي تليفون ٦٤٦٧

أصدرت هربما

- ٥ رسائل الصاحب بن عباد : نشر وتحقيق الدكتور عبسد الوهاب
عزام بك والدكتور شوقي ضيف
وثائق أدبية بديعة تفسر حياة النثر العباسي في القرن الرابع على لسان
أهم كتابه نفسياً دقيقاً ، م هي وثائق تاريخية خطيرة تكشف عن كثير
من الواحى الساسية والاجتماعية للدولة البويهية ، تضيف إلى كتب التاريخ
كثيراً من الحقائق ، وتعدل فيها كثيراً من الوقائع . ومثمه ٤٠ فرسا
- المجالس المستنصرية لداعي الدعاة : نشر وتحقيق الدكتور محمد كامل
حسين ، أول كتاب ينشر في الشرق لداع فاطمي ، يحوى خمسة وثلاثين
مجلساً من مجالس الحكمة التأويلية التي كان يلقها هذا الداعي وهي تبحث في
فه المذهب الفاطمي وبها كثير من التأويلات الباطنية . ومثمه ٢٥ قرشا
- اعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفاء : نشر وتحقيق الأستاذ جمال الدين الشيال
الكتاب القديم الوحيد في تاريخ الدولة الفاطمية ، أول دولة استقلت
بمصر استقلالاً تاماً في العصر الإسلامي ، تأليف مؤيد النسب الفاطمي وزعيم
مؤرخي مصر الإسلامية تقى الدين المقرئى؛ مع مقدمة لوضاحية ، وتعليقات
واضحة ، وملاحق مكتملة بقلم المؤلف نفسه وفهارس تفصيلية شاملة .
ومثمه ٤٠ قرشا
- كتاب التمهيد في الرد على الملحدة والمعتلة والرافضة والخطوارج :
علامة الإسلام الجليل وصحته على المخالفين ، الفاضل أبى بكر الباقلاانى :
نشر وتحقيق الأستاذان محمود محمد الحضرى ومحمد عبد الهادى ابو ريدة
بمعل ذروة عالية من درى علم الكلام في رده على جميع المخالفين من أصحاب
المذاهب الدينية والفلسفية ، ومحرره للمعيدة السنبة في المسائل العقلية والدينية
الكبرى ، وهو يصور المشكلات العقلية والدينية في القرن الرابع الهجرى
ومثمه ٤٥ قرشا

